

ملیكة أوفقییر الغریبة

En3aM
www.rewily.com



ترجمة حسین عمر

خرجت مليكة أوفقيز إلى الحرية،
بعد عشرين عاماً من السجن. لم تكن
مواجهة هذه الحرية بعد هذا الانقطاع
الطويل بالأمر البين.

ليس من السهل أن تعيش في عمر
الأربعين، مع من هم في سنك،
وكانت عشت مثلهم، فيما أنت
قضيت 20 عاماً منها في السجن.

ما عاد شيء كما كان، لا
الأصدقاء، ولا اللغة المشتركة، ولا
سائق التاكسي، ولا السوبر ماركت،
ولا طريقة الحصول على الماء، ولا
صرفه.

إنها حياة جديدة، لا يمكنها أن
تنسى أو أن تتجاوز 20 عاماً من
الغياب، وأيضاً لا يمكنها أن تعيش
بعشرين عاماً إلى الوراء.

En3aM
www.rqwlty.com

7a9reya 3ala montada erwity

الفريية

مليكه أوفقيير

En3aM
www.rzwilg.com

الغريبة

ترجمة: حسين عمر



الكتابية: الغريبة

المؤلف: ملكة أوفقيير

المترجم: حسين عمر

الغلاف: مؤسسة مصطفى فائض للطباعة والتجارة

الناشر: دار التوزيع للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف وفاكس : 03 / 728365 - 03 / 728471 - 00961/1 / 471357

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

سنة الطبع: 2007

تباع النسخة إلكترونياً على موقع

www.arabicebook.com

العنوان الأصلي للكتاب:

إلى ذكرى سعيدة منبهي

MALIKA OUFKIR

En3aM
www.r2w1ty.com

L'ÉTRANGÈRE

Préface de Michèle Fitoussi

© editions Grasset & Fasquelle, 2006.

مقدمة

ون الهاتف نحو الساعة السابعة مساءً. عرفتُ في الحال، أنها

ملكية.

أو كيكاً، بالنسبة لمن يتخونها.

تستطيع ملكية الاتصال في ساعة تشاء، كما لو أننا
افرقنا في الأمان: إنها في باريس لبضعة أيام، وستعود إلى ميامي
لنعيش هناك بعد الآن، ستقلع إلى نيويورك ومراكش ولسوس
الجلس...

استأنفنا في الحال حديثاً متصلاً منذ ما يقارب تسعة
أعوام. ثمة الكثير من الأمور التي يجب أن تُقال. بدأنا بأخبار
عائلتيما وزوجينا وأطفالنا ونوال ابتسما بالتي. ثم أخذتنا
الثروة. عن حياتنا الجديدة في الولايات المتحدة، وعن أصدقائنا
المشتركون، وعمّا يشغلنا راهنا.

تبادلنا الحديث فيما يشغلنا حالياً، وتبادلنا المشورة، كما
نمازحنا كثيراً. لملكية روح الدعاية وميل واضح إلى السرد
الساخر، وهي دائماً مهتأة لأن تسخر من كل شيء، وخاصة من
نفسها.

في ذلك المساء، هتفت لي من المغرب. من عادتها، حينما
يكون لديها خبرٌ لتبلغني به، أن

تستخدم أسلوب المداورة على طريقة المرأة الشرقية. وتعود

السي جاندا وحدها، طبعاً.

حسين

EnsaM
www.rzwity.com

إلى جذور الإنسانية. « سأحدثك عن ليلى... ولكن في البداية، لابد من معرفة أنه كان جلدًا عينا خضراوان وكبرياء وجمل من الصحراء... » وضعت ساعات وهي في سرد تكمن أهميته بطريقتها في تدبير الوقائع وفي جعل مستمعها في حالة انتظار وترقب.

خلال أحاديثنا، فاجأنا بأن تستعجل ورجوها أن قسم بالوقائع. « Only facts »، مثلما رددت عليها سندس صديقتها الوفية. لم تبال ملكية بذلك. كانت، مثل شهرزاد، تؤد أن تأخذ وقتها الكافي. كانت بحاجة لأن تتناول وجبتها بانتظام. طبق أول مشهي، طبق رئيسي، تحلية، قهوة، مهضومات. أي على النقيض تماما من طريقتنا في العيش على الوجبات السريعة، التي تنفر منها.

جعلتها أصولها وتربيتها ومن ثم لمدة سجنها الطويلة جدا أن تعرف عن مفهوم الساعات، وعن صيغة الأمر « حالا ». كثيرا ما مرت السنوات وقاما غلكتها الرغبة في الامتثال لها.

مع ذلك، كانت، في ذلك المساء، تختصر الكلام. ذهبت مباشرة إلى الهدف أو كادت. قلت في نفسي أن الأمر هام. وقد صح ظني.

- ميشيل، هناك خبر عظيم. لقد تبنا صبيًا صغيراً. يدعى آدم. عمره أربعة أشهر.

سمعت صوتها يرتعش. أحسست أنها على وشك أن تذرف الدموع، وشعرت بدموعي تنمو في مآقي. ساد الصمت بيننا

السلطان. لم يقطع الخط بين مراكش وباريس، ولكن جرى فيه الفكر من الأفعال. لطالما غلكتها الرغبة في إنجاب طفل، كان ذلك بالنسبة إليها بمثابة جرح لا يندمل. في بداية فترة اعتقالها، أراد فيها الذهاب في الصفاق عاقبة فظيعة، بعد أن كاد يودي بحياها لانعدام الاهتمام والرعاية. لم تتمكن ملكية من تحقيق أمنيتها الأعلى: أن تمنح الحياة. ومع ذلك، بذلت كل ما

بوسنها.

لا زلت أذكر هبتها الشاحبة، بعد ظهيرة كل يوم من تلك الأيام من سنة 1998، حينما كانت تأتي إلى بقي هاربة من عاصمتها كسجينة. كانت تذهب كل صباح تقريبا إلى المستشفى في محاولة منها لتحدي الطبيعة بمرعات من الأدوية كانت أنهاكها. بيد أن كل محاولاتها باءت بالفشل. كان يلزمها الكثير من الوقت والقوة المعنوية لتتقنع بأنّها لن تُرَوّق بأطفال.

طبعاً، هناك نوال إلى جانبها، نوال ابنة أختها العريضة، التي أحبها كابنتها. لدى وصولها إلى باريس، عام 1997، وجدت مريم، أختها الصغرى التي كانت تعاني من نوبات صرع عذبة، أنه من المستحيل أن تربي بمفردها الطفلة البالغة ستين من عمرها. وكان والد الطفلة قد عاد حينها إلى المغرب ليعيش فيها. وشعرت مريم، بصحتها الضعيفة، بلا عمل ولا مال، أن لا حول لها ولا قوة.

أخذت ملكية الصغيرة إلى بيتها، بموافقة زوجها ايريك. فمكنت نوال عندها. بحيث يشكلون اليوم عائلة حقيقية. يقسمون معا في ميامي، «لأن السماء دائمة الزرقة هناك»، بهذه

العبارة برزت لي مليكة سفرها. نور لطالما حرمت منه عائلة أوفقير خلال كل تلك السنوات المظلمة.

سَيَاتِي آدَم لَيْتَم سَعَادَتِهِمْ. فَهُوَ الطِّفْلُ الَّذِي حُرِمَتْ مِنْهُ طَوِيلًا. طِفْلٌ يَحْتَضِرُ. لِأَن نَوَال، وَإِنْ كَانَتْ عَزِيزَةً جَدًّا عَلَيَّ قَلِيلًا، لَدَيْهَا أَبَوَان: فَمَامَا مَرِيح. حَتَّى وَإِنْ لَمْ تَكُن دَائِمًا إِلَى جَانِبِ ابْنَتِهَا، تَبْقَى قَرِيبَةً وَحِمَّةً لَهَا.

استرجعتُ في ذاكرتي وأنا أستمع إليها تكلمني بكثير من الحُبِّ والسعادة عن هذا الصبي، الذي يملأ حيًا، كل الطريق التي سَلَكْتُ مِنْ تَلَاقَى قَدْرَانَا قَبْلَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ.

كَانَتْ تِلْكَ مَغَامَرَةٌ غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ بِقَدَرٍ مَا كَانَتْ غَيْرَ مَتَوَقَّعَةٍ. Stolen Lives في الولايات المتحدة، Die Gefangene في ألمانيا، La Prisonera في إسبانيا أو Printesa Captiva في رومانيا... لَقَدْ فَتَنْتُ رَوَايَةَ السَّجْنَةِ، الَّتِي تُرَوِّي قِصَّةَهَا الْمَذْهَلَةَ، بِتَرْجُمَاتِهَا الَّتِي تَقَارِبُ الثَّلَاثِينَ، مَا يَقَارِبُ مِليونَ قَارِئٍ فِي الْعَالَمِ.

لَمْ يَرَاوَدْنَا الظَّنَّ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ مِنْ آذَارِ 1997، حِينَمَا التَقِينَا فِي بَيْتِ صَدِيقَتِنَا الْمَشْرُوكَةِ ثَرِيَا الَّتِي أَقَامَتْ حَفْلَةَ اسْتِقْبَالٍ بِمُنَاسَبَةِ رَأْسِ السَّنَةِ الْإِيرَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ.

نَحَبُ ثَرِيَا الْاسْتِقْبَالِ فِي مَسْكَنِهَا الْقَسِيحِ الْكَائِنِ فِي نَوْبِي. حَفْلَاتُهَا سَاحِرَةٌ، يَتَكَلَّمُ الْمَشَارِكُونَ فِيهَا الْفَرَنْسِيَّةَ وَالْفَارْسِيَّةَ وَالْإِنْكَلِيزِيَّةَ وَالْإِسْبَانِيَّةَ وَالْإِيطَالِيَّةَ... وَنَلْتَقِي فِيهَا — golden boys — بِمَنْفِقِينَ إِيرَانِيِّينَ وَبَنَاسٍ ظَرْفَاءَ جَرَى اخْتِيَارِهِمْ بِعُنَايَةٍ فَائِقَةٍ وَبِالكَثِيرِ مِنَ النِّسَاءِ الْحَسَنَاتِ.

حَلَسَتْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بَرَزَانَةً، وَصَمْتُ، إِلَى حَافَةِ حَلْبَسَةِ الرَّفْسِ... لِأَسَلْتُ أَلَمْهَا كَانَتْ تَوَدُّ الْإِخْتِلَاطَ بِالْآخَرِينَ لَكِنَّ شَيْئًا كَانَ يَمْنَعُهَا عَنْ ذَلِكَ. شَعُرْتُ بِهَا مَفْتَحَةً كَثِيرَةً. أَلْسَارَتُ الْفَتَايَا وَفَضُولِي وَلَمْ أَكْفُ عَنْ التَّرَفُّسِ فِيهَا.

هَذِهِ مَلِكَةُ الْوَقِيرِ، أَرَأَيْتِ مَنْ تَكُونُ؟ هَمَسْتُ لِي سُوْز، وَهِيَ صَاحِبَةُ إِيرَانِيَّةٍ تَرْطِبُنِي بِهَا صِدَاقَةً طَوِيلَةً الْأَمَدِ.

أَمَسْتُ سُوْزَ، الْحَسَنَاءَ الطَّوِيلَةَ السَّمَرَاءَ الْمُنْدَفَعَةَ، دَوْرًا خَاصًّا فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ. أَلَمْهَا هِيَ الَّتِي جَعَلْتَنَا نَلْتَقِي بَعْدَ ذَلِكَ بِجَمَّةٍ وَجَمْرَةٍ، مِثْلَ الْجَنِيَّةِ الْخَارِجَةِ مِنْ قَنْدِيلِ زَيْتٍ. فِي الشَّرْقِ، لَا أَوْجَدُ مَصَادِفَةً، الْقَدَرُ هُوَ مَا يَقَرَّرُ. فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ، سَتَكُونُ سُوْزُ هِيَ وَسِيطُ «الْمَكْرُوبِ». مَا قَالَتْهُ لِي لِنَتَوَّجَعْلِي نَهَبَ التَّامَّلِ وَالْفَكْرِ.

طَبَعًا، عَرَفْتُ مَنْ تَكُونُ الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ الْخَزِينَةُ. إِفْمَا الْأَبْنَةُ الْبِكْرُ لِلْجُنَرَالِ مُحَمَّدِ أَوْفَقِيرِ، صَاحِبِ مَحَاوِلَةِ انْقِلَابِيَّةٍ ضَدَّ عَاهِلِ الْمَغْرِبِ، الْحَسَنِ الثَّانِي، فِي 16 آبَ 1972، وَالَّذِي كَانَ حِينَئِذٍ وَزِيرَ دِفَاعِهِ وَرئيسَ أَرْكَانِ جَيْشِهِ.

فَشَلَّتِ الْمَحَاوِلَةُ. مَاتَ الْجُنَرَالُ أَوْفَقِيرِ، أُعْذِمَ بِخُمْسٍ وَصَاحِبَاتِ فِي جَسَدِهِ. بَعْدَ الْخِذَاذِ الرَّسْمِيِّ، أُرْسِلَتِ عَائِلَتُهُ أَوْفَقِيرِ: فَاطِمَةُ زَوْجَةُ الْجُنَرَالِ وَأَطْفَالُهَا السَّبْعَةُ وَمِنْهُمْ مَلِكَةُ الْبِكْرِ الَّتِي كَانَتْ فِي الثَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا، وَعَبْدُ اللَّطِيفِ أَصْغَرُهُمُ الَّذِي بِالْكَادِ بَلَغَ الثَّالِثَةَ، إِلَى أَعْمَاقِ الصَّحْرَاءِ، لِيَقْبِعُوا فِي سَجُونٍ قَطِيعَةً لَا إِنْسَانِيَّةَ. أَرِيدُ هُمْ الْمَوْتَ فِيهَا مُجْتَمِعِينَ.

لقد حُسب ذلك بمعزل عن إرادتهم في الحياة التي كادت تكون مشتركة بينهم. بعد خمسة عشر عاماً، تخلصوا من قدرهم في نهاية فرار مذهل، جعل هذه المزق المتصورة جوعاً وانحكومة من قبل حاكم مستبد تبعث من الظل والظلمة. كما قضت العائلة خمس سنوات تحت الإقامة في مراكش، عوملت خلالها على نحو أفضل، ولكنها ظلت مأسورة.

في عام 1991، وبعد عشرين عاماً من الأسر، عجل نشر رسالة الناقدة جيل بيرو الناقدة "صديقنا المسك" في إطلاق سراحهم. وقد احتاجوا إلى خمس سنوات إضافية ليحصلوا على جوازات سفرهم ويغادروا المغرب، بعد فرار خيالي ثان، قامت به هذه المرة، على متن سفينة، ماريا إحدى شقيقات مليكة الصغيرات.

عشرون عاماً. حياة واحدة. انقبض قلبي لرؤية مليكة وسط تلك الحجرة القسيحة، تحاول عقوباً أن ترقص ثم تعذل عن رأيها، وقد بدا عليها التأثر والحجل أيضاً. كلما اشتدت الموسيقى وباتت أكثر طرباً، كلما رنوت إليها دون علمها، وأسرفني حزنها العميق.

آنذاك دخلت سوز المسرح جدياً. انتظرت إلى أن جلست مليكة ثم قادني نحوها.

وكانت صفة الحب، صفة القلب، لسم ذلك كما نشاء. ولدت صداقة للتو. لأنها كانت مليكة ولأنني كنت ميشيل، كما ستقول فيما بعد صاحبتين. في الحال، شعرنا

بعدة بذلك الفيس من الودة والانجذاب المتبادلين، وإن لم نحاول أن نحدث، عدا الترحات، كانت غيرتنا تبادل الكلمات والابصامات.

ميشيل صحيفة وكاتبة، تابعت سوز. مليكة، إذن، الهاء... مليكة أوفقي.

رسمت نظرة ثانية ومصافحة ذلك التواطؤ الوليد بيننا. أدركنا رجلاً، اللذان كانا حاضرين معا في ذلك المساء، عذباً وحتى دون أن يتداولوا مع بعضهما - لم يكونا قد تبادلنا بعد - أهمية ذلك اللقاء في حياة كلتينا الخاصة.

لدى انصرافنا من سهرة ثريا، تبادلنا أرقام هاتفي.

أخبرت رفيقها إريك جانباً. أغرقتني في الحال نظراته الماكرة من خلف نظارتيه الصغيرتين المذرتين، وانتماسه الودية ومصافحته الحارة.

قال:

- أهلي بها. إنها لا تعرف الكثير من الناس في باريس. فسلم للأفكار الغزوة وحيدة في البيت. وأنا أعمل طيلة النهار.

لدى عودتي إلى البيت، لم أتم تلك الليلة. لازمني وجه مليكة الحسن. طرحت على نفسي ألف سؤال. ما الذي ألم بها؟ كيف يشعر المرء بنفسه، حينما يعث، حياً، من سرداب الدفن؟ مرت رؤى مربعة في عيني. قرأت مقالات عن

قصتهم، على فترات متباعدة، لا سيما في فترة فراهم. كان فصل من كتاب جيل برون مكرساً لهم، ولكن الشهادات التي رواها، وهذا ما سأعرفه لاحقاً، غالباً ما كانت غير دقيقة. كانت الحقيقة أصعب من ذلك بألف مرة.

استولت حكايتها على كياني. أردت أن أقصها على من البداية وحتى النهاية، أردت أن أعرف أدق تفاصيلها وأردت أن أكتبها معها. اختلط كل شيء في داخلي: الإثارة الصحافية والوعود إلى ما هو خيالي واهتمام الكائن البشري بهذا القدر الغريب. ثم أن المرأة أثرت في، أثرت في للغاية.

لكنني لن أتجرأ قط على سؤالها عن ذلك. لأنه قد يكون نكثاً بالتوازن المشئ الذي أقيم بيننا ذلك المساء. أرسلت إليها مؤلفاتي، على أمل أن تعجبها وأن تشهد ضمناً على جداتي.

بعد بضعة أيام، سمعت صوتها الواهن عبر الهاتف. ومن خلال لحظات صمتها، شعرت بما تعانيه من كرب وأسى. إنها في باريس منذ ما يقارب ثمانية أشهر، تسكن في الدائرة الثالثة عشر في بيت إيريك. قلماً تخرج منه ودائماً بصحبته. تخيفها المدينة الكبيرة. كانت سجن، ولا تزال كذلك في مخيلتها، في سلوكها اليومي، على الرغم من الحرية المطلقة التي قدّمت لها. لم تكن نوال، ابنة أختها، قد دخلت حياتها بعد. ولتصطفية الوقت، كانت تشاهد التلفاز أو أفلام الفيديو.

اقترحت عليها أن تناول الغداء معاً. ووافقت في الحال. بعد ذلك بيومين، وأنا أجلس إلى المائدة رفقة مليكة،

أوركت على الفور بأنني لم أغدع بها. هذه المرأة التي تأكل السلطة بطرف شفيتها وبطريقة غاية في الرقة كأمريرة متميزة. أوركت شخصيتها الفريدة وذكاها الوقاد وتأهبها الدائم وطرفها و«شامة الجنون» تلك التي تمنحها قطعاً مكانة خاصة.

إنها هي من ستقترح عليّ كتابة ذلك الكتاب معها، بعد أن روت لي جانباً كاملاً عن طفولتها والذي كنت أجهله ويعرفه القليل من الناس. في الخامسة من عمرها، جرى تبني مليكة من قبل الملك محمد الخامس، لتكون إلى جانب ابنته الصغرى الأميرة للأمية التي كانت تصغرها بسنة.

عند موت الملك، تكفل الملك الشاب الحسن الثاني بالطفلين، وستعيش مليكة أحد عشر عاماً بعيدة عن أسرهما، بين الفيلالين، حيث تعني مربية الزاوية بالفتاتين الصغيرتين بقبضة حديدية، والقصر حيث يرعاها العاهل الجديد بلطف مع عطف وصرامة أبوين. قلماً كان يشغل عنهما: بين حرم الحظيات ولعبة الغولف والقروية والأسفار والحفلات، تلقت مليكة تربية أميرة حقيقية. مع ذلك، ومع كل ما كانت عليه من دلال، فإن القفص قصص، ليس سجن ولكنه حجز للحرية. في السادسة عشرة من عمرها، توسلت مليكة إلى الملك كي يمنع باب القفص. اشتاق ذروها إليها كثيراً. فوافق الملك. سادق الفتاة الشابة لأول مرة، ولمدة عامين فقط، عذوبة العيش في كنف عائلة حقيقية. مع أخوة وأخوات كانت لا يعرفهم حتى هذه اللحظة، وأم كانت مولعة بها، اشتاقت إليها أشدّ الاشتياق أثناء غيابها، وأب قلماً أعانها سلطته التي

كادت أن تكون مطلقة. لقد وجدت لها من خلال نفسها، وهي المتعلقة داخل حياة تكتم حدودها والزاماتها على أنفاسها.

بعد محاولة الانقلاب، واجهت مليكة مأزقاً مؤلماً. فوالدها البيولوجي حاول قتل والدها بالتبني، والذي، بالمقابل، قتل الأول، وأوسل، في حالة هيجانه، مليكة لتقع في السجن مع كل أسرها.

كانت مليكة تحب بشغف هذين الرجلين. لا يمكنها أن تختار بينهما ولا أن تكررهما على الرغم من أنهما. حينما تفكر بالملك الحسن الثاني طيلة سنوات الحبس الطويلة تلك، لا تقبل على الوثوق بأحد. يبدو لها أنها ستخون زوجها لو أنها فكرت به بحجة. فهم لا يرون فيه سوى جلاّد. تنصر مليكة على الرجل الذي رعاها.

القدر الفريد للمليكة يرفعها، رغم أنها، إلى مصاف بطلة لتراجيديا قديمة. المرأة، الحيانة، الموت العيف، الانتقام، القسوة: هذه الأحداث الطارئة التي تكرر ركاكتها من زمن آخر صاغت صيرورة حياتها. كانت اتخاكم الكلبة مسرحة لمسألات منطقها معظم القانون. سحري كل ما روت لي عن ذلك، ولا زلت لا أعرف سوى بدايات مسيرتها.

طالت فترة الغداء. لم تعد لدي رغبة في الرحيل. تتقن مليكة لعب جميع الأدوات، وجميع الشخص. تكون بالتساوب امرأة مسنة أو طفل، تنتقل من الضحك إلى البكاء والعبرات في أقل من لحظة.

لقد سبق وطلب منها أن تكتب قصتها. ورفضت كل العروض. تريد أن تشعر بالأمان. وعلى حين غرة، اعتقدت أنها وجدت في الشريكة المالية. تعارفنا منذ أمد قريب، ولكننا شعرنا بأن الصلة التي شرعت لتتسع بيننا متينة. وباستمرار، استخبرني خلال الشهور التالية. ودون أن أدري ذلك، تجاوزت «الاختبارات» الحاسمة في نظرها. تخشى مليكة كثيراً الخيانة، بحيث أنها تحتاج إلى أن تطمئن في كل لحظة إلى الصداقة التي تربط الآخرين بها.

وأقنعها جان - كلود فاسكيل، الذي استقبلها، بالانكباب على الكتابة. لقد سارت الأمور بينهما بيسر. طرح عليها المعلم الكبير لدار نشر غراسيه، متأثراً بالعينين الحزبتين للمليكة وبقصتها التي يعرفها جيداً، ومقنناً بسحرها وبهبتها، صراحة، السؤال الوحيد الهام في نظره. السؤال الذي يبرهن لها أن المقصود سوف لن يكون تحقيق «سبي» في مجال النشر، وأن هذا الرجل الشهم يحسب قبل كل شيء حساب سلامتها.

— هل أنت متأكدة من أن كتابة هذا الكتاب ونشره سوف لن يلحقاً الأذى بك، ولا بأسرتك؟

كان الحسن الثاني لا يزال حياً ولا يزال يقبض على بلاده بقبضة من حديد. وكتاب جيل بيرو محظور في المغرب. وقد وضع ناشره، أنطون غاليمار، الذي زار الدار البيضاء بمناسبة معرض للكتاب، تحت الإقامة الجبرية في فندقه لثلاثة أيام. هذا يعني أننا قدرنا المخاطر. فقررت أن وحدهم أقارباً سيظلون على السر. ونستخدم حيلة بارعة طيلة عام كام

للحديث عن كتابنا عبر الهاتف. في كل حديث، استخدمتُ مسجلتين. وأخفى ناشراً ليظن ما نويل كاراكسون، الذي أظهر دعماً أكثر من نفسي أثناء كل معامرة هذا الكتاب. نستحق الأسطوانات في خزانة. ربما بدا ذلك من مخف الطولي. إذ ما الذي تجار به في فرنسا؟ ولكن لم ينس أحد من أين قدمت مليكة، ولا ما عائلته، ولا قدرة جهاز الاستعمارات المغربي، حتى خارج بلاده.

واجهنا حادث عرضي في حرمنا واحتراسنا. كانت مليكة بحاجة لأن تتيقن من أنها مستعدة لقول كل شيء. وستكون رحلة قصيرة إلى المغرب حاسمة بالنسبة لها. في أيار 1997، قررت الذهاب لرؤية والدتها في الدار البيضاء أثناء عطلة آخر الأسبوع. أخرجت مليكة هناك لستة أشهر. أشتبه بأنها تريد كتابة شهادة فمن الذي أخبر بهذه الدقة المخبرين الذين كانوا يضيقونها؟

والمفارقة أن ذلك الحادث العرضي أعطى لمليكة الدافع الذي كانت تنتظره. وحينما التقيت بها من جديد في كانون الأول، كانت قد بصحت لرحلتنا الطويلة في ماضيها.

شكلت سبعة أشهر من المناقشات بواقع ثلاث «جلسات» أسبوعياً، من بداية كانون الثاني وحتى نهاية تموز 1998، المرحلة الأولى من العمل. أكتب كلمة «جلسات» بعرفة. ولتلطيف الجو بعد اعتراف مؤلم على نحو خاص، كنت أحس لها غالباً، بعد أن أظن المسجلة:

حسناً، أنت مديبة لي بـ 300 فريك. هذه هي التعرفة
أو سأجدها منك أخصائي نفسي، اليس كذلك؟

طبعاً، كانت تفهقه وهذا ما كنت أنتظره. أن أجعلها
تضحك في مكثي الصغير الذي كنا نجلس فيه مقالتين براحة
وطمأن. كانت تعقد جلسة سرية غربية، يقطعها أحياناً
الطفا لي وهم يظنون في الوقت المناسب لتخفيف التوتر.

هي تتكلم وأنا أتخيل. غالباً ما يعتصروا الانفعال معاً.
وعلاً ما كانت الكلمات تحملها. وتفقد القدرة على
لاستمرار. ولا أُلح عليها. وستعود بنفسها، فيما بعد، إلى
الأحداث التي ترهقها.

أحاول أن أتقل ماضيها كل شيء يفرقا. الدين، الثقافة،
التربية، الدراسة. لم أعش قط في قصر ملكي، ولم أعرف
شخصياً لا ملوك ولا محظيات ولا كبار الخدم، ولا مرتبة
الرئاسة. وكجمهورية مقتتة، يشق علي أن أتقبل رعايت
خاصين للملك ذي سلطة مطلقة. كما لم أحظ بحياة المراهقة
الطائشة تلك، والفتاة ذات المقام العالي، والشباب الزاهي لابه
الاجتماع المخملي.

حتى وإن كنت أعرف الشرق من خلال إقامتي في
المسنوات الخمس الأولى من حياتي في تونس التي ولدت فيها،
فقد بدا كل ذلك بعيداً جداً عني.

بينما كان الزمن يمضي بطيناً جداً في سجنها، وهذه أيضاً
تجربة لم أكن أعرفها، درست وعلمت وأحببت، وعرفت السر

والعسر، ككل الناس، ولكن بمقياس كل الناس لم ترحس وتلفت وأبحث طفلين أعشقهما إن حيائي، عي بدنها، هي قبل كل شيء ما أنجرت خلافا. أنا سيده مصورة ملكة فليست كذلك. في الأربعين من عمرها، وجب عليها أن تتعلم الحياة. وهذا أكثر ما يفرقنا في العمق، هذا المهر الساكن بالنسبة لها والفري باللقاءات والمواقف بالنسبة.

ومع ذلك نحن قريتان من بعضنا. ونشعر لملك كل يوم أكثر من ذي قبل. أفهم وجهها. أجعل منه رجعي حيا أصبح فاطمة، أمها التي كانت عقوبتها الأكثر قسوة بأرب: لقد حبست مع عبد اللطيف، أصغر أبنائها، لأحد شرعاً دون أن يكون لها الحق في رؤية أولادها الآخرين. لم يكن يسمحها سوى أن تتخيلهم من خلال الجدران السمكة للجن. على بعد بضعة سنترات، كانوا يرون الطقاء شبههم، دون أدق أمل في الخروج إلى النور. هل هناك عذاب شع من هذا بالنسبة لأم؟

لقد نجحت في أن تدسني في جلد كل واحد إخواني وأخواتي. أنا عبد اللطيف الصغير، الذي سجن في مصر صغير جداً للدرجة أنه حينما سفير رفقة ثلاثة من بكرويه، سرونو بفضولهم إلى عالم يجهله. لم ير قط طريقاً ولا بقلاً ولا شجرة ولا عمارة ولا حماماً. أو أنه لم يعد يتذكرها. لم يسلم سوى أن يتخيلها. وحدها الحكايات التي روتها ملكة تربطه لواقع.

أنا أيضاً رؤوف، الوحيد واليأس في زفزان الذي يحلم بوالده وبالحيوات التي لن يعرفها ونحن أيضاً الفين الثلاث.

مجي التي بقيت، أفدة لسوات عديدة حراء الخفاض حاد في بصط والتي يعرف أن عذد الوقت، بدون ساعة، لأحتها البداية للفر من سفل فرانشها تحشو بالقش؛ وسكية وماديا، المسجوتين في العاشرة والحادية عشرة من عمرها على التوالي، وابنتان تنتظران كل شيء من ملكة علاوة على أنها أختيهما البكر، ستكون انهما والداه وهرتيهما، ومنارهما التي نصي ذلك الليل الطويل الذي لا نهاية له، تلك التي توحى بالأمل ونزع الاخبار والاستسلام. تلك التي ترغبك أن تبقى كأننا بشريا.

أخيراً، أنا عاشورا شتا وحليمة عبودي، ابنة العم والخادمة. اللتان لم تشاء أن تتركنا آل أوققر في منفاهم؛ وقاسمتنا طواغية مصوره، دون أن تنفرا أبداً.

كل واحد منهم يشبه شخصية روائية. حينما التقيت بهم أخيراً، شق علي أن أصدق بحاتم ووجودهم. يتحركون أمامي، يفكرون، يتكلمون، إنهم تلقائون. لم يعد كلام ملكة ولا كلماتي هي ما يجعلهم يحيون. في البداية، شق علي بعض الشيء أن ألق ذلك.

حينما روت لي ملكة فرارهم، تمكنت بأريكي وكأني أمام رواية معامرات أو فيلم مبهج. تستمتع الحكاية أسوعاً كاملاً. بعد ظهيرة كل يوم، حينما كانت تختم حكايتها بعبارة «أنا متعة، سنلتمى غداً»، كنت أشعر بنفس الصيق الذي يشعر به من يتعلق بمسلسل تلفزيوني وهو يرى على شاشة تلفازة العبارة القدرية. «يتبع». في الصباح، حينما

استيقظ، أتفاجأ بالبحث عن نظاري على طاولة السرير لأفسد
تمة القصة التي لم أكتبها بعد...

حينما أكون معها، لا أمل أبداً، أضحك، أبكي، أرتجف
أرتعش. ويقلقي تأخرها. يدور الزمن. تُصل بي.

- ميشيل، لقد تغير شارع بيتك هذه الليلة: لقد اختفى
بيتك.

لعشر مرات، لعشرين مرة، جاءت إلى بيتي ولا تزال غفنى
في العزور على طريقه. أفقهه.

- والمترو؟ ألا يزال موجوداً على الأقل؟

أساعدنا بصبر وأناة في استعادة وجهتها. ولحسن الحظ
أن الهاتف المحمول موجود. إنه بوصلتها، مفتاحها السحري.
دليلها، إنه حصة بني بوسيه petit poucet لإرشادها،
وسيلة الإبقاء على الاتصال مع الواقع، أي نحن، إيريك وأمه
فرانسواز وبعض الأصدقاء والأقارب.

ولا أضجر عندما أنكب على الكتابة. 40 أسطوانة
1500 صفحة من المخطوطات. لا بد من الحذف والشطب
والتشذيب. لرُبما أمكننا أن ننشر ثلاثة أجزاء. اخترنا أن
نتوقف بالضبط بعد استعادة الحرية، مع بعض الصفحات في

* petit poucet: عنوان حكاية للأطفال واسم شخصيتها الرئيسية التي
كُتبت تصف الحمى لتستغل بها على بيتها، وهي للكاتب الفرنسي الشهير شارل
بيرو (1703-1628) وله أيضاً حكاية ذات القلمونة المراء - هلمرجم.

الصوت الخمس التي أمضيتها في المضرب
... إلى فرنسا.

كما قد استحضرننا فكرة حوار بيسا، ميكه
فمنها خيالية للدرجة أنني قررت كتابتها بصيغة
أول لمطي تجسيدا أكثر للكتاب. خلال تلك
لونه من الكتابة، وأنا حبيسة منزلي أمام حاسوبي، بلا
عصبة ومهوكة، وبلا اهتمام بأهلي الذين، لحسن
بهموا، كنت أنا مليكة.

لقد حملني الفرد الثامن في عائلة أوفقيو، قلت
معه بالمشكي، خلال غابراتنا المانفية الخمسين في

مادل كاركاسون هو قارئنا الأول. وإذا تأثر بالقصة في
بدي فصولاً حيال كل التفاصيل وحفي على إعادة
العمل عنها. كلون توب وعيني عطية وقسوة سجان. كان
في دفتر ملاحظاتي، حتى مخطط زناينة بهر - جديده،
ومعلقا عليه بخط يد مليكة، لكي أفهم أكثر ما ترويه

بدأت أرتعد أمام تلك الجدران الورقية. ذات يوم، كانت
مهمه ظل القب الذي أشارت إليه برأس القلم لتشرح
لهم بواصلها مع أمها، من زناينة إلى زناينة، على حاله.

وسجت نموذج جهاز الصوت البدائي الذي صنع من قبلهم.
لأب تتيح لهم كل مساء الاستماع معا إلى الراديو، رغم

الخواص السمكية التي كانت تفصلهم عن بعضهم، وتتيح لمليكة رواية قصص لجمهور عائلتي محروم من كل شيء.

وكان غطط النفق، الذي حفر على مدى ثلاثة أشهر بملاعق صغيرة وأعطية علب معدنية، دقيقاً أيضاً في الليل. عابت من الكوابيس. هربت معهم قبض الحراس على ثانية. استيقظت عرقانة لأحد بانها لم تكن سوى كوابيس، وأبقي في سريري في جو حار. حدث لي مراراً أن شعرت بأني مذبذبة برفاهتي البسيطة تلك.

حتى إذا كانت الصحافية تطالب بالمزيد من الإيضاحات، كان لدي في الغالب الهواجس من أن أفاحاً ملكية بذلك، من أن أوقظ في كل مرة الوحوش. من كل ما روتني، كانت حكاية موت أبيها أكثر ما يبلها وأثار هياجها. شق عليها أن تعيد القراءة. هناك الكثير من الأمور التي لم تروها قط لأي شخص.

خلال كل تلك السنة، شاهدت ملكية تتغير. تستعيد الثقة بنفسها. لا تزال ثقيل ونسيء التغذية بطريقة فوصوية، ولكنها استعادت وزنها. غالباً ما تصحك. يمنحها إيريك الحب الذي تحتاجه لتعود من جديد إلى العالم. لم يعد لديها ذلك المظهر الشجي ولا تلك النظرة الطفولية المنتهية التي تثير الرغبة في احتضانها لمواسمها والممس لها « لن يتكرر ذلك أبداً ».

قررت أن تنظم حياتها: أن تتزوج وتنجب وتقل مسكنها

و، روح في تشرين الأول من عام 1998، كنا حفنة من الساحص في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة لخصور زواجها دن جورج كبحمان، محاميها خلال الأيام العvisة، حاصراً. وكان الجميع متأثرين أشد التأثير.

تخلت أبنية الرياح وبذخها في القصر، وفكرت في ما كان سيكون عليه زواجها في العشرين من عمرها، في المغرب. لو لم يكن قلدها قد انقلب. عرضت لي صوراً لها في عيد ميلادها الثامن عشر ملصقة في اليوم من الجند الأحمر، وهي أحد أشياء الماصي النادرة الناحية من الإعصار. أقدم والديها حفلة راقصة احتشدت لها الدار البضاء بأكملها، وحضرها حتى الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك الحسن الثاني بذلك الثوب الطويل من مازكة ديور، وشعرها المنظم، وابتسامتها المتصنعة بعض الشيء، لم أعرفها. حقاً ألتها كانت واحدة أخرى.

جرت حفلة العرس عند والذي إيريك، في ثانوية راسين، التي كانت مديرتها فرانسواز بوردروي، وهي سيدة قوية الشكيمة، لها ابتسامة ساحرة وظرف ابتسائها. التقت بتلك المناسبة بأفراد عائلة أولفير الذين لم أكن أعرفهم بعد.

أعجبت بجمال فاطمة الحاروق. وهي في الستين من عمرها، لا يحمل وجهها الذي لا زال يحفظ شبابه - كأنها الأخت اليكر - آية أمارة على منحها. وحده الحزن الأبدي في أعماق عينيها الكبيرتين الكبيرتين يشهد على آلام الماصي.

مدحها. ساهمت إليه حتى قبل ترجمته، محطات التلفزة،
والادب، والسينما الفرنسية والأجنبية. وانما كانت الطلبات على
السينما، كملود دالاي تورو، الملحق الصحافي لدار غراسيه،
للمسارعة، في هذه، ونشاط علاقاته بالصحافة. لم يهدأ
لحظه، من الكتاب، الذي يحقق أفضل المبيعات على
الاطلاق، من سبع حديده على رأس قائمة المبيعات.

في هذه، التي انخفضت فيها المبيعات، أنشأ موت الملك
الحسن الثاني، الفصول حيال المغرب وستأقما المظلمة وحكاية
عائنه، وكانت تلك انطلاقا جولة إعلامية واسعة، ومن
حديد هذه السحبة، في رأس قوائم المبيعات. كانت مليكة
حريه، بعد موت الملك، حتى معرفة مشاعرها المتناقضة
وحداها، هالها ما تحدثنا عن ذلك- ولما كنت لأصوّر
العكس.

ولكن، خلا من كل شياها هو ما تبذ معه ثانياً، هذه
المرة، برف مسمرة طيلة النهار أمام تلفارها الذي التقطت
القصاص، به، وانفعلت وهي ترى بشرود القصر والمحطات
والملك محمد الخامس على صهوة جواده المزين بالريش. هل
ستنتهي مليكة ذات يوم إلى حل مع ماضيها؟

مع ذلك، سوف تساعدنا المقابلات التي ستعطيها، في
فرنسا، ولا، ومن ثم في كل مكان، في التمام جراحها. ولو أنها
أصبحت رعباً عنها كاتبة إعلامياً، ومطلوبة باستمرار من قبل
صحف وتلفزيونات العالم بأسره، ومعارض الكتاب وحاصلات
التوليف والمقالات. كما التقت بأصدقاء منسيين، ومعارف

شددت على يد رؤوف الذي أدهش وقاره وشبهه بوالده

اكتشفت ماريا، امرأة جميلة، في غاية الأناقة، عازمة على
سيان الماضي، وعبد اللطيف شاب وسمي وخجول وكنت قد
التقيت من قبل بسكنية الفتاة المسترجلة ذات الساقين
الطويلتين كشادن، والتي تعلم بالجراح في مهنة العناء، وميمي،
الرفيقة والطيبة، التي تكتب أشعاراً شجية. وبانو الصغيرة، وهي
الثينة الحازمة والفضولية، التي على الرغم من الزاوة الخفيفة
في نطقها، لها رأي في كل شيء، وتوشوش بصوتها الجهوري
وهي تحذرك بعينها المدورتين كحقي زيتون سوداويين

كما تعرفت إلى والد إريك، بير بوردروري، وهو باحث
دو مظهر وديع وجذاب مثل الأستاذ نيموس، بلحيته وشعره
الأبيض اللحي، وأخته ماريون، شبيهة إريك الشقراء، وبولو،
حلته، وهي سيّدة مسنة مذهشة، ذكية وحيوية. جميعهم يتحون
مليكة وعائنتها، يتهموهم ويعتنون بهم ويحموهم ويقسمون
بينهم وبين العالم الخارجي جسراً من الخبة والعناية. هؤلاء الناس
المدحشين يعنون الدفء في القلب.

كانت مليكة محظوظة بأن جرى تبنيها بهذه الطريقة. وهي
تعرف ذلك: فبادلتهم بحبهم وأجبت إريك حباً شديداً. حينما
يُنظر إليها من الخارج، يشكّلان ثنائياً رائعاً، ومؤثراً للغاية
حينما تُعرف حكايتهما.

منذ صدور الكتاب في شباط 1999، كان نجاحه "سريعاً

* الزاوة، هي لفظة العامية (ج) كحرف الزين (ز)
أي كتاب: "المسجلة"

قدما لوالديها أو من الفترة التي كانت فيها فتاة شابة من المجتمع المغربي السعيد، وتلفت بربداً غريراً. وبات استخدامها للوقت مثقلاً جداً للدرجة أنني قدّمت لها فيلو فاكس بدلاً عن دفتر المدرسي ذا المربعات الصغيرة الذي كانت تكتب فيه مواعيدها. لست متيقنة من أنها استخدمته. ولكن كان ذلك مناسبة للشك بيننا من أجنلتنا الجديدة كوزيرة.

حشيت أن يكون ذلك مرطاً وأن يجعلها تحتر ماضيها سريعاً. ما حصل هو العكس. لوط ما روت حكايتها، تعزمت ملكة. لا تكل أبداً من تكرار حكايتها حتى وإن كانت جولانها في أوروبا، حيث يلقي الكتاب نجاحاً، لاسيما في ألمانيا، نهكها أحياء و توف طاقتها.

يرعها وهما وضعهما على أن تراعى صحتها. غالباً ما تعاني من آلام عاصمة أمتيتها «أوفقيربات» في محاولة مسي للتخفيف عنها. تعاني من آلام في الرأس أو البطن. يبقى تشخيص أسبابها مجهولاً وتروّل إن لزمت السرير لبضعة أيام.

لقد قضى السجن جسدها من الياطل. الأفراد الآخرون للعائلة يعانون بدورهم من هذه الآلام. وبعضهم يعاني من أمراض أكثر خطورة.

اهتمت السينما بحكايتها. دعها ناكاني مارسيانو، وهي منتجة سينمائية شابة من أصل مغربي، إلى لوس أنجلس حيث تعيش. أبت إلا أن تنتج الفيلم. لن يحدث الأمر في النهاية، ولكن ملكة ارتبطت من جديد مع أمريكا شباباً، حينما كانت تعلم بأن تصبح ممثلة.

وجذبتها تلك البلاد بشكل حاسم من خلال أوبرا بيفراي. التقت المراتان بمناسبة الجولة الأمريكية للملكة لدى صدور الكتاب في الولايات المتحدة.

أوبرا «سيدة شيكاغو» التي تسيطر على اثنين وعشرين مليون مشاهد في العالم وتحقق أفضل الأعمال رواجاً والتي يحاطها الأمريكيون - توني موريسون التي دفعتها إلى القمة، تدب ها جميعاً الهائلة - الفتت بملكة وبالكتاب وجعت من نادي أوبرا كتاب الشهر من خلال شرائها لستعمائة ألف نسخة دفعة واحدة من الناشر الأمريكي. ولم تفعل ذلك قط مع كتاب فرنسي آخر.

بفضلها سيقى السجينة لأكثر من عشرين أسبوعاً على رأس قائمة الكتب الأفضل روحاً لصحيفة نيويورك تايمز. وهذا أيضاً لم يحصل قط لكتاب فرنسي.

حينما اتصلت بي ملكة لتزني الخبر، ذكرتها بأنها، حينما كنا نحن الاثنين محبوسين في مكنتي، كانت تتوقف عن الكلام لتسألني بحسرة:

— ميشيل... أجيبني بصراحة. من سيهم هذا الأمر؟

— أنا، كنت أقول دون اضطراب. أنا. هذا يسحرني. هلاً

تابعتها؟

أحياناً كنا نتوقف، ونحلم. وماذا لو صار الأمر على ما يرام؟

جلتها ذات يوم عن أوبرا:

أعزبين، هناك في الولايات المتحدة، ذلك البرنامج التلفزيوني الذي تنتجه وتقدمه تلك المرأة المذهلة التي أصبحت أكثر شهرة من رئيس الولايات المتحدة، إنها تهم بمحاكاة الشبهه بمحاكاة. هل تصورين لو...؟

ولكن لم نشأ أن نتخيل أي شيء، ذلك بعيد المثال جداً وغير الواقعي تماماً. فواصلنا العمل.

امتدنا أوبرا في أيار 2001 إلى شيكاغو. كانت ملكية ضيقه الحمة كان الجمهور عبارة عن هيئة من ربات المنزل الأمريكيات، القادمات من أركان البلاد الأربعة والمتحبات من بين آلاف المرشحات. ماري من فيسكونسن وسو ايلسن من أتلانتا تتجاوزان مع جيسي من يوجوسلايا كل هؤلاء النساء، وإن بدقة Stolen Lives (حيوات مسروقة)، هكذا غنّون كلب السجينة في الولايات المتحدة.

«لذا نحن بالكاتب»، أسرنا لاري، مساعد أوبرا.

لقد منم العرض حقاً على الطريقة الأمريكية. قبل البرنامج، طابا الجميع بروايتهم. وقبل التسجيل ببضعة دقائق جُلس في الصف الأمامي، نحن، أي ميمي، أخت ملكية، شيري ماريانو وأختها جويل، ميشيل شريكة ناتالي وأنا. أشاء قائم على البرنامج الدقة في الصالة.

وصلنا أوبرا إلى خشية المسرح، ملكية ومهية في ثوبها الأصفر نزلت الموضوع وألقت أسئلة على الجمهور. ثم

سألت إليها ملكية بعبور شديد وسط احتفاء وترحاب. في أوبرا فزاعها مستقبلة إياها: «ملكة أنت بطلتي»
-Malika, you're my hero-

وتم الأمر. بكى الجميع، بين الجمهور وعلى النصبة. وحتى من الخمسة، ذرفنا الدموع. استغل أحد الحاضرين بث فيلم هي ملكية فوزع محارم ورقية على الحضور ورحب بهم.

بعد البرنامج الذي كان انتصاراً كبيراً، غادرنا على وجه السرعة. التقطت أوبرا معنا، ومن ثم مع ملكية، الصور لسعيدة التذكارية. صفقت تصفيقاً سريعاً وانتقلت إلى الحالة الأخرى.

لدى خروجنا تحولنا من جديد مشياً على الأقدام في «مغنيسات مبل» الجادة الرئيسية في شيكاغو. بحثنا ونحن لا نزال تحت تأثير البرنامج، عن مطعم.

قلت:

- ملكية، أجيبي بصراحة. ماذا تشعرين بعد أن كنت الضيفة الرئيسية للبرنامج الأكثر شهرة في العالم؟

توقفت. أطرقت في التفكير. نظرت إلي.

- أنا سعيدة. ومريحة للغاية. أنا لا أبالي بالنجاح والمال، أنت تعلمين ذلك. ما يهمي هو أنني حققت أمنية راودتني في السجن. في بعض الأيام، حينما كان السجن قاسياً للغاية، كنت، لأعين نفسي على الصمود، أرقد مراراً وتكراراً، الحملة التالية: ذات يوم، سيرف العالم أجمع حكايتي اليوم،

بفضل أوبرا، يعلم اثنان وعشرون مليون مشاهد غير له جري لنا. لقد تحققت أغلى أمنية.

تبين لي بأنه يمكنني بسهولة أن أكتب كتاباً كاملاً كيكاً مرة أخرى، سأنتج حياً وأترك لها الكلام. كنا شغل على السجينة كنت أدري بأن تلك الفكرة تراود ذهني.

كان لدى صغري هيرناندا، العائدة من بلاد الكثر والكثير من المواضيع المثيرة للاستغراب أو الغضب، وهي تراقب عالم الأحياء، لما كان يجتمع قد ان خلال عشرين عاماً كان كل شيء يصدمها ويؤذيها ويؤذيها حساسة للغاية غالباً ما كانت تستح من بصعوبة حياتها اليومية.

ثم أتت إلا أن تروي تجربتها في النجاة التي تشاطرها الكثير من السجاء الذين قضوا فترات طويلة في السجون أمثال نيلسون مانديلا، والتاجين من سجن تزامم للأشغال الشاقة والكثيرين سواهم. والقائمة تطول كيف للمرأة أن يتعلم من جديد أن يعيش بعد المعنى النجاة، النوم، الحلم، التغذية، الحب، المشي ما يبدو عادياً وما بدا لها، أن أطلق سراحها، أنه لا يقاوم تقدم جديد شهادتها. بالنسبائها وبفكاهتها المحفوظة.

كيكا الحاضرة بيننا أنا سعيدة بأن تجدي، أخيراً، هناك أيامي، بين أيريك ونوال وأدم الذي سينضم إليكم قريباً.

الأم. بيت الصغير ركنك الصقي من الفردوس

عالم ما أفكر بك وإن كنا لنتقي قليلاً. رغم مزاحمتهم الأبطال (ما كنت أبداً متصعة) أعرف، في معي، برؤيتك ألف مرة أثناء العمل. أنك من حيرة لأشخاص متعددة لعمور الأطلسي لتأني في عرفة مسننى، على الأرض وعلى فراش ردي، لأن صديقة مريضة حالة خطيرة تحتاجك لم يكن لفاؤنا عبثاً. ما بعد الكتاب، هناك ترجمات وبحاج عالمي وإمكابة أن تعيدي بقاء ذلك بعد إدلاء هذه الشهادة لعالم، كما أن هناك ما أرتبه في الإعجاب بشجاعتك وصبرك. وإزدادك. وفوق كل شيء ذلك الشعب بالحرية الذي جعلكم، أنت وعائلتك، في حالة تأهب قصوى، تستردون مصر كم يديكم وتحفرون نقفاً تحت زفرائكم. هذا درس جميل في الأمل.

لم أتصور قط أن يكون الأمل مخلصاً. لا يصبح المرء بالضرورة صالحاً لأنه قاسى عناء مرعبة.

ولكنك يا عزيزي كيك، كنت من طيبة أخرى. وبقيت كذلك. روح جميلة سامية. امرأة حقيقية

ميشيل فيتوسي

باريس، كانون الثاني 2006

En3aM

www.gwilly.com

الرجل الأول في حياتي

«دم صغري آدم، حبيبي، حياتي. لقد احتجت إلى كل شيء السير وكل هذه الأغنياء حتى أولد أب نفسي وأسلم لي. لقد ولدت امرأة في حين أن امرأة في عمري، تكفأ ما، عن أن تكون كذلك. يمكن لامرأة طبيعية، إن كانت عمر عن منح الحياة، أن تنقذ على الأقل حياة. إذ كان آدم لك أن يموت. ما كان أحد يعلم بذلك. إنه طفل المعجزة.»

En3aM
www.rgwlty.com

في الطابق الأول من مبنى وابطة حماية الطفولة الذي كان النساء الساطع لمراكش يغمره، أخذت الرائحة المشربة بالحليب والسكر والأسرة والأدوية بتلابيب كلنا متساوون هنا. امرأة شابة محجبة، باسمه، تلعب على مقربة من امرأة إسبانية تنتظر مد أسايح الطفل الذي وعدت به جئت أتيت طفلة. أنا محطوطة: فهناك واحدة. طفلة رائعة شك شعرها، إنها الفتاة الوحيدة بين ما يقارب الثلاثين من الرضع الذكور الذين يكون أو ينتون أو ينامون بدواعة. إنها هادئة. لاشك أنها كانت تأمل قدومي. أخذنا بين ذراعي. لم أفهم. لم أشعر بأي شيء. لم هذا الغياب للمشاعر؟ أليس ذلك جائز على نحو مرعب؟ شعرت أن هذه الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين لن تكون تطلق. تفحصت الرضع من حلال الزجاج الوافي لمهودهم. كنت متوترة، على عتبة اللحظة الأهم في حياتي. مدت أمني، فاطمة أوفقي، التي كانت تراقبني، كرة من شعر داكن وجلد متصن. قالت لي بكل بساطة. «هذا هو؛ إنه أبك.» كيف استطاعت أن تعرفه بيقين كهذا؟ «لا أدري يا أمني، هذا صبي

نعم، انه ابلق»، قالت متشينة برأيها. أخذت بين ذراعي ذلك الكائن الصغير البالغ أسبوعين من عمره، والذي بالكاد يزن ثلاثة كيلو غرامات، وضعت في أعماقي مفرح ممزوج بالخوف وخوف. شعرت في لحظة بمزق وباعاء الأمومة.

آدم هبة من السماء، لأن السماء أنقذته. كمعظم الأطفال الذين يتوقعون في هذا الميتم، لا ريب في أنه ترك في مستشفى مراكش من قبل أمه الأكثر فقراً من أن تستطيع إطعامه. سأعلم فيما بعد أنه في حزيران 2005، وفي أنون حرارة الصيف، كانت متسولة مسنة تحمله تحت إبطها، محمداً كصيرة قماش متسع. يوشك على الاختناق. للأسف لاحقت الشرطة، الحيرة للأسف في هذا المط من التهرب، تلك التعسة، وأنقذت الطفل، الذي غلقت صورته لاحقاً في إعلان في كل محافر مراكش لمنع الأم فرصة العودة عن قرارها. ولكنها لم تفعل. في تموز 2005، قرراً، ايريك وأنا، تنسى ذلك السدي ساستيه آدم بعد الكثير من الإجراءات الإدارية. لكون النسي غير جانر في الشريعة الإسلامية*، حمل اسمي. اسم أبي. أوقفني إنها طريقي في ألا أسى من أين أتيت احتجبت إلى هذا الطفل - المشاع. منحت هذه الكنية غير المألوفة، لأربع كل ألمي، لأنسى القتل الذي سرقوا عشرين عاماً من حياتي. بإسنادهم إلي إلى الأبد دور الضحية. وبحورهم لي من قدر كل امرأة. الحق في الإعجاب. كنت أحس بعسي ضعيفة منهارة

* النسي كـ بعض عليه القانون الرسمي محظور بالمدن، بيد الوالد أو الوالد في تبنى طفل من الكفالة أو التبني هو وصاية أو تبني من سلطة قضائية تتوقف عند بوج بعض لس الرشد

م. أن جزءاً مني متهور. كنت قد تألمت كثيراً لعجز عني. من قبل لابريك، إلى درجة أن كنا نصل أحباب إلى حافة السقوط. لم أعد أريد أن أكون ضحية، ولا أن تكون لي رسالة تمنحها للعالم. أريد أن أعيش، لا أن أموت.

ليس هذا يسر. كنت منذ بعض الوقت ولي أمر لنوال به اختي، التي أحبتها كما لو أنها ابنتي وهي تعيش معنا في سامي. ولكن لنوال والداها. كانت نقطة التحول مباغتة وغير موقعة. كنت قد التقيت سندس أثناء حملة إنسانية لمنظمة مسادلة بلا حدود بينما كنا نعر زمال الجنوب الغربي. كانت بكافح حينها التواخوما، وهو مرض يصيب العين. وقد اضطرت صديقتي الوفاة جلد سندس، وعلى نحو غريب، أن خصص في شباط 2005 لعملية جراحية في مستشفى ياريسي. كان الموت قاب قوسين أو أدنى من الحياة. كنت أنا إلى جانبها كل مساء، وكانت تعذني عن التبي. إنها هي من أفعني مهدوء أن من الممكن مواجهة الأمر. كان حب ايريك، وسخاءه وجنده، يدفعني أيضاً نحو ذلك الطفل الذي لم أكن أعرفه بعد. انتظرت عشرة أعوام كي أتخذ القرار بأن أكون أمّاً. لأقر بأنه هناك أيضاً حيرة يمكن معانقتها. يمكن أن أحس بقدر يحضني كلمة ذات مذاق غريب على شفائي الحورية. حورية مرة، طبعاً. من قصر محمد الخامس الذي كنت فيه أميرة لا نمن إلى السجن الكريه الذي كنت فيه شهرد بين أهلي، ومضى لم أكن سجيّة؟

العقبات والحواجز في كل مكان، الحقيقية والحفنة،

وخاصة في رؤوسنا. ولكن ليس هناك أسوأ من أن تكون
مسجينة. تفكر على نحو أفضل. نتعلم من الزمن الذي يمر
بدأت حياتي الثالثة، بعد السجن في المغرب، والتدريب الأليم
على الحرية في فرنسا. أدركت بأنه لم يكن هناك سوى الحب
الحب الذي منح، الحب الذي تلقى. أدركت هذا الأمر
السيط حداً كان الوقت يحين لذلك.

En3aM
www.rzwitw.com

الحرية الموء

دقائق معدودة، وسوف يعبر الشبح الثقيل لطائرة 747
العموم، فاعثاً أمامي سماء الحرية هائلاً في جهة ما، على
هذه هشرة آلاف متراً تحت قدمي، ينتظروني رجل حياتي
والذي وأصدقني وحياة جديدة تكاد تكون بكرة، وكان ذلك
السموات الأربع والعشرين من السجن المعزل لم تكن إلا
قاعة سماء رقاء، زرقاء تكاد تكون خيالية، وشعرت
بشيء كائن في عالم آخر.

ابتعدت السواحل المغربية وتوارت، ولاحت إسبانيا. كم
من السنوات كنت سأحتاج لأصل إلى هنا، في هذه الطائرة
المصممة بهديرها، وسط وجوه غريبة...

بدأ كل شيء في عام 1958، حينما استقبلت الفتاة
الصغيرة التي كنتها في القصر بناءً على طلب الملك محمد
الحامس (1911-1961)، خليفة البهي، وسليل العلويين،
لأرثي فيه كأميرة إلى جانب ابنته للأمة، الابنة الأثيرة المدللة
للملك وللأمة. كان اسمي يعني في اللغة العربية «الملكة
الصغيرة». كنت إلى ذلك الحين «الملكة الصغيرة» محمد
أوفقي، والذي. وأصبح على نحو غريب الأميرة بالتبني،
الجزلية، السهية والحرية في آن، لبلاط من القرون الوسطى
كانت المخططات فيه يتجسّن على بعضهن، والحرّم تنفلق على
العيون الكنية للمفضلات، وكان الخدم فيه يصلحون سلوكك
مباشرة بسوط. أنا مديّة لشخصيّة القوية في مقاومة التعليم

الأكثر من صادم جان ريفل. المربية الإلاراسية، المرسلة إلى الملك من قبل كونت باريس. هذه العانس بعينها الواسعتين ذات الزرقاء الفاقمة وكرهها للرجال، والتي لم تكن نجبة لا تساور الطعام ولا التسلية، سوف تعودنا على تناول خبر الباغيت إلا أنني لن أنسى الصلحكات المشتركة والزهرات بعرة الخيل. والقصور ذات الصروح الدوارة العملاقة وحلبات التسرُّج في ايعوان المحصنة لنا وحدنا. متأرجحة بين الشرق والغرب، أتكلّم الفرنسية في بيت أهلي والعربية في القصر، راعيت عبارات هجة البلاط. أينما أحلّ في المغرب، أسأل باستمرار ان انتسبت إلى

«Dar-el-Mahzan»، أي دار السلطة. ولكني لست أميرة، وبقية حياتي، التي قضيتها في السجن، سوف تؤكد ذلك كنت. ولا رلت، حروبا، على كل شكل للسلطة. تحت طيش طفولة بادحة، كان عمود يقبع في أعماق أعماقي. لم أكن أريد أن أكون نكرة. مسبقا! مد كانوا يتبنونك في البلاط، كانوا يقطعونك عن ماضيك وعن جذورك، كانوا يفعلون كل ما من شأنه إقاعك بأنه لم تعد تملك عائلة كانت السراي تعج بساء لا هوية لها. بنساء مجهولات كن يجتمن حياضن حريسات في عرلة ترتسم نعضاً على وجوههن، بعد أن كن قد تجذّن مدع الملك طبعاً، كنت أحبّ الحبس الثاني، أبي باليتني، الصارم، الساخر، قبل أن يصبح الحلال الشرس لأهلي. كنت أريد الخروج من القفص، كنت حبيسة، ولكنني كنت أعلم أنّ لي عائلة وأريد الالتقاء بها

حيما أروي هذه الحكاية الحارقة، أشعر بأنّ الناس يرمونني بمساءلون: أخذ طفلة في الخامسة من والديها؟ هذا فاسياً، ولكن كان من المستحيل لوالدي أن يرفضنا، يصدر عن ملك يقتل الناس يده وأكعين. حينها، كان متزوجاً منذ 29 حزيران 1952 من الحسنة فاطمة العمة من العمر 15 عاماً، ولم يكن قد أصبح بعد الرجل في النظام. كان الفارق في السن بين والدي عشرين سنة. محمد أوفيق في 29 أيلول 1920 في عين شعور، في إقليم مكنة، منطقة بقود الربور في الأطلس الأعلى المغربي. كان صغيراً يعني «المفقر». في السابعة من عمره، فقد والده، محمد أوفيق، زعيم القرية، وقد لقب بـ باشا بونديب من قبل محمد ليوني سرعان ما حل الجيش محلّ عائلته في حياته. كان مائتاً، ولا جدال في ذلك في الحادي والعشرين من عمره، تطوّر كملازم احتياط في الجيش الفرنسي، جُرح في عداليا، ونال رتبة نقيب في الهند الصينية، ثم عُيّن سريعا رئيس «الفي محمد الخامس». مع تولّي الحسن الثاني للسلطة، السدي «ج 3 آذار 1961، حاز على ثقة الملك الجديد. إبان الأزمة العنصرية لاختطاف وزعيم المعارضة السياسية المهدي بن بركة في سان - جيرمان، في عام 1965، اتهم بالتواطؤ وحُكم عليه غيابياً بالسجن المؤبد من قبل فرنسا. كان حينها جنرالاً، وزيراً لداخلية.

كان يقال عنه بأنه كليّ السلطة. ولقد كان كذلك بالفعل اتحم النظام بالفساد والاستبداد ومظهر بدمج ملك

يدعمه الغرب دعماً مطلقاً. بعد انقلاب الصخيرات، غيّر الخوف معسكر والدي. ذات يوم من تموز 1971، اقتحم فوجان من المدرسة العسكرية للملازمين قصر الصخيرات أثناء الاحتفال بعيد ميلاد الملك. قتلوا المئات من المدعوين، ونجى الملك بالاحتباء في المغاسل. دافع والدي، الموالي للحيش المتمرد ولكنه المنعزل عنه، عن براءة 1081 تلميذاً من الصباط وتمّ له ذلك. وطلّ متأثراً بقسوة القمع والعقاب. تغرّأني واكتساب حلم بحياة جديدة، أكثر بساطة وتجرداً.

مع ذلك، لم يسبق أن ركّر هكذا سلطات بين يديه سني وزيراً للدفاع، قائداً لأركان القوات الجوية الملكية. كان يتوقّر على كل شيء. امرأة فاتنة، ستة أطفال، منصب في قمة الدولة هبة جنديّ بوجه مسوّب كصل. وسيفقد كل شيء، حياته أولاً. أتذكر صديقة، ابنة جنرال قبل لاشترائه في انقلاب الصخيرات، غيّرت لقبها، إمّا دُعراً أو جراء خوف مفهوم من أن تعاني من مصائب النظام. صدمني ذلك القرار. كنت أقول في نفسي: مهما حصل في حياتي، سأبقى على اسمي أوفقي: في المغرب، كما في غيرها من البلدان، كان اسمي مفتاحاً سحريراً، خليطاً من احترام وخشية وحياة خارجة عن المألوف.

إن هذا اللقب نفسه هو الذي كلّفني الجحيم. كنت في باريس، أحضر البكالوريا على هوائي، باخروج في كل ليلة، وكنت سأبقى طائشة وقحة جداً لولا حادث السيارة الذي كاد أن يكلفني إحدى عيني. بقيت أجهل آثار الجروح، وكثيراً ما قُتِح وجهي، في السجن، وعانى التشتتات. كان عليّ أن

المغرب وأن أتعلّق ولكن الأحداث قضت بخلاف ذلك. على شاطئ البحر، في قبيلة، كان والدي، العبد الذي أمّ وقت مضى عن الخطّ السياسي للملك، يبدو كأنه قد تهرّب، كنيئاً، متطعناً إلى الأفق. ثم فجأة راقصاً، مغنياً، أماماً الزلّج على المياه، تحيط بجذعه عواصف ضخمة من صراخ دات صباح، صمتي أبي، الذي لم يكن معروفاً في تلك الحركات العاطفية، بجو بين ذراعيه. نظر أبي بحدة. هل

أين يعلم بما كان ينتظره؟

السادس عشر من آب 1972 كنت في صالون بيتي في الدار البيضاء، أدركت جهاز التلفاز، سمعت صحافياً يذيع أن انقلاباً قد وقع، وأن الطائرة الملكية قُصفت فوق تطوان، ولم يعرف بعد من هو مدير المجرم. انهرت قلقاً. في الليل، اتصلت بجدي وطلب مني العودة إلى الرباط ثم اتصلت في أتي في العاصمة صباحاً، وأخبرتني بصراحة قاسية:

- مات أبوك. حدي حوانجك وعودي إلى الرباط.

لم أفهم لم أصدق ذلك، بل رفضت الحقيقة حتى اللحظة الزمنية التي رأيت فيها جسد أبي، ممسّط الشعر، مفصولاً، تعلو شفته انسامة مزدوجة كأنها تتحدّى الموت. وكأنني في كابوس، رأيت آثار الطلقات الخمس في الجسد. واحدة في كبسه، واحدة في رفته، واحدة في بطنه، واحدة في ظهره، والأخيرة التي قضت عليه، في رقبته. يقول القرار الرسمي: انتحار. ماذا توسع المرء أن يفعل كي يتحرر بخمس طلقات؟ ولا ينمّ ما تلا ذلك عن شجاعة مفروطة.

كان يوم الاثنين ١٠ من جردان كانت تسير على أطرافها،
وسمى القوم والجراد بصحيحها الجهتي.

لم يكن يسمي بمحاولات الابتجار مداعبات السكرين
كنا للمعم الطارح لهم؟ إزعاجات ومداعبات الجنود
مما بقدر ما هو، وعجرفة النظر الصغار؟ كيف قاومنا؟
بما لأننا كنا هالدا، ربما لأننا كنا نحفظ حتى وسط الرعب
من الكرامة، لأننا كنا قد أبقينا على الأمل
أننا منجاة بالهبة بالحياة.

بقيت يوماً طويلاً في سجن وهمي، مفقود، مكتئب، مُذْعِر.
لا يمر الدقائق بالسهلة في الطريقة نفسها التي تمر بها بالنسبة
للأحرار أنها بمرور موعدة، غامضة لقد احتفظت من
المرمى منظره، ومعنى اليوم من أن أكون دقيقة في
مواعيدي. لقد مضت خمسة عشر عاماً عن الحداثة. لولا
الراديو، الذي قد يحبه أحد أي فتيش، ما كنا نعرف أي
شيء عن أحوال العالم، سيما حفرنا نفقاً بإيدينا المجردة، وحيما
اكتشفت الشمس والسيارات والشجر والجمال الأخاد لليدي.
حيها راديو من لحظة الطاعة التي كانت قد سرفت منا
تلك الثروة العظيمة للغاية، شياها كنا مخلوقات من خارج
الأرض، مرفوعة من المريح منهي إلى كوكب الأرض. يفسر
ذلك لي الكثير من الأمور. لقد بقيت لثمن طويل غريبة.

بعد مرور ما الذي أعلن عنه في وسائل الإعلام، الذي
كُلف جلاساته، يعرفون بدورهم مع التعذيب، كنا قد
أصبحنا منكم فمك فمك غير الممكن التخلص من، كما من

كان أبي، الولي بين الأولياء، قد خان، وتزعّم المؤامرة.
والآن سيصحب غضب الملك علينا. منذ متى وجريمة النسب
لوجوده؟ منذ متى على الأبناء أن يعاقبوا بدلاً عن أبيهم
وجاء لهم إلى الدنيا؟ لم يكن يسعي أن أسامح أبي بالتبني.
الحسن الثاني، على قتله والذي تم كرهته بسبب الطفولة
لمسورة لأخوتي وأخواتي. كرهته لأننا كنا أطفالاً أبرياء. لقد
وجدت نفسي مرمية في السجن دون أن أصدق، كمحرومة مع
أخي وأخواتي سكرية ومرمى ومرمى، وأخوتي رؤوف وعبد
الطيف، اللذان كان لأصغرهما ثلاثة أعوام، وامرأتين، عاشورا
شاه، أمة عم أبي التي تكبرها بعام، وهي كانت مربية،
رحيمة عبودي، مربية عبد الطيف، التي كانت بعمرى.
لصحبتان المسكيتان الراضيتان اللتان سيكتلهما القدر الساخر
لهذه المأساة دون أن يكون لها فيها أي ذنب.

- أنسقي، أتوغيين بمشروب؟

المضيقة التي انحنت نحوي وعرضت عليّ مرطباً، مبتسمة،
لا تدري من أي حليم أنا عائلة. ماذا عساه أن تتحلى أن
أنتي ملما كنت هناك حيث عشت، إذ كان شرب عصير
البرتقال في كأس من البلاستيك يبدو لي ذروة الرفاهية.

رويت في السجينة ظروفنا أثناء الاعتقال. كان يُعتقد بأننا
كنا مدللين. في مقر إقامة مرافق على الأكثر، ولكنني تخيل
رؤوس أصدقائنا - كل أولاء المتعلمين الذين كانوا يتجمعون
أى مائدة والذي - إن علموا بأن البراعم كانت تهش
سيفاننا حتى الدم، وأن الفترات كانت تنهب القليل من الطعام

غير الممكن إعادة حريتنا إليها أمام عدسات الصحفيين. أعطيت لنا قبلاً مسورةً بجدران عالية في طوبيا، على بُعد بضعة كيلومترات من مراكنش، المكان المفضل لدى الطليقة الرجواريسية في الدار البيضاء. لم تكن نخرج منها، ونحن نتلقى ليلًا في بعض الأحيان، وقد استيقظنا مدعورين من أشباح الماضي، أو مرهقين بسُعارٍ مفاجئ. لا نزال نأمل، بفضل محامينا الفرنسيين، بنيل سمة خروج إلى كندا، البلد الذي كانت ندأوة مناحه المزعومة قد احتلست أرقنا وسهادنا في السجن الذي كنا نتعفن فيه الآن بداناً نحلم! كنا مكبوتين، عاطفياً وجنسياً. لقد جُهد السجى رعباتنا، وأطلقت الحرية، وإن كانت مؤقتة، كسل عرائنا الجنسية واندفاعاتنا. أحلنا حاجتنا إلى الحب على القبط العشرة والكليبين الذين رتباهم. فجأةً، ودون أن ينلر أي شيء بذلك، قيل لنا: أنتم طلقاء! اخرجوا من البيت!

هل من الضروري أن يكون هذا جيلاً للغاية حتى يكون صحيحاً؟

في 26 شباط 1991، وأنا أردني سطلون جيت وقيصاً رجاليا، خطوت أولى خطواتي في الدنيا. واحسناته! سنكون، لخمس سنوات، مراقبين، ملاحظين، ويتنصت علينا. حُذِر علي أرباب العمل المحتملين من إعطائنا فرصة للعمل. استجوب كل معارفنا وأحبنا وحتى عشاقنا من قبل جهاز المخابرات المغربي أهذه هي الحرية؟ كلا: أوصل العيش في السجن، ولكنه بساطة سجن أوسع، وعلي أن أتدبر أمري بمفردي. لم أعبد أعرف أن أفعل أي شيء. لا بد لي من أن أتعلم كل شيء من

غير بشقٍ علي أن أفهم وقت البشر، سرعتهم أو بطئهم، ورائهم المتعلقة بالوقت. يشق علي فلن رموز العادات، لياط بالعيش من جديد. السعادة كلمة مقصية عن ذاتي. لم أعد أعرف أن أكون الحسنة الطافية التي كانت قبل بعيد ميلادها الثامن عشر في حفلة واقعة باهرة. ملكة، هل؟ إنها امرأة أخرى.

كنتُ بلا مسكن، بلا ترخيص للعمل. كنتُ شبحاً حتى وإن استطعت، لفرط العناد، وأيضاً بفضل شجاعة نور الدين عرش، أن أحظى بوظيفة في مجال الإعلان. فقد عشت أسير إلى حاسب الجدران مخافة اليوم أيضاً، أنا شبح، بيد أن الكرة التي أجزها بقدمي غير مرئية.

بعد ساعتين، سألتني من جديد، هاربا أخني، التي سيمحي فرارها، في 25 حزيران 1996 من المغرب إلى إسبانيا عني متن سفينة عابرة. فرصة أن تعود إلى الحياة إنها هي من استقرت الرأي العام الفرنسي، هي التي أتاحت لي أن أجد نفسي هنا، قريبة جداً من العالم الحر. جواز السفر السني في متاولي، هي من أدين لها به. عمري 43 عاماً وأخيراً بدأ كل شيء.

En3aM

www.rwily.com

بدا لي الطيران من الرباط إلى باويس زمناً طويلاً جداً، ومع ذلك لست أنا من يطير، بل هذه الآلة الصخمة التي ترتج تحت رحمة الرياح. من حولي، هناك العشرات من لوجوه المشهولة، العدوانية، رجال ونساء محزّنين في أرائهم. مصفات في لباسهن الموحّد، على شفاههن ابتسامة جامدة الصوت

الرتان للكاتب الذي ما كان أحد ليرى وجهه وحيدة. تانيه
على مقعدي كاني في حة الخيط، ارتدت لفكرة أن يحدّق في
هؤلاء الناس، ويسيروا أعماقي، ويدوا رأيهم في أنا غريبه
على السفينة، في عالمهم كيشر أحرار، عالم محرته مد أمد
طويل لأبح في خداعهم. ضاق صدري بشعور بالاضطهاد
رغما عني. لظرة واحدة، مادت عبر النافذة سماء شاسعة بلا
حدود.

انفتح الباب أخيراً على الحرية. نفق ضيق من البلاستيك
يربط الطائرة عيني المطار. في ذلك الممر المتداخل، تعرّفت إلى
وجه أختي، غاصّة بين الكاميرات والمصوّرين والميكروفونات
الممدودة طقطقت ومصات العدسات والأسئلة الطائشة بهم
الإيقاع. بماذا تشعرين؟ ما أثر أن تشعري بتفكك حرة؟ ألدبك
مشاريع تفكرين بها؟ بما سيحمل عدك؟ هل لديك ما تقوله؟

لدي الكثير من الأشياء ثقّال، ولكنني، منذ زمن طويل، لم
أعد أجيد الكلام إلى الآخرين.

عشتُ حيوات عديدة، حياة فتاة ميسورة الحال، وحياة
أميرة، وحياة سحابة يستحيل تلخيصها في بضعة كلمات!
فصلاً عن أن حيواني قلماً أثارت اهتمام الرهط المتلخّف السذي
انقضّ عليّ انظروا مأساة، ودموعاً، وشقاءً في تلك اللحظة.
لم يكن لدي لأعطيهم سوى مشهد الصبي الذي أشعر به لا
كلمة، ولا نظرة. لست أكثر مما أنا عليه.

لم أزل شيئاً، تقدمتْ بطريقة ميكانيكية. فحاة، تحطّي رجل

و. حاجر، رفعي وذهب لي
روني الأولى لادريس، امتلكتها بين ذراعي ايريك.

ايريك الشرقى

من أنا؟ هل أنا تلك التي نُقِلْتُ كصورة على متن تلك السيارة؟ هل أنا تلك التي أُطلقها للتو ملكٌ مسجّد، مثل أمة في العصور الحديثة؟ نحن في 13 محور 1996 لا بد لي من أن استمتع بالمرور في باريس هذه، التي استمتعت فيها كثيراً أثناء دراستي لباكالوريا. لا بد للحياة أن تستردّ حقوقها. لم يحدث أي شيء. كنتُ خاوية، بلهاء، مقفّرة. لفرط ما مُزّق قلبي لم يعد يشهر بأي شيء. إنه حاجة لصدمة كهربائية. أحياناً، في تلك المحطات الأكثر قتامة من أي وقت مضى، كنتُ أشكّ حتى في قدرتي على الحب من جديد منذ وصولنا، مع رؤوف وسكينة، اعزّزين أيضاً، توقّفنا عند خالتي فورية، شقيقة أمي: تدوّقنا لبن الترحيب، كما تقضي تقاليد الاستقبال المغربية. تعاقبا، وتنسما رائحة الحرية. ومع ذلك، كنتُ ساهية في ذاتي. عندهما وصلت إلى بيت ايريك، حينها أدركتُ أن المسجن في رأسي فقط. شعرتُ بأنني مسجّنة نفسي. دون الصبر اللامتناهي لايريك، وحده، ودعمه الدائم، لكنتُ قد افترتُ بالتأكيد. ايريك الشرقى.

التقيتُ ايريك بوردروي في ربيع سنة 1995. حينها، ولكوني محرومة من الحقوق المدنية وبدون جوار سفر، انكست باندفاع على العمل، وذلك أولاً بفضل نور الدين عيوش الذي أخذني على عاتقه لدى وكالة للاتصالات كنتُ مسؤولة الإنتاج فيها. ولأنني قلماً كنتُ أخرج، وحصراً لأسباب مهنية، فكان المنطق يقتضي أن أرفض دعوة صديقي مريم وكميل بن

En3aM

www.rgwlty.com

جلّون لحضور حفلة زفافهما، مع ذلك الموكب من النساء، التزيّيات بالخلّي، والمشرّجات يافراط الأمر الذي لم أكن أطيعه كان كلّ ذلك التكلف الاجتماعي يزعجني لو أنني رفضت الدعوى، لما كنتُ النقيض باريك أبداً. كانت مريم قد طلبت منّي أن أساعدها: ما كان بوسعي أن أقرب. في الصباح نفسه، بعد طقس الحَمَام، الذي تذهب إليه العروس صديقة صديقهما، تلقّيتُ مكالمَةً من إحدى قريباتي، وهي عرّافة متواضعة. قالت لي، متحمّسة:

En3aM
www.rzwily.com

- كيكا، لقد النقيض به، ذلك القادم عبر الأطلسي، رجل حياتك.

يا لها من ترّهات! لم أصدّق ذلك من جهة أخرى، ليس لي حرية في أن أحبّ من أشاء بما أنّ الأمن يستوجب بانتظام كلّ الذين يتقرّبون منّي. كان دوري مع الأجانب يقتصر على اصطحابهم إلى طائرناهم. كنتُ أشعر في كلّ مرّة بأنني حبيسة ثياب العوض، أنظر إلى العالم من أعوار عزلي.

حيما رأتُ إلى حامي، على المائدة، رجلاً أبيض البشرة، طويل القامة، بشوش الوجه، له عينا بلون كستنائيّ مبهّم، فيهما نظرة مأكرة، وحيما أدركتُ أنّه يستكلّم العربية، استسلمت. من أين

أتاني هذا الأمل الواهي؟ ماذا لو كان هذا هو؟ لم تأتي صقّة الحب. شعرتُ بالمزيد من الأمان والمشاركة العاطفيين، كدفع كان يشيع في هدوء كنتُ أخاف طبعاً، وساحتاج إلى

سواء كنتي يتلاشى هذا الخوف الخفيف إلى عمافي. طيلة عام، عندما كان مرافقاً يجري التحري عنه، وبلافاً، كان إلى جانيّ كل يوم جمعة، وحيما كان يعاد، كان شعورٌ مرعبٌ بالإهمال سهكتي وبضيق. كان له الجسد في أن يسايرني في أهواني ورويات هذيان، وأن يروض الفتاة البغية المتكررة في هيئة امرأة ماضجة في الأربعين من عمرها، الغائفة الكومة التي كانت تحرم نفسها من اللذة بالإثم كان يهمني من الداخل.

ذات يوم، قلّتْ لهُ: «ليس لك من الرجل الأوروبي سوى المظهر الخارجي. لك قلب الرجل الشرقي. أنت رجل شرقي.»

لقد ورث إيريك التسامح من عائلة بروتستانتية عريقة متجذّرة في "ميم واريج". والده شحمان غير عاذيين والده، بير بوردروي، عالم آثار، باحث في مركز "يوم لسووت، لقّبه بالجيولوجي الذي يعثر على كلّ شيء، إنه رجلٌ مسكونٌ بعاطفته، أحياناً إلى حدٍّ غير واقعي. مع أنّ يوريك قد وُلد في ستراسبورغ، فإنّه كان في الثالثة من عمره حينما وصلت عائلته إلى القدس الشرقية في زيارة دراسية، ثمّ كُر في لبنان حيث كانت حماي فرانساوز هديرة لثابرة بورت البروتستانتية. يا لها من امرأة! جعلت منها شجاعاً واستغفرت المعنوية امرأة تتحمّل مسؤولية دور متميّز أثناء الحرب في لبنان، وتواجه مختلف الأطراف المقاتلة، مسيحية وإسلامية. بل وفتحت مدرستها أمام الفلسطينيين ووجد شقيق عرفت ملاداً فيها حينما جاءت إلى مراكز لثاقلاً عاطفةً بها، عرضتُ كلّ

مفاني لأعربها كنتُ على فارق إحدى عشرة سنة فقط منها! إنها تعرف حكايتي. وتدري أن الأمر لي يكون مهلاً أبداً تروّحنا في 10 تشرين الأول 1998 أمام بعض الأصدقاء المقربين، في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة، في باريس شعرتُ بالانقاص بعض الشيء: زواجٌ على عجل، شاهدان، والحيلة كانت قد وقعت. ولكن هل كنتُ قادرة على شيءٍ آخر سوى الارتجال؟ كنتُ قد أنجزتُ ما هو جوهري: دفع إيريك إلى أن يطلبني للزواج!

مراراً عديدة، اختبرتُ إيريك، محرّصةً إياه على هجراني، أنا الآتمة بعدم منحہ طقلاً، وبعدم كوني من تلك الزوجات المثاليات اللواتي يحسن السل. قاربْتُ حينها اللُجج. كان باستطاعتي التمتّد طيلة ساعات، ساهية، غير قادرة حتى على مشاهدة التلفاز أثناء رحلتنا الأولى. في تموز 1996، إلى ساحل العاج، نزّلنا في فندق إيفوار، لزيارة أحد أعرّ أصدقاء إيريك، الذي كان مهندساً معمارياً مثله. لقد كان المكان كالهردوس، على الأقل من حيث المظهر. وقفْتُ في الشرفة. كنتُ عاجزة عن الكلام وعن توزيع الفعاليات. كنتُ أرى العشب الناعم، الغزير، فجأة، توجهتُ إلى الله، سأله: ما جدوى هذه الحرية؟ ما جدوى إحراجي من رزاة، طالما لم يعد في رغبة في العيش؟ سيعينني إيريك على إعادة للممة نجوم الحياة، تلمّساً، ويشجعي على الخروج من الخفاء، من هذه العتمة التي طالما كرهتها لم أكن «شخصاً». سيحتني علي أن أتكلّم إلى العالم، وأروي الرعب الذي عاشته عائلة لعشرين عاماً. كانت لدي رسالة ستكون مغامرة السجينة.

ولكن لابد من العودة إلى الواقع العادي. الخروج، تناول الطعام، النوم، ووضع قدمٍ أمام الأخرى.

«البيسي، يا كيكا، سنخرج لتعشّي.» «إيريك ذوّاقَة وشهيتَه مفتوحة، هل نسيت أن أذكر ذلك؟ للأسف لم أعد أعرف متعة الطعام ولذته.

في "الكوبول"، المطعم الشهير في مونبارناس، حيث كنتُ قد تناولتُ العشاء آخر مرة في عام 1972. كان إيريك يعلم، بتدبيره هذا العشاء الأول كعاشق، أنه يحقق أحد أحلامي في هذه السوات الأخيرة.

En3aM

www.rzwity.com

أكان قد توقع صمّي المطبق، ذلك الفراغ العميق جداً الذي يجمّد عظامي بصقيعه ويتعني من التفوّه بكلمة؟ أشك في ذلك. ولكسا جلسنا إلى المائدة هاك، وبذلت أعظم الجهود كي أخرج من وهي. ولكن عبثاً. طاقم الخدمة في المطعم يستترافهم البصاء، طنين الأحاديث، الألوان الحامية، الأنوار، الأطباق المثاللة... لقد أضعتي الحرية ونهشتي من الداخل. لقد فأت الأوان علي كلّ شيء. أو ربما تحطّمتُ إلى الأبد. حال كوبول كحال كلّ الأشياء التي تحيطها بمالة لزمن طويل جداً حتى تفقد بذلك هويتها الخاصة. كان المكان يخصّني في الحلم، كنتُ قد تناولتُ العشاء فيه أكثر من مرة، أرسم عن ظهر قلب تقاطيع لم أعد استرجعها في ذاكرتي ذلك المساء.

في ختام العشاء، حل الحرف مكان التعب. نحتُ أحد

مديري الخدم يحول على الطاولات ويتحقق بدقة من كل فانورة. في يده جهاز صغير غريب. انتابني أفكار سوداء، صوز اعتقال. بيدي المرتجفة، أمسكت بيد إيريك.

- اتيه، أعقد أنهم يبحثون عن أحدهما، ربما عن مزور انظر أنهم يقدون في جميع المواضع.

قليل أن يتمكن من إجابتي، توجه المدير عوننا، وعلبته الصغيرة في يده. بادري إيريك بانتسامة مطمئنة، وعدت إليه بطلاقة. وضعها الرجل في آتله للحظوظ من الصمت، كنت معلقة

إلى حكمه أحرأ، حرجت تذكرة من الجهار مصحوبة بصريير خفيف، بينما أعاد إيريك بطلاقة إلى جيبه.

En3aM

www.rzwily.com

- شكراً، يا سيد

نظرت، غير مصدقة، مدير الخدم يفادار، ممسكاً بعلبته العجيبة إذا كانت قطعة صغيرة من البلاستيك تدس في علبة يتكسها شراء طيق من ثمار البحر، فإن العالم الذي عرفته قد تلاشى تماماً

رجعت، وحيدة، إلى ذلك الحي، سان جيرمان دي بري، بحثاً عن هويقي المفقودة. بعيداً عن محق شخصيتي، كان الاعتقال قد حافظ عليها، ربما أعاد تشكيلها، ولكنني كنت موحودة أما الحرية فقد حرمتني من كياني كسجينة، جعلت مي واحدة من هذه الأشباح المجهولة التي قيم على وجهها في شوارع باريس بالآلاف، جعلني الخارج حاوية وبعثني، أشعر وكأني

خفة من الرمل في مهب الرياح. ولكن ذكرى سموت السبعيات، ذكرى الصبة التي كتبها، تراود ذاكرتي ذلك الشبح العابر الآخر، أمل أن أسعيده في الأمكنة التي كنت رادها آنذاك، أرضعة الحي اللاتيني، اغلات البادية في ساحة سان سيليس... تنقاني، سرت نحو حادة سان جيرمان، تأنهية في ذكريات لا أنجح في للمنها وترتيبها. ها أنا ذا في محل، أيف سان لوران ريف عوش، كما لو أنني لا زلت فتاة ذات مقام ريف، لا مبالية، مغمسة في الدح والرفاهية للعطلة، كان مستطاعني أن أعقد بأن كل تلك السموت لم تكن سوى غمرة محبتي، وأن الرمي توقف في هذا المحل. هناك حياة سابقة بتفصيل دقيق: لم أعد تلك الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعاً، لتصحرفه، الوثيقة من فنتها، ذات الشعر الطويل الممتوح، والتانير القصيرة بقياس تذكرة المترو، التي كانت تشبعر وهي تمز أدم المراما لقد مصت الألوان الوددية والزرقاء المبرورية بعيداً مع الموصة، ولكن بشكل خاص مع رغسي في الذوايا داخل المشهد البقي بالوانها، لون الأرض، اللون الداكن، الأحمر والزوايدي، تروي الكثير عن السموت التي انقضت بعيداً عن هذا المحل.

- سيدتي... هل يمكنني مساعدتك؟ لدينا هذا النموذج باللون الأسود أيضاً.

أعادي الاهتمام المتكلف للبانعة إلى الواقع. دُعرت فجأة، وضعت الألبسة التي كنت قد رعتها عن علاقتها، وتراجعت غمري شعور بالخجل. كادت. زعمت أنه لابد لي من استشارة زوجي قبل أن أشتري أي شيء.

لماض وغير الضروري ينسبط أمامي. على مدى البصر.
البردة . لوحدها تشغل برآءاً بأكملها. ذات الملح الخفيف
والمالحة، النور مالدية، 50% مراد دسمة، سهلة السخن،
خالط الطازج... هناك الكثير منها بحيث تهت بينها.
عشرات الأنواع، بأخلفة متزعة، من ورق الألنيوم البسيط إلى
العلب البلاستيكية، وكلها مزينة بالوان زاهية، ذهبية وفضية
وجراء. والخلب، المذكور بدوره في قائمة لا نهاية لها: الكامل
الدمسم، الخالي من اللّسم، والنصف دّسم، والمكثف،
والمستحق، في غلب، وفي فراير، والمجمد في قواب. لا أنجراً
على لمس أي شيء من هذه البضائع التي كانت محرمة في
الأمس، والتي فاضت فجأة، بعد أربع ساعات من الطيران من
سنواي الأربع والعشرين في الجحيم والمطهر.

— خذني ما تريد، قال إيريك.

ما أريد؟ ليس يوسي أن أريد شيئاً. يشئني فعل ما يدي
إلى هذه الكتوز. أخشى أن أشاهد، في أول لوح من الزبدة،
ظهور بحري الأمن حين لا يهتموني بالسرقه ويخرجوني إلى
السجن. كانت دمي السبت، من حولي، تتزود بلا حشمة
بالمنتجات التي يعرفون بلا مبالاة في عرباتهم حالما تقع عيونهم
عليها.

بعد أن زال النهار، استاحني شعور عميق بالتمرد،
وأخذ بتلابي ما، يفعلون بكل هذه المنتجات الكاسدة
المنتهية الصلاحية؟ لم أصنع أن هناك في باريس كلها ما يكفي
من الكروش لانتهاج نصف كمية هذه الألبان. ما الذي

لم أراجع أبداً إلى ذلك، فذكرت ذكري المراجعة
التي كنتها آنذاك. لو كان لي أن أضرب صفحاً عن
الماضي، أعقد بأنني سأكون كنت عر ذلك منذ زمن
ص حلول.

تمضي الأيام وأنا أراقب دمي لعالم الحر. من الاثنين
إلى الجمعة، جميعهم في الصبغ وموع. تفتح الأبواب
في يوم السبت، يوم التزهة، تقطع، منقصة على
المرحاض. لأنه لا بد من التزويج لإسما بأي شيء،
وعلى إفرار المراكز التجارية لتتبع احتياجات الأسبوع
المرحاض. بدأ إيريك يحملني الماء بارد آخرى، يسمح لي
بالآن أنصم إلى فيص الأهالي، لأن المراجع أنه يعرف
العالم، الذي يغفل ذلك. تأو، الناس على إحاسي
المرحاض. ولكن طريق المعافاة، زرع نخطاتي. انتهت
المرحاض أن أنبعه إليه. عاجلاً أم آجلاً، إليه متفرد، لظالم
رضي حد ذلك على مسامي. وكما سيجي لي الاقتناع بذلك.

سوف لن أنسى زيارتي للمركز التجاري، مغارة
عليه على بابا الاستهلاكية تلك، من البضائع والألوان
والله والصحب والموسيقى. كانت مغارة كل الجهات، كان
ذلك ذلك مغارة ومهراً في آن، وكما وأهرامات وأكوام.
نعم، معج الأدرج المبردة، ويكتسب لسابع بضائع طازجة
وغذاء وغذاء وأكياس صغيرة... الخ، ذلك كل شيء وبكميات
وفيرة.

طيلة حياة كاملة، خزان ضروري، وهذا هو

سبحت هذه الأكاداس من الزبدة ذات الملح الخفيف والتي لا يريها أحدٌ ربما لأن البقرة الحمراء التي تزين علاقتها أقل حادية من تلك التي إلى جانبها لم يُحس إيريك أن يجيبني سوى بالهول، ربما سترى البصاعة أو تُصفى، لا أهمية لذلك مادامت هي ها. من من الرائب، المتراحم من حول البراد. يعلم فقط أن قلباً من الزبدة كان يحل لي، قبل أقل من أربعة أعوام، قمة الرفاهية بدأ زحام العربات وكأنها تقلد السيارات في الخارج، أصبحت بدوّار، قويت أن أجلس.

لربّ، عدت إلى المتجر مع إيريك. ولمرتّن نظرت إلى البائع من بعيد دون أن أنحرّ على الإمساك بها. في المرة الثالثة، ذهبت، بناءً على نصائحه، بمفردي، عارمة على أن أقوم بعمل، أن أملاً عربي بنفسي، وأن أقف في الطابور أمام الصندوق، مجهولة بين الحشد. انقضت بضعة دقائق، وأنا أجول بعربة فارعة بيضاء أمام المتجات دائماً لمرتّن وثلاث. بدوت لفسى كرت أسرة محترم يحوم حول موسم. فحاة، حصل تحول مفعلي. اشترت كل شيء، ماحودة بشوة مجنوبة اشترت كل شيء، أو الأخرى كل المتجات الضرورية للحياة، كل تلك، وفقط تلك، التي خُرم منها كثيراً خلال تلك السوات من الاعتقال. وخلافاً للآليات التي كانت يُعمل، بناءً، عن احتوائها على 50% على الأقل، من الدسم، لم أكن قادرة على القيام بالتدبير المؤقت. طفحت عسري بمتجات محفوظة، وبريت وزبدة ومسحوق للفسيل. كانت أصغر علية كورن للأكس، وأكبر صينية فضية للمشروبات، موجودتين

بقطعتين بين بضاعتي لذلك اليوم. إن حدث. إن حدث وأنقص المرء شيئاً. من الصعب التخلّ باله يمكن للمرء أن ينقص شيئاً أمام هكذا عرض للصانع، ولكن من يدري؟ مرتت بقري امرأة، يجلس طلع في عربتها صفّاً نظراً الحاطفة على هربي، التي كان يحبوها أجبر بلجاً استعداداً لاحتمال حرب عالمية ثالثة من مطبخ صوفي.

تساءلت للحظات حول أفكار تلك المرأة، حينما نحت صدفة طرداً من علب الجبر عليها عرض تخفيض السعر. حين بورسان بالنوم والطيب، عرفت استثنائي على عشر علب. القيت نظرة ذات اليمن وذات الشمال، ولحسن الحظ، اكتشفت أنه لم يسبقني أحد على تلك الفرصة التي لا مثل لها يا لها من صفقة، عشر علب بمن خمس... لا يهم أن تكون بالنوم والطيب، عادية أو بالفلفل الحلو. بسرعة، وقبل أن تستولي مذبرة منزل أدهي من عروها، عليها، دسنت ثلاثة طرود في عربي، أي ثلاثين علية من بورسان. وابتعدت بإباء، آمنة ألا أرغم عند الصندوق على إعادة بعض منها، مراعاة للديمقراطية.

لدى العودة إلى بيت الأسرة، ملأت الفلاجة بعلب بورسان، التي شغلت بصعوبة مساحة ضيقة جداً بالنسبة لها. واختفت بعض قطع الحلوى التي أحبها، سهواً، خلف عيب الحين، في العمق وكادت ألا ترى. إنه رد فعل قديم، لا شك أنه سيكون من الصعب جداً أن تحول عنه: الحفاظ على ما يخصني، لأنه لا شيء أكثر هشاشة من الملكية.

الآن أنتظر، بتفاخر لا يُخفى، عودة الرجل الذي أحب،
بغية أن أعرض له غيمتي.

- ما كل هذا البورسان؟ هتف ايريك متعجباً، حائراً.

- كان عليه عرض تخفيض الثمن. أحزر بكم اشتريته!

من خلال ابتسامته، أدركت أن عالم دُمى السبت لا يزال
غير ملائم لي تماماً. وانغلق باب التلاحة على ثلاثين عليّة من
الجبن.

En3am

www.rzwity.com

www.rzwity.com

الخوف من الآخرين

إنها شاحنة صغيرة بيضاء اللون، مركونة أمام سور
العمارة. مضاع واجهتها بوميض برتقالي اللون. كان المسافر
الذي لم أتّين منه سوى ظهوره، مشغولاً بفتح مراح الباب
الحفي للمركبة. ليخرج منها « البصائع » الضرورية. تلك
العُشب الكرتونية المعبّأة حتى حوافها بالقذّة والبصائع النافهة
تُرى من هو الرجل الذي في الشاحنة؟ أهو جبار. أم مسلم
بضائع؟ إنه رجل قصير سمين، رقبته عاترة بين كفيه، مغمضه
صقينة، في الأربعينات من عمره

لم يشاهدني، وباعتراضي منه شيئاً فشيئاً، تساءلت إن كان
لن ألتفت فجأة نحو وي طرح سراً أو يلقي التحية عليّ أو
يتسم لي ليست هذه المرة الأولى التي أعود فيها بمفردي،
ولكن حتى الآن. حالتي الحظ في الأصادف أهدأ. أو تكون
هناك امرأة جسورة، تسمي فائدي بها وتشجعي بإشارة من
رأسها لبعض الوقت، تساءلت عن الخطوة التالية، مترددة
بعض الشيء في تركه يفرغ شاحنته قبل أن أعود إلى العمارة.
كم من الوقت سيرمه؟ خمس دقائق وربما أكثر ولكن عليّ أن
أنقلب عليّ بخاوي وأن أتعلّم العيش مع الآخرين. بعد خطوات
من الحيرة والتردد، استأنفت مسري، عاقدة العزم عليّ أن
أواجه بمساراة الجماعات المألوفة.

فتح الرجل صندوق سيارته، لم تكن تحوي مواد غذائية،
كما ظننت، وإنما ثلاثة كلاب ضخمة، تسبح نباحاً بفتحت

الأكباد. لابد أن الجو حار في الصندوق الخلفي في السيارة. فتصرح الحيوانات، المخرومة من الهواء، على أمل أن تطلق من سجنها. أنا أعرف ذلك الشعور، لدرجة أنني شعرت بنفسي قريبة من تلك الكلاب الثلاثة أكثر من أي كان فصلاً عن ذلك، كان الزحاح الخلفي محمياً بشك - مرة أخرى قصصيان السجن -، كباب مجنون مؤقت، ترى الكلاب من خلاله مناظر باريس المخطورة عليها كالحدايق والأشجار المرتفعت العشية الصغيرة، التي هي الفردوس الفردوس المتواضع لكلاب المدد

بدا الرجل مروعاً من نباحها، فصرخ بدورته بقوة بحيث غطى اللحظات على ضوضاء الكلاب الثلاثة مجتمعة.

- كفى! اخرسوا!

شلي الصحيح. توقفت حاملة على مائدة بضعة أمتار من المركبة حينها أصبح المشهد مرعاً أهال المسائق، ممسكاً ببعضاً ضرباً على يمامته، بقوة وعنف بلا تحفظ. استحالت النباح ألياً، هيساً خفيفاً مكبوتاً. كان أبصر أسنهم حاداً وكأنه نواح رصيع يبكي، وطفعت السيارة فجأة بالألم. ولا زال الرجل يصرب. يرم لا يليق، تحت النور الساطع لعمرات سيارته تسمى هذه مصابيح الخطر! وهو اسم على غير معنى.

هكذا في عالم الناس الأحرار، يسوق الألم تجاناً، بلا حساب. لم أعد أحتمل أكثر أين الكلاب الدليلة، فاقربت، يحتاجني شعور من التمرد والخوف المروحين. التفت الرجل فجأة ونظر إلي، مستكراً، والعصا في يده.

- أنويدين صورتي؟

كلاً. لم أرد صورته. أثارت النظرة الوحيدة إلى وجهه اضطرابي وسوف تلازمني طويلاً. سأل العرق مس حبه، وتوعدتني عصاه المرفوعة بشكل قاطع.

- ليس هناك ما هو للفرجة، انصري.

توددت لل لحظة أردت من أعماق كياني أن أنقص عليه. وأربع سلاحه وأرمني بعيداً أداة العذاب تلك، وأطلق الكلاب وأصع حماية جلسة العقاب بالجلد. ضغط الخوف عني بطي، ليس الخوف من الصرب، وإنما الخوف من التوقيف والاستجواب والسجن لتدخلني في شؤون الآخرين. ربما يكون من حق ذلك الرجل أن يستدعي الشرطة، ويقدم شكوى ويوقفني فتطرت إليه مرة أخرى، قبل أن أترك الحيوانات لمصيرها.

- قلت لك، انصري.

ارتجعت من قمة رأسي حق أنقص قديمي، سلكت طريقي ودللت إلى العمارة، معلقة الباب من ورائي. شعرت بنفسي يديئة في الخارج، عاد الباح والأوين ولم أستطع مع نفسي من تصور ذلك الرجل في شقته البادخة، يساوب المداعبات وضربات العصا حسب مزاجه اليومي.

- نستطيع استدعاء رجال الشرطة لأجل ذلك. قال لي

En3aM

www.rewity.com

ايريك.

عبارة « نستطيع » تعني « أستطيع ». ربما سيكون

مقدوري يبدو أنه يمكن للمرء أن يلعب عن رجلٍ حرٍ يضرب كلابه... وغالباً ما يكون العقاب صليلاً - غرامة - ولكنّه يؤدي أحياناً إلى إنقاذ الحيوانات من حلاّدها. وماداً يفعل بها بعد ذلك؟ لا أحد يستطيع أن يقول لي ذلك. تُرسل إلى وجار للكلاب أو إلى جميع الرفق بالحيوان حيث تنتظر، في أقباص، أن يأتي رجلٌ حرٌ آخر ويتبناها. أو أن يقع اختيارٌ طفلٍ عليها: أمسي، أريد الكلب الصغير الأبيض. أو في نهاية المطاف، إن لم يتمكنوا من إطعامها، تُحقن بمحقن: بضعة نقاط من السمّ تنقلها إلى عالم أفضل.

www.rewity.com

حق أن عرفت، وإن أردت، ما كنتُ لأستطيع استدعاء الشرطة في ذلك المساء، ولا حتى في مساء آخر. فالزّي العسكري يصيبني بالتركّز. إنه يرمي إلى القنّاون والسلطة والقوة الوحشية يرمي إلى السجن. إن هؤلاء الرجال والنساء الذين يحملون، وهم يحملون على أحزمتهم الترساة المدهشة من المستندات والألعال والمراوات والقنابل المضادة للاعتداءات، يشكّلون قديداً في كل لحظة مع مرور الزمن، طوّرت ماوراء إستراتيجية حقيقية مخصّصة لمحاربة يقظة الرجال الذين يرتدون اللباس العسكري. كان أغتر الرصيف بدون أي سبب حينما أتت في الهواء الطلق، ويمكن هذا الأمر أن يستمر عندما يكون انتباههم منجذباً، ولو قليلاً، إلى مكان آخر. أو أن أفعل ذلك بسرعة فائقة كي لا ألفت الانتباه. هذا هو ما أجهد للقيام به عموماً، حاسة أنفاسي، أملة ألا أصعب صغيراً حادثاً قد يستمرني في مكاني.

يا أنت من هناك!

أنتقل نفسي، جامدة وسط الشارع، مصدومة بالخوف، عرلوعة اليدين. حركة سينمائية شاملة، ومثيرة: النسخة الباريسية من Midnight Express.

حينما لا يكون هناك من مفراً، اختار التوجّه إليهم مباشرة، ربّما لتهدئة ريتهم، أو لأصع نهاية للخوف الذي يؤنني إن كانوا يريدوني، فليقدوني إلى السجن لقد ملستُ الفرار هكذا وحب عليّ التوجّه إلى أكثر من نصف رجال شرطة العاصمة، بالحجج الأكثر تفاعلاً. أفقدي الخوف حليسي. أسألُ كيفما كان عن الطريق وعن الساعة وعن درجة الحرارة، وعن أوقات إغلاق أبواب أنفاق المترو. وأحياناً، أسأل عن كل هذا في الوقت ذاته. غالباً ما يجيبون عليّ، وهم يتفرون في كحيوان فريد.

— هل أنت بخير، يا سيدتي؟

سأكون أفضل حالاً من دوتهم، ولكن ليس بوسعي أن أقول لهم ذلك. ولا بوسعي أن أعترف لهم بأن هذه المرة الثالثة التي أسأل فيها رجلاً باللباس العسكري عن طريقي نفس الطريق. ونفس العنوان، وكل واحد يجيبني بنفس الاهتمام، بحيث يكاد أن يعزّز ريتي. فليس لديهم وسيلة فضلى لخداع العدو. مثل جعله يظن بأنهم يبذلون أقصى جهدهم ليظهروا لائقهم. وحتى إذا كانوا ممن يبدون بأنهم كذلك، فوجود الزّي العسكري، لم أعد أفكر، فانا حائرة، أنا وعاء للدم، أن أشبه بكلاب أمام عصا.

- إيه، ما الذي أصابك؟

كانت شرطية متطوعة شقراء قصيرة وكسيرة الفلك،
وتساءلت أن كانت غالباً ما تستعمل ذلك المسدس الضخم
الذي يكاد أخصه أن يبلغ أسفل صدرها

جاء أحد زملائها لجذتنا، ساعدني في استعادة توازي،
وباولي حقيقي التي سمطت أرضاً. راقبتهم بظرة قلق ساعية
إلى أن أكتشف في عيونه وميضاً للبربرية التي لا توجد فيها

- هذا من عدم الانتباه يا سيدي الصغيرة. ألم تري أن
الإشارة كانت حمراء؟

في معرض ردي، اندفعت في خطية طويلة ملتمة
ومعسولة، مزيج من التبريرات والابتهاج المرعوم والتملق
اعتدلت عشر مرات. تكلمت حتى أهكتهما تبادلاً نظرة
مفهومة، قبل أن تقاطعي السيدة بلطف:

- كوني أكثر احتشاشاً، بعد الآن أتعرفن كم دراحاً يُقتل
سنوياً في باريس؟

ها أنا ذا أنطلق من حديد، مصابة بدوخة خفيفة. تركت
متعة الدراجة مكاهة لتوتر حفي مصبوع سافراج خفيف.
أعذت، وكانني في السيماء، تقيل المشهد الذي ينتمي الآن إلى
مجموعة ذكرياتي.. وشعرت بالخجل يعتريني، واحمرت وجنتاي.
في تلك اللحظات، كرهت تدللي، ذلك الميل الجامح إلى تلميع
أحذيتهم إلى أن أحد صورتي فيها. عاودتي كتمان، مشوشة.
طفلية، تثير الرثاء. استعصمت اعتذاراتي وأعداري. كم وددت

- إنهم ها لحمايتك، تردد صوت في رأسي، ولم ينح

En3aM
www.rewily.com

قط في إقناعي بذلك

بعمدي من ماريه، حيث تناولت العشاء في حسي صغير
هادئ جداً كما لو أنه خارج من ذكرياتي، ركضت
بأقصى سرعة نحو البيت بدا لي وكأن السيارات والدراجات
والمشاة جميعاً يحومون من حولي. أحب الأحاسيس التي تسببها
في السباقات على الدراجة، ذلك الشعور بالتزحج على الرففت
بلا قيود ولا إكراه. في السيارة، أكون حبيسة، مشياً على
الأقدام، أكون محكومة ومراقبة ترصدي الأعين عبرت على
الدراجة، مسرعة بحيث لم يُنح لأحد الوقت الكسالي لمعاينة
وجهي. تحررت من قوايسهم وأنظمتهم، لم أفعل سوى المرور
بعالمهم. ولكن عند أول ملتقى طرق، أمست في مواقع من
جديد، شكل حائط جدار بحث كذبت أن أفقد حياتي هناك
أبعد من ذلك قليل، قطعت شاحنة صغيرة للشرطة الطريق،
حاجبة عربة أخرى مكونة بالعرض. مرة أخرى إنهم هم!
تدافعت الأفكار وتصادمت الكلمات في ذهني، تكاد تفقد
معناها توقفي، توسط، جريمة، خنعة. نزل أربعة عناصر
شرطة من الشاحنة، بينهم امرأة. يبدو أنهم يوقفون أحداً، أو
ربما تكون مجرد مراقبة، لا أدري ولكن أسأله هي أنني لم
أشاهد الإشارة الضوئية، وأني انقضضت عليهم، ضاغطة
بقدمي لمقابض الكامحات بالكاد تباطات دراجتي عبرت ملتقى
الطرق وسط حوقة من التزمير وألتهت جولتها إلى جانب شاحنة
الشرطة، محدنة دويّاً مرعجا بار نظامها بصفيحها.

أن أكون متكبِّرة ومتفطرسة. كم وددتُ لو أنني كنتُ ندًا لهم.

لأن الحرف كان يتحصر في الزي العسكري، لكنني الأكثر معادة من بين النساء. بسطت باريس أمام ماطري مشهد عنوايتها، حرب الحداق اليومية لسكانها الساخطين. لقد قصرت سنوات في الاستعداد للقتال وتخويل الأطفال الذين كانوا هم لي رائدين متطلِّين، رافعين عاليًا ألوان حروبهم الصغيرة. لم يهتني أي شيء لذلك.

على أوصافه المقاهي، يُعرِّفني التذلل الباريسيون المشهورين، الخزيين بزيتهم الرسمي الأبيض والأسود، أكثر من رجال الشرطة غيرة فكرة ذهبي للجلوس في مقهى. أخشى نظراتهم الثقيلة المزدوية. كم من مرة طلبتهم بصوت خفيض ناعم؟

- من فضلك!

عز البريق، وهو يكاد أن يستفي، متظاهراً بعلم رؤيتي.

- يا سيّد، من فضلك...

- انتظري دقيقة!

أكثر من أيّ كان في باريس، انتظرت. انتظرت. انتظرت لدقيقتين، لعشر دقائق. انتظرت من الدقائق ما لا يحصى. معظم البشر الأحرار يحافظون على علاقة تبعية أليمة لساعاتهم وميقاتهم، وهذه الإضافة التي تكاد تكون مادّية تدفعهم إلى جمع كل ثانية كما لو كانت الأجرة الذي لذي الوقت الكافي. ولكن يربحي ذلك

المصفاة الشفيف، تلك العيون الخالية التي تعبر من خلالي كما لو كنت نافذة مشرعة على العدم.

جنت الطريق نحو طاولتي على مضض، بعد أن خدمت الدنيا بأكميها وتحدثت في السياسة مع بائع صحف.

En3aM

www.rzwily.com

- ما الذي حدث؟

ما الذي حدث؟ ليس مهمّاً. فمهما كان الأمر، سوف يحتل له بالشمز وإعظ. علي الحفاظ على هدوئي. هناك شيفرة صمية غريبة بين نادل المقهى الباريسي وضحيتي، علاقة هيمنة تعكس الأدوار. أدفع المال لكي أكون مجهولة، لكي يُضرح في وجهي. أدفع لكي أعاين باستعلاء، لأرى بأنني لا أفتر إطلاقاً. بعد ذلك بسنوات، سأعمن من خلال التواصل مع الأجانب، أولئك الأناس الأحرار القادمين من بلدان أخرى، بأن هذه الظاهرة المودجية خاصة بالعاصمة الفرنسية، وأن نادل المقهى أيضاً رمزّي هنا كجرج إيفل.

منذ ذلك الحين، أخشى المواعيد في المقاهي التي أصل إليها دائماً قبل الموعد بصف ساعة، حيث أن فكرة وصولي متأخر لا تُطاق بالسبة لي. حتى قبل أن أجلس، أستعدّ للمواجهة، أستعيد أنفاسي وأركز تفكيري وكأنني ملاكم. ماذا لسي لمواجهة العدوانية السافرة للسكان الأصليين؟ تربيّتي الإلزامية في القصر، الراسخة في ذهني والتي بقيت متجذّرة بقوة في أعماقي.

- كوني أكثر عدوانية، قيل لي. لا تنهائي.

ولكن لا تزال أنظمة حياتي الجديدة تعتمدي لدي القليل من السيطرة على الأحداث بحيث لا يمكن سوى ابتلاع كيريسي ومدة حذي الآخر هذا ما يفعله المسيحيون، على الأقل بطر، ليطفروا بالفردوس. وإذا كان هكذا يُطْفَر به، فقد طُفِرَ به ألف مرة، واستحق أن أجس إلى بين الله وأغني مع الملائكة لأني لقاء كل صراخ، أعطيت ابتسامة مهدية، ولقاء كل حساب مرمي في وجهي، شكرت، ولقاء كل تعليق مستقر تركت بحيشا

شيئا فشيئا، غدت باريس ملوثة للعذوانية. تعلمت فيها أن أعد ترتيباتي، وأنا أراقب بعناية الناس الأحرار الذين يتورون لأدنى مضايقة يتعرضون لها عاجلاً أم آجلاً، سيتلاشى حوفي وسارد الصاع صاعين على الأقل هذا ما أتمناه، لا أحد يستطيع العيش إلى الأبد مع الخوف، ولا حتى أولئك الذين عليهم الخوف طيلة صباهم.

سيكون المتجر الكبير (السوبر ماركت)، تلك الرحبة العملاقة لمقاتل الاستهلاك الظاهر، بمثابة الملعب الأول لتمريري عند نزولي من السيارة، أدركت أنني أدخلت الخلية لدى المستهلك الكبير (هكذا لقبُ المستهلك بالجملة) فكرت أن رئيسيتان في ذهني. الانجاز السريع، وعدم السماح بتجاوزته وليس للإنسان الحق، مع أنه حر في الذهاب إلى حيث يشاء، ومضى يشاء، وكبعضنا يشاء، سوى هاتين الفكرتين في ذهني. بسرعة، دائماً أسرع فيما مضى، أثناء فرارنا، ونحن نصير الأحياء الشعبية للدار البيضاء، كان الميكانيك المحنون للمشاة

دوراً يسرون دونما هدف قد أذهلني، ولو لم تكن حياة من هاسوي، لكنني قد فقهت ضحكاً. كانوا يسرون من رؤوسهم مثل العمال المستيرين في فيلم شارلي شابلن في الأفلام الجديدة.

في اللحظات الأولى، سحرتني مشهد أولئك النساء منسجعات في ساق حقيقي للعربات دون أن أستطيع الدخول في الدراما. كانت العربات مشبوبة إلى بعضها، مربوطة بسلك لن تنفك إلا بوضع قطعة نقدية في غلبة صغيرة. من الخط، أدركت الحيلة بسرعة، بما أن حشداً كاملاً قادم من باطري. يتدافع الناس، ولحز العربات بقوة كبيرة تدفعها صريراً يفتت الأكباد. أبعد من ذلك بضعة أمتار، يجلس مسهكون كبار آخرون عرباتهم، ويشبكونها بصخب جهنمي بدوري. تمقّدت محطتي، وتشتت بقطعتي النقدية كما لو أني ليرة ذهبية (قل لي كثيراً أن أحذر للصوص)، وحاولت بما أن أمتلك مركبتي لأخطف في السباق.

جرت سباقتي بشكل أكثر من جيد، حتى أنني كدت أن ألتاح إلى الشارع. إنه أمر مهل جداً أن يقود المرء عربته بيد واحدة وأن يتوقع حركات المتدققين من كل الجهات ويستفهم لم يعرف السكّان الأصليون، المهمكين في مساقهم المضموم، أن اهتمام، ولهذا فقط، كنت سعيدة بمحيتي. أغشى التحامل بالتاكيد، ولكن على نحو أقل من المواجهة المخطئة مع الأهل، ووقع أن أحد نفسي أمام ضرورة رفع الصوت وفتح طريقي في الزحمة. حينها، كانت الأمور تسير سواً ألياً بحيث ظننت

نفسى على ^١ انسلت إلى موقع متقدم في الطابور،
حيما ظهر ^٢ يهولة عربة خدمة خاصة بالصانع،
قافلة حقيقين تتقدم طلالها امرأة ضخمة يتوب
مزهر بلا تميز تلك الكومة المائلة من الأظمة دون
تباطؤ عند ^٣ رصدمت ريلنى ساقى لدى مرورها
كان الألم حتم بعض الشيء رفعت نظري،
مصدومة، ^٤ لم تتوان عن صفقي بنظرائها. ثار
سخطي، و^٥ انقضت معدني وأسلفت عيناى
كانت تلك ^٦ بالنسبة للمرأة البدينة التي استفادت
منها لتعجل ^٧ من جديد، وعذرة العربة، هذه المرة،
صلمت ساقى ^٨ شديدا جدا إلى درجة أنه جعلنى
أرتعد. وبلا ^٩ أخرى، ولكن لم تفلح حتى مجرد
كلمة اعتذار ^{١٠} المضمومتين.

حينها ^{١١} في داخلي، هروسيما مصفرة
كنت - مؤس - شكوكي ومخاوتي وترددي وحيوتي.
أخذت ^{١٢} العربية، بشراسة شديدة بحيث شعرت
أننى سأطعمها ^{١٣} مرة واحدة. لم أفتخر في كلماتي، فضلا
عن أنها تدفق منها، سيلاً عارفا، دفقة حمض حارق،
ولا يهم إن لم ^{١٤} في نظري، وجب على المسخط
أن يجلى مكانه ^{١٥} - أكان يجب انتظار الذهاب إلى
متجر كبير ^{١٦} بالكراهية إلى درجة أن المرأة
انتهت إلى البر.

- هذا ^{١٧} لابتة من استدعاء حارس، صدر صوت
شائخ من جهة طابور

هذآني التعليق على الفور، وكأنه قد ألقى عليّ دلو من
الماء البارد. من جديد، فكّرت بالسلطة والرّي الرسمي
والحمّة، والاستحباب، كل تلك الأشياء التي تطردني منذ
أن وضعت قدمي خارج سجنى. غضب سيل الشتائم في فمى،
وبعهد جهيد، لم أترك مكانى في الطابور، هذا المكان الذي
ظفرت به للتو عوة. أهو انتصر جيداً أجهل ذلك. ليس هناك
ما يحسد عليه المرأة في أن يشبه دافعى العربات ولكن خالطى
شعور غامض بأن أيريك سيكون فخوراً بي، لكوي للمرة
الأولى، سوف لن أعيش عاراً منذ لحظة الآخر.

هيبيرناتا في باريس

عدت من جديد، إلى مقهى لو فلور، عش الذكريات، حيث أستعيد كما ليس في أي مكان آخر، الذكريات الغامضة حيث التي كان عقدي أن أكونها فيما مضى اليوم، أنا مختلفة جداً بحيث يبدو لي أنني قد أراها جالسة هناك إلى طاولة بجانب، دون أن أتعرّف إليها، دون أن أتعرّف إلى نفسي. ولكن، وأنا في لا فلور، أكاد أكون كاملة بلا تغيير، متجذدة، خليطاً، لا حين دون التحام فوصوي لطيش الماضي وغُصّاب اليوم هذا مقهى، الذي لا يزال عائناً بالدخان ومكتظاً بالناس، بالسمة في بقايا نكهة حلوى مادلين... إنه صلة وصل بين عالمين.

في المرة الأولى التي وحدث فيها ديكور لا فلور، فاضت الدموع في عيني. جلستُ بخجل، طبتُ فجأة من القهوة كما كنت أفعل أيام تلك الأيام الهائلة، وارتشمته برشقات صغيرة، مستلدة بطعم مراراً بوقت طويل، بقيتُ ساكناً، تأنه هُهبُ ذكرياتي كان الهواء مشعاً بدخان السجائر، كما في السابق. قلماً كان الصبح المكتشف، المصمّ للأدنان، يصابقني، ربما لأنه كان ينبعث من الديكور. كان الجميع أشبه بالطيارين أكثر قبحاً من أي وقت مضى، السياح الذين يتدافعون لحادوا أشباح سارتر، ومتقو الحي الذين يأملون أن يحدوا حدود أجسادهم، والطلاب الأثرياء، وعابرو السيل المدهولين بكل هذا الصبح المظلم في المقهى.

En3aM

www.rgwtly.com

" لقد استُخدمت الكتابة هذه للظلمة في إشارة إلى "البيات الشتوي" أو "الصلوات" أو "التخفر" وهو النوم الشتوي لدى بعض أجناس الحيوانات.

En3aM

www.rgwtly.com

كانت حذرة ، بود الصلاة وقية « كراي بحيث بدا لي
وكان الزمن قد توقف بمقهى لوبد ناماً مغلي، وكأنه عاش
بإقناع الأول دون آه - ين أن يصحني به: نصر غريب عليّ وكم
كان مؤثراً ذلك لقلب القدر من التضامن صعدت السلم باتجاه
المعاسل، وبدي توفيق التفرق على الدرابزيني وكأنها تداعب
كف صديق قديم وم. ولكل لدى الزبون المعاسل، أخذ
الصديق القديم يصحح هارناً لأن أن أعسل يدي، ولم
يكن هناك لا صور لصور الماء الدافئ لاسور الماء السارد، ولا
حتى حلاط عجيب على شكل مم كما في معطر اليد
« لا داعي للدعوى »، قلت في نفسي: بحث من الجهتين عن
المغسلة التي كان فيها ينابيعها الصنوبران »

ولكنهما لم يكونا ليكونا في آية جهنم بالضيق، تحققت من
أن لا أحد قادم قبل ١ ريل الأهمالك في تدهشة. أتكون هذه
الأزوار على الحائط؟ نظراً كلاً أنها لوبد يدها أحد قط
للحصول على الماء هناك أيضاً. معرورة بساق يعبر
الحائط. لا شك أن الماكن الأمر يتعلق بـ جديدة: تُدار نحو
اليسار للحصول على أعلى الماء الساخن المين للماء البارد.
وما أن طيقت نظرتي، بقي، حتى وجدته بيدي ملتأناً بالصابون،
لأن الكرة السحرية لم تدم لم تكن سوى سنن مرسيليا الذي. وأنا
في تلك الحالة من الحيرة والمهابة، دس روبة أخرى ابتسمت
لي بشروء، فرددت عيناها عيناها من يدي مخفية يدي المليتين
بالصابون خلف ظهري، « بريه.

شاهدتها تمر يديها بيديها تحت الماء، كلاهما بالصابون بعنف،

ثم تدخل الحمام. سمعت، غير مصدقة، الباب ينغلق بينما لا
يرال الماء يشرح. هكذا يسيل الماء للأخريين ولكن ليس لي...

بقي لي القليل من الوقت قبل أن تخرج الزبونة من الحمام
من جديد، الخجيت، وقشيت في المغسلة ومحيطها. أين يا أنسرى
صعقت؟ أليكون هناك دواسة على الأرض؟ لا يمكن للماء
إدراكها، أو ربما أحضر الماء الدكي بعد نقاد جميع الوسائل،
جنوت على ركني لأقتش في أسفل المغسلة. أليكون هناك رز
محفي فيها؟ لن يهشي لي سر الصبرة السحرية سوى أنوبسة
كنت أتبعها كحط توجيه. منهمكة في اكتشاف مثل هوارد
كارتر في اكتشافاته حول آثار الفرعون توت - عنخ آمون، لم
يسعني الوقت لأهض حينما خرجت الزبونة من الحمامات
وألقت عليّ نظرة ملتها الاندهاش. تلعت، وغمغمت،
واختلقت لنفسي قرطاً أدعيت فقدانها لأبرز وضعتي. انحنت
السيدة الكريمة، متعاطفة معي، بدورها متظاهرة بالبحث عن
قرطي، رغم احتجاجاتي.

- شكراً يا سيدتي، سيكون الأمر على ما يرام، ساعتر
عليه.

استغللت السيدة ذلك لتتحقق من أن قرطسي في أذني،
مرغمة يباي أن أعوص في كذبي حاتية في حمامات عامة لمقهى
من مقاهي سان جيرمان، اختلقت في الحال زوجاً آخر من
الأقراط، أدعيت أنها كانت موجودة في حقيبة يدي، الحقيقة
التي كانت قد فتحت سهواً، وسقطت منها على نحو مفاجئ
قطعة مجوهرات كنت أحضرها أختي. غصت الزبونة، مقتعة

مساعدة العالم في اختراع موزعات الصابون، كان من الممكن أن يستمر في إطعام الجوع، أو اختراع الخلاصة الأساسية من الحر أو رفق طقة الأوزون ولكني لم أبلغ نهاية مصاحاتي. فمعد من النادر، هو، بيساطة العالم كما هو عليه الآن...

لم يرل شيء بدعني أن افترض أن ملوك العث قد عاشوا في باريس تغييرا إلى حد أن المدينة ستحول بالنسبة لي إلى ديكور من خارج الأرض، غير قابل أن أتصل منه بدون دليل طريقة الاستخدام. أهو الاثنان أم الضيق، لا أدري أي من أحاسيسي اتاني أولاً، بيد أن أمراً واحداً كان واضحاً أساساً طفلاً. ولدت جديدة في جسد امرأة بالغة، بعد قليل، ربما سيكون عني أن أعلم استخدام شوكة الطعام

ترعى الدولة - الحامية أدق شؤون حياتنا لقد أبغث أن كل مقفات أمراضي، الخفيف منها والعصال، سيتكفل بها، من الآن فصاعداً، « الضمان الاجتماعي ». وهو جهاز إداري هائل، يستدّ لقاء قليل من الوقت ورقة ثبوتية تقدم إليه، كل التكاليف، حتى قيمة القطرات التي يقطرها المرء، في أنه بين عظمين

- عليك الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، قيل لي، دون التحرز على الإفصاح بأن السوات التي قصيتها في السجن قد جعلت حالي الصحية سيئة بالتأكيد.

لست الوحيدة التي تعاني. لا تزال تحمل على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. تعاني مبني من نوبات صرع ترديها

بقي حذراً من حلال سبل الكلمات، ومنشئة بالفواصل. ألقت علي نظرة ارتباب، ثم مررت يديها تحت انصبيور حصلت المعجزة للمرة الثانية، وأحد الماء بيل وأنا حائسة على الأرض لي وضعية التلميد، أدركت بأنه يكشفني أن تمرر الأيدي تحت الصنوبر كي يأتي الفرج.

عادت الزبونة إلى طاولتها، وبقيت وحيدة من جديد. بهطت يداي بالصابون الجاف، وتلبس الحجل كامل كياني، خلفاً كرواني بكهن سيمك مررت يدي بدوء تحت الصور، بانساب ماء فاتر يتلذذ بين أصابعي. يا إلهي، هل انقضى قرن يكي يتحلى العالم عن الصابون، لكي تراك المعاسل من تلقانها وانت قادم؟ هل بقيت وقفاً طويلاً جداً في حالة سبات؟

تساءلت مطوّلاً عما تكون قد آلت إليه الدنيا في الخارج، إذا ما سأكون قادرة في وقت ما على أن أتلازم مع العقليات الجديدة، وأندمج في المناقشات، وأفكّ طلاسماً لغة العائسة والاختصارات والمصطلحات المكتوبة بالأحرف الأولى ولم أكن أدري إن كان أبناء جيلي لا يزالون مناسين لي، إذا ما أنشئت كرباتنا المشتركة هل سيكون بمقدوري أن أهتم من جديد لأحبار السينما والسياسة؟ كل هذه الأسئلة، طرحتها على يحيى لمئات المرات. ولكني لم أهتم فقط بمسائل الصنابير لا يكن لأحد أن يتصور بأنه سيأتي يوم يسيل فيه الماء من الصابون بقاءياً.

فالعالم قد تزقن بكل أنواع الأدوات والأجهزة، ولم تخضع أن أمتع نفسي من التفكير بأن كل هذا الوقت الذي

أرضاً، وأصبحت مأزبا بالسرطان. ويعاني رؤوف من التهابات رئوية إضافية، وأصغرتا عبد اللطيف، وروحته هي التي أخذوها قبل كل شيء.

الانضمام إلى الضمان الاجتماعي مسألة بسيطة، مجرد بعض الإجراءات. ساعدني إيريك في ترتيب أوراقني، الأوراق الثبوتية للسكن والميلاد والكهرباء والتلفزيون، أي شيء إداري، إذا صح القول. تذكرت كل تلك الأوراق في لحظة، هي عبارة عن شرح بلاستيكي يحوي كل ما أنا عليه. مترجما بالأرقام والرموز. يشبه مركز الضمان الاجتماعي، الذي يقع في طريق غير نافذة ويتوارى خلف الأحرف الأولى من اسمه الذي لا يُلفظ. هو محطة لم أعتد أبداً على الكتمان، وفي الحال، أخذت بتلافي راحة التشوش والضوضاء والانتظار والصعق العميق التي حامت وتوعدت. ماذا كنت قد تخيلت؟ مكتب صغير خالٍ، بعض النباتات الخضراء، مضيفة بابتسامة ودودة، واسمي بحروف كبيرة على بطاقة دعوة...

المكتب الصغير العادي غير موجود. عوض ذلك، توجد غرف زجاجية فردية يستقبل فيها موظفون بد، عليهم الإرواق الناس بين يابن يجلس الزبائن - أُنْقال الزبائن بالنسبة للضمان الاجتماعي كما بالنسبة للمتجر الكبير - على كراسي مستقيمة استقامة العدالة، وهم يقيمون الحجاج ويتلوون، ويقومون بحركات مبالغ، ويدوسون على حقائبهم الـ ثاني

* سُمِّحت الكتابة عبارة aquarium لتشير إلى المكاتب المستطعة بالأرواح من الزجاج ولتحت داخل مسألة كبيرة، وهي مكاتب صغيرة ومفتوحة تستخدم اليوم بدل المكاتب الكلاسيكية المنوطة من غرفة مقبلة.

من أن يتبينوا ذلك. ولكن قبل بلوغ المكاتب هناك صالة، صالة فسحة مرفوعة بأرائك زرقاء يستسلم فيها رهطٌ حقيقي من ناحة المقفلة للناس الأحرار: الانتظار. شعرت بأن العيون عاسي، إلى درجة أن خدتي أحمر: لماذا أنا الوحيدة التي أمكث الفة، متشقة غرجي الفيس؟ كلما بقيت جامدة هنا، كلما رجعي ثقل النظرات. سرى حذرٌ عاذرٌ في ساني، وصعد إلى عاعي الشوكي. بدا لي أنني سأتحجر هنا، وأزقن إلى الأبد هو لصان الاجتماعي، مصوبة على قاعدة، سُنَّت عليها شاهدة لبر تخليداً للذكرى المشردين عديمي الجنسية.

دوي ولين خفيف، في الحال، ألتجه لثلاثون زوجاً من لعبون كعب واحدة نحو ساعة حائط، ترتع في أعلى المكاتب، أعلنت عن الرقم 164. قام شخص لم يُنادى باسمه، غيّر اليسو ودخل إلى مقصورة.

164... إنه أمرٌ محيرٌ. تساءلت عما يمكن هذا الرقم أن يباطره. أليكون المقصود دعوة في ساعة محددة؟ هذا مستبعد، عا أن الساعة هي الآن 11 صباحاً، وأن الرقم 164، وإن فُكَّك بكل الاتجاهات، سوف لن يعطي سوى الساعة 16.04، لا بل 16.40، وهذا لا يتوافق مع الرقم المعلن تبقى نظرية الأرقام المحددة، الخاصة بكل «زبائن» هذه المؤسسة المحترمة. ربما يكونوا قد رُقِّموا، ودُعِّموا كسجناء - لقد قيل لي بأن رقمي المستقبلي للضمان الاجتماعي سيُبدلني كجواز مرور في كل إحصائي المهمة. انقبض قلبي. ماذا لو كان لهم جميعاً رقم، وأنا ليس لدي؟

حينذاك، غادر زبون إحدى القصورات واتجه نحو المخرج وفي الحال أعلن الحاسب ع الرقم 165، مع نفس ذلك الرنين الخافت. نهض الشاب الرتيدي لسترّة رياضية، مر من أمامي ملقباً عليّ نظرة تحدّ، دون أن يخفض صوت مسجلته المحمولة لقد اتضح كل شيء. إنه الزبون رقم 165، لا يهم كثيراً إن كان في اليوم، أو الصبيحة، أو الأسبوع. ولكن، كيف عرف ذلك؟ ربما، اعتادوا على أن يحسبوا فيما بينهم. ولذا كانوا جميعهم يظرون إليّ بنظرة العين كئ، بلا شك. وأنا واقفة وسط العدم، أخل بحسابهم. حلست، بذهن مشوّش. عازمة نيات على أن أدهمهم جميعاً بترؤن. ولكن للأسف، كلّمنا يصرف بعضهم، يصل آخرون إلى اتصال، وتناقلت الأرقام على الشاشة دون أن يعبرني أحد أدنى اهتمام واقفة. كنت موجودة. حالسة. لست سوى أثاث 170 180 190. رأيت أساساً يذهبون، ويأتي آخرون. كنت أكامل حقيقي في مرفأ وإذا أصبح ذلك فوق احتمالي، جارت بالانجاء نحو المراتب سبعاً للإشارة إلى حصوري بذلك أقصى جهدي لأحتفي تشجعي. وانتظرت انتظرت طويلاً. انتظرت أن يشرح «زبون»، طيلة خمس عشرة دقيقة، العاجعة المرعبة للبريد الذي لم يتقبّاه أسداً. والذي - على ما يبدو - سيحرمه من الدفع الذي يحقّ له كلاً، لم يرسل شكري كلاً. لم يحتفظ بنسخة ورقة الرعاية خاصته.

- ولا أتحدّث عن العرب، الذين لم يعملوا قط بحسابهم، والذين ليس لديهم أيّة مشكلة في استيفاء حقوقهم. هؤلاء أنا من أعرفهم. يُعطى لهم هذا - أشار إلى معصمه - ويتهبون بأن نأخذوا ملك يدك كاملة ولا يكتبون بذلك، بل يقبضون عن

الجميع: الأم، البنت، الأبناء، الأعمام، الأحاداد! ليس لديهم حتى الأوراق الأصلية، وتسدّدون لهم المستحقات كاملة. ومن الذي يدفع؟ أسألكم أنتم عن هذا؟

العربية التي هي أنا، تنتظر باحتشام في ركني من الباب الذي خرج منه «الزبون» المسلوب مختالاً في غطرسته، ليس دون توعد الموطقة بصواعق الجحيم بل وأسوأ، برسالة مسجلة. أثارت الفتاة شفتي، تصوّرت نفسي في مكانها، وقد أشبعت شتماً من قبل وعد دون وجه حقّ. وإن لم يكن الأمر سوى هذا كيف تصرّف هذه المرأة الحرة لتقضي ثمان ساعات يومياً تحت لمة نبود، في مقصورة وردية اللون مزخجة، حيث يأتي كل واحد يحملها كل مصائب المؤسسة! أحتديّ حماسة معاجنة للتضامن معها، فتصرّت بمحاو في تكاد أن تتلاشى، وبلغت عموه كافأها بعبارة: صباح الخير يا سيّدي العزيزة، والسق بالكاد جعلتها ترفع عنها.

- 190

شكّني السؤال في الحال.

- عفواً؟

أشارت بضيق إلى المعلن.

- 190. إنه أمامك.

ويتأثّر تربيتي السليمة، شرحت أنني، لستُ السرق رقم 190، ولا أيّ رقم آخر، وأني ببساطة حثتُ أنسب إلى الصمان

الاجتماعي. ولم أبلغ قط بأنه كان هناك حاجة إلى رقم. وأنى
سأكون مجتة لها إن أرضتني إلى فن وطريقة أن أكون مدموعه
بدوري، كثور في المسلخ

مظرت لي الأتيلية* بلا قلق، دون أن تتحلّى عن برطمتها
المستنتجة.

- لا أفهم شيئاً. ألم تأخذني رقماً؟

- لا، يا سيدي.

- خذي رقماً، قالت لي مشيرة إلى آلة في المدخل، لم أكن
قد ميزتها عن مطننة الحريق. والتظري إلى أن ينادى لك.

يوجد الوجه الآخر للعالم المعاصر تحت أقدامنا. مساحات
شاسعة من المعارض والمزاييب والأنفاق ومدخل المشرو
ومواقف للسيارات تحت الأرض، تغوص بعمق مستويين وثلاثة
وأربعة وأحياناً خمسة مستويات. لم أستطع الامتناع عن التفكير
بذلك، حينما تحولت في طول جاذبات العاصمة المكتظة بالناس.
إنه عالم حقيقي يمد بضعة أمتار في الأسفل، عالم من الظلمات
يجعل أشعة الشمس الضيقة. سرعان ما لاحظت أن البشر
الأحرار يغرون من المبوط إلى تحت الأرض، كما لو أنهم
قضوا فيه قسماً كبيراً من حياتهم. تبلور السرايب محاورهم
وقلائقهم، كظفل يرفض أن يطفأ مصباح مسريه، التراس
الأخيرة في مواجهة العتمة المترو، والأفنية، وموقف السيارات،
والكثير من الديكور حيث يحوم شيخ الاعتداء - وسوامن

* نمبة إلى جزر الأنثيل - المترجم.

بامتياز لكل مدني يحترم نفسه - متوعداً.

ومع ذلك فإن باريس مدينة هادئة نسيها، حتى لو كانت
عانية، عمداً ستكون الأفنية أقل أمناً من أرقعة منطقة الهال حيث
يتشقق شبان محطّمون المخدرات تحت أرتاج العربات؟

باختصار، أنا التي أعافى من كل الناس ومن كل شيء،
لا يصيبني أدنى خوف حينما يتعلق الأمر بالزول إلى تحت
الأرض. بل يتملكني هاك شعورٌ غريب بالعذوبة والسكينة
بعيداً عن الضياء وعن هياح الخارج، أعلق على داني على
السطح، أكون في حالة عرص. أرقب أفعالي، مئة دعراً. تحت
الأرض، استغرق في التفكير، في القراءة، يهدمدي الطين
المخونق للمترو.

لم أفهم قط لماذا تشلّي الحشود في الخارج، بينما لا ألقها
في عربات المترو. باستثناء ساعات الذروة حيث يتحوّل البشر
الأحرار إلى سلك سردين، وحيث يشعر المرء بأنفسه جواره
قريبة

جداً بحيث أشعر بالغيان، فإن الناس الذين يشغلون المشرو
مختلفين - في النهاية - بالنسبة لي. هل أعيش من أجبيهم؟ أجعل
ذلك، والمرة واحدة، لا أطرح على نفسي السؤال كرسى
مقعد متحرك. زاوية مقعد، وإد في مبحرة في رحلة أريدها بلا
هاية، موزونة بإيقاعات الرحلات المسكنة للقطار المنساب على
السلك هاك، تحت الأرض، أستغرق في القراءة، وأغلق من
رتابة الحياة اليومية. من حين إلى آخر، أرفع ناظري، لا

لأعاس المحطات المتتالية بل لأدمل نظري في عممة الأساق في محطة ريو مور-سياسبول. أذكرت أن جماعات مرمهار الفئران كانت تعيش في الحي المعدنية للمقاعد التي يقرأ المسافرون عليها جريدكم بنظر المترو. لا أحد مريهم استدار أبدا ليرصد الخراطيم المجهوية التي كانت تعبر ججورا صغرة. لأنه ليس لديهم سوما هم واحد: أن يروا التور بأسرع وقت حدث لي وأن دس بعض قطع السكوت في الحضور، وإن شعرت بأنها بهوشة من الداحل يجري الحديث كثيرا عن خردال التي تفرو لأقية، أما أنا فلم أر سوى هذه الفئران الصغيرة، التي لها قدرة عربية على البقاء في عام من الإسمت.

كما أن هناك رجال يتكون هذا العالم، لاصيما عندما يحل الصيف محل الصقع والبلد. وقد تبين لي بأنه إذا كانت المقاعد، على الأرصفة، قد نالت عن بعضها ما يقارب المتر، فدللت ليس، كما كنت أعتقد، لتأخ في القراءة هدد. وإنما لمح هؤلاء الرجال من انوارهم. فالناس الأحرار لا يتحسون مشهد نؤس الآخرين. ولا الفئران، لا يمكن هؤلاء الذين يسقون بـ «شئ لا ماوى» الاندساس في الحضور، القساء للبرد ولنظرات الآخرين.

أحب مواقف السيارات، وبما أكثر من سواها، لأنها دائما مقفلة لتلقي فيها بأشئ تلامس الجدران، باحة بأس عن سيارتها بالنظر. بالسبة، فهي عبارة عن مساحات شاسعة من نصايح النيون يلمع. وسيارات فارغة متراسة على مدى لصر. لدى مروءا، تحلت قصة لكل منها،

سائق، عائلة، هؤلاء الناس المحردين الذين لن يخيفوني أبدا، لأهم تناخ تخلي. إنهم يتمون إلي.

لومن طويل، تحللت شخصيات وحكايات. أخذت عائلي في استراحة مع حكاية ذات أحداث عربية، حكاية استعرت من سجناء الشاق، حكاية عاشت وتقدمت وشاعت معنا. وكشهرزاد في الأسر، لأحد عشر عاما، كنت، ليلة بعد أخرى، ابتكرت حكاية تجري في روسيا القرن التاسع عشر. كانت «الدائف السوداء» تصف بدقة ملفزة، سيما وأني لم أكن قد وطعت أبدا قلبي في روسيا، قصور سان بطرسبرغ، وأعمال القوقاز، والزهاط بالزلاجات على صفاف القولعا المتحفد. كان عدي محبة عيه في الخارج، كان سعر البيلي المغربية، ولكن كان في قلوبنا طوف جريد متحبل كان كل واحد منا نحم. وكان رزوف يصفر حيدا لا يعود يسمع القصة.

لفرط ما سردقا، غدا أبطالها مالوفين جدا بحيث بدا لي وكأنني عشت إلى جانبهم، هكذا يصبح المرء كاتب أو حامل أو مفصوما في شخصيته ثمة شيء قليل من تلك الحكاية في لطوبير الطويلة للسيارات التي تشعل أقية سراديب سباريس إنها عشت فارعة، تروي القصص التي يراها أن أسمع جيدا. إنه عالم مصنوع على مقاسي، عالم لا يريد أحد أن يحكمه، لأنه لا يوجد فيه أحد.

حينما كان المال ملموساً

عنى مدى ما أتذكر، اتسعت محفطي لثروتي ولكن. كان المال بالنسبة لي شيئاً ملموساً، مهماً يمكن حسبه والذي كان يلمسني في جيوبي لحساب خياطي الضفة اليسرى. كنت أحيله أحياناً من ديور أو سان لوران، ومصاريف عند كاستيل أو ريجي، وعطلاً رائعة أقضيها مع أمي في نيو يورك أو لوس أنجلوس.

في عالم البشر الأحرار، تغير شكل المال نفسه فبعد أن بقي سليماً مستقراً على مدى قرون، لم يجد ما هو أفضل من أن يتغير ويتحول. خلال سنوات، في الوقت الذي عدت فيه إلى الحياة ألا بد أن يهرب مني كل شيء وكأنه يعاقبني على كوني عاتية لأمد طويل جداً؟ طبعاً، لا تزال الأوراق المالية، كما القطع المعدنية، المسماة بالبيض أو الصفراء، حسب قيمتها، موجودة. ويمكن للقدماء أن يتشبثوا بها، مثلما هو الشيك العجوز الطيب الذي يبلغ مفهومه من العمر ما يقارب مائتي عام. وطبعاً، لا يزال هناك أناس يتكلمون بالقرينات القديمة. وعلايين الستيمات ولكن الحقيقة هي أن المال قد غير وجهه. لقد أصبح مجرداً، عائماً، يلعب به مثلما يلعب بالفيس في الكازينو

En3aM
www.rgwily.com

تشعل ثروتي من الآن فصاعداً قطعة صغيرة من البلاستيك، والتي يمررها المرء إلى النادل دون التفكير بها، وهو

En3aM
www.rgwily.com

* Jetons (فيش). تستخدم بدلاً عن المال في ألعاب القمار في الملاهي. وتستخدم
بالمال النقدي الملموس لذر وحل محل هذه القطع البلاستيكية المنظمة للترجم.

يتابع حديثه. قل أقل من ثلاثة أشهر، كنت أندش من الآلة السحرية لقيد الحسابات المصرفية، وأنا أقسم بأقدس ما عندي على أنني لن أسقط أبداً في التجريد أن أدفع هكذا بالهواء غير وارد. لا بد أن أرى نقودي، أن المسها، أن أحصي الأوراق المتبقية معي، وأن أحري في مجتلي الحساب الذهني لنقود التي أعيدت إلي، وللخشي الذي تركته للبادل تُكسري بطاقة الائتمان، تفصلني عن الواقع. ومع ذلك... وحرصاً منه على ألا يراي أعيش في الماضي مثل أولئك المستن الذين رفضوا رفضاً قاطعاً تداول الشيك، في زمن البطاقة المصرفية، استخرج ايريك لي بطاقة رقاء، براءة تحمل اسمي بحروف مذهبة، لم أكل عن النظر إليها. قيل لي بأنني، بهذا المفتاح السحري، لن أكون أبداً في ضائقة يمكن استخدامها في كل مكان، لدفع ثمن المشتريات، وأبما رفضت البطاقة، هناك أجهزة صرف آليته تحول البلاستيك إلى نقود، إنه حلم خيميائي حقيقي. يجمع الناس الأحرار، من حولي، هذه البطاقات بخيلاء ظاهر... حتى المحافظ قلدت الآخرين، تاركة الجزء الجميل منها لبطاقات الائتمان عالياً ما تحتوي المحافظ البطاقات ذات المصراع الواحد ثمان أو عشر بطاقات منها. كانت علامة النجاح، في ما مضى، هي ترك حزم الأوراق المالية تظهر للعيان، أما اليوم، فأفضل علامة لنجاح المرء هي التره وقد عُجّت محفظته بكل ألوان القومس فزح يوجد منها ما يناسب كل الأذواق. وكل الصُور، الأمر الجوهرى هو رصتها بما يكفي للشعور بوجودها. لأن العالم كما وجدته لا يعترف بانبثاته سوى من خلال شبكة عملاقة، كل شيء فيها وقف على بطاقة الائتمان.

في الفترات الأولى، طُلت بطاقي الرقاء في قاع محطتي، لا تحدي نفعاً سوى في تعذية حوفي من أن تُسرق هذا الشيء الذي يُعترض به أن يسهل الحياة، لم يتوان عن الفساد حيلاني، مضيفاً مما إضافياً إلى همومي، كنت بغنى عنه.

— وإن سُرقَت متي؟

— لن تُسرق منك، أجباني ايريك. في أسوأ الحالات، ومخاطرة هاتفية، تقدّمين إبلاغاً.

إبلاغ؟ لن أتصور، في أحلامي الأكثر طيشاً، أن أصابق المصرفي في عمله لأصرح له بشفقة عن فقدان بطاقي الرقاء بالتاكيد، سيستجوبني، ويكرهني، وربما سيوقع عليّ عرامة كنت أجمل ذلك العبد كما تحمل صبية مفتاح البيت حول رقبتها أشياء كثيرة تقوم على شيء صغير جداً، فلمجرد فكرة فقدانه، يكون غارها فظيلاً.

لحسن الحظ — إن تجرأت على قول ذلك — أن بطاقة الائتمان، بخلاف المفتاح حول الرقعة، محمية برمز من أربعة أرقام سحرية لا يمكن للمرء من دون الأرقام أن يفعل بها أي شيء، على الأقل هذا ما أظنه. وقد نصحت بالخارج أن أحفظها عن ظهر قلب، ولكن ماذا لو نسيتها؟ ثلاث محاولات عقيمة وتُفعل البطاقة — لا تسألوني بأية معجزة —، وتصح غير قابلة للاستخدام.

ماذا يحدث في هذه الحالة؟ لا أريد حتى أن أعرف ذلك. على الأرجح يستمر المصرف، وقد يستدعي التّجار الشرط.

بطاقة بلا رمي هي بطاقة مسروقة وهكذا احتلت أربعة أرقام حياتي. وشملت كل مكان، مستدكرة ذاكرتي القوة قدر الإمكان. سخلتها على ظهر مفكرتي الصغيرة، على ورقة مطوية أربع طويات في قاع محفظتي، على دفتر مذكرات في البيت، على لاصقة خلف الرزاد، وحتى على تخويف معصمي، بقلم من حبر سائل (فوتر). لفرط ما ردّدتها، أذكرها كما لو أنها تاريخ ميلادي. ولكن من يدري، ربما أنسى صدفه، وهكذا يمكن تجنب الكارثة

— من الهزّ أن تتحوّل مع الزمن، قبل لي في النهاية ففي حالة السرقة، سيال الشخص كل ما يلزمه، ويمكنه أن يفرغ حسابك.

لأمد طويل، تحببت استخدام أجهزة الصرف الآلية. كان تنظيم مشترياتي، وطعامي، وكسائي، وتبصتي بواسطة قطعة البلاستيك تلك يصبح بالنسبة لي أمراً يمكن احتماله بل ومألوفاً. ولكن سحب السيولة القديمة من آلة وسط الشارع كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان الإحساس المرعج بالتخطيط لسطو يتأبى في كل مرة كنت أقياً فيها لاستخدام الصراف الآلي، وكنت أعود واهنة العزم، ممسكةً ببطاقتي كمن يصوب سلاحه ويحول بلا كليل من حول مصرف دون أن يتجرأ على دخوله. تتأثر في باريس أجهزة صرف آلية كثيرة، مثل CCF, CIC. كريدتي ليونيه، الشركة العامة BNP تلزمك باختلاس المال منها. تميزّ كلها بلوحات مضنية، ويد تمدّ بطاقة. إنها دعوة إلى الفجور. تشكّل هذه اللوحات جزءاً من المشهد.

بمن طريقة «مواقف الحمايات» الجديدة المرفقة

En3aM

www.rzwity.com

بالإعلانات التي حلت محل أعمدة موريس

ولما كان المرء لا يفلت من قدره، وحدث نفسي دس ساحج جميل في طابور الانتظار أمام صراف للشركة العامة، في مكان من أطراف محطة ليون لم يكن من الممكن تفاديه، كنت حاجة إلى ما يكفل لي الاستمرار، ولم يكن لدي لا الوقت ولا الإمكانية للمرور بالبيت، ولا كذلك بالمصرف على معدة صعبة أمتار، كان صرافاً بالأسود والأحمر ييسط يديه لي، وانتهى بي الأمر أن استسلم له، ولكن ليس بلا عاء .. لمؤتي، ودلائل، مررت أمام الآلة، أرمقها بطرف عيني بارتباك نهيت إلى الاقتاب منها. بالخراف، لألفها كما لأعتاد على الفكرة في خوف معدني، كان يوند ذلك الإحساس الذي اميره بين جميع الأساس: الخوف، القلق، مريح من المشاعر لا يحمل، حقاً، اسماً إذا كان لا بد من تسميته، فسأدعو تنادر العالم الحر.

الآن. في الطابور الذي تشكل أمام الكوة الآلية، أنتظر دوري. وتدأعت كل أفكار العالم في رأسي هل سأحس التعامل مع سير الآلة؟ لا شيء مؤكّد. هل ستعرف إلى بطاقة، مثلما يتعرف صبور مقهى لو فلور على أيادي الريان؟ ألسن يُطلب مني رمز غير رمزي ورقم حساب والضمان الإصافي لمؤتي. ورقمي في الضمان الاجتماعي؟ الأسوأ هو أن الطابور قد طال من خلفي الآن. كانت امرأة وخلعها عامل باللباس

نظر ذات اليسار وذات اليمين، مذهولة بفكرة أن يستطيع أي شخص أن ينقص علي ويتزح في بضرة واحدة كل ثروتي. سمعتُ إلى الورداء: ربما لهذا رفضت المرأة التي كانت تلمياني أن تاحد مكاني. ولكنني لم تتحرك قيد أنملة فحسنتُ حقيقتها ياتقان فسدستُ بطاقتي في الصدع، ولكن حينما شعرتُ بها خطفت، سيئتُ بها، رافضة تركها قمصي. عجباً! كان يهتجُ لأن يتبعها وماداً لو رفض أن يعيدها إلي بعد ذلك؟ وماداً لو احتضنتُ إلى الأبد دون أن تترك أنثراً؟ الأمر الأسوأ هو أن تلفظ من الآلة بعد ذلك بساعات، وأن يستولي عليها أي كان ويغير على خدائتي على نفقة الغير.

للحطبات، قاومتُ ثم الصراف الآلي، قبل أن أترع منه بطاقتي. تنفستُ، وعدتُ إلى رشدي. القليل الذي أعطيته إياه لم يكف ليحديد هويتي. استمرتُ المشاة في عرص «أهلاً وسهلاً بك» واسمعي العامل تأفقه وسخطه من حديد سبيعي إذا أن أدع ثروتي الأعلى تنهب إلى أعماق هذه الآلة التي تبدو أحشأها للعين... للمرة الثانية، قمتُ بطاقتي باتجاه مبلع الصراف الآلي، الذي شغلها دون أن يستعيد أنفاسه. رغمًا عني، وكعاشقين افتراقاً قسراً على رصيف محطة، أرحيتُ قصتي وتركنتُ بطاقتي تعيش حياتها سمع صوت آلي، وبعض الصغير، ثم تغير لون الشاشة.

«تفضل واكتب رمزك السري.» أكتب رمزي السري، هنا؟ وسط الشارع؟ من جديد التفتُ إلى الورداء.

- هل ستقضين الليلة هنا؟ توجه إلي بجفاء الرجل ذو بزة

الأررق الخاص بالعمل يتطارد دورهما يتدمر. وقد بدا عليهما علامات التوتر العصبي، لأن الشخص الذي يستخدم الصراف لا يستعجل الأمر الذي أصبح، في سوات التطور هذه، أكثر قاتلاً. تنفس العامل ماضياً، وطرقت المرأة إلى ساعتها. راودت ذهني فكرة أن أهرب، ولكنني أدركتُ بأنه لن يكون الحال في مكان آخر مختلفاً. فالوقت منتصف الظهيرة وباريس تعج بالناس لن أعثر في حي مردهم لهذه الدرجة على آلة تركها كل الناس نحت سيممكي أن أطلق دون تحفظ في إجراء الاستكشاف حيث سيممكي أن اطلق العامل لمضي، دون تحفظ، في إجراء أبحاث الاكتشاف.

جاء دوري. تجرأت بالكاد أن أنظر خلقي: زاد شخص آخر على الطاور. وإذا لم أعد أحتمل، التفتُ نحو المرأة التي تلمياني.

- أتريدن المرور ربما، يا سيدتي؟
En3aM
www.rzwity.com
- كلاً من فضلك، أنتِ كتبتِ هنا قبلي.

تتمتعتُ بكلمات شكر لم تصل، قبل أن أستدير نحو الوحش. أعلنت لي شاشة ملونة بتهكم

«أهلاً وسهلاً بك» وكذلك «تفضل بإدخال بطاقتك» إن حدثت وعجرت عن معرفة التعامل مع الآلة، سيتقلدني رسم صغير، يمثل يدي وبطاقتي وماخذ البطاقة، وحتى الحانة الرقمية في الأعلى قائماً.

بهدوء، أخرجتُ بطاقتي مثلما طالب الصراف الآلي، وأنا

العمل الرقائي، مسروراً للغاية بملاقة نظري.

عممعت بكلمات وكانني أبرز موقفني. تلوت وحولت أن أشيح بوجهي عنه وطرقت أرقامي الأربعة باضطراب. حتى أن الجهاز كافاني بعبارة « ورم غير صحيح، كرز من فصيت » جددت وعشة عظامي، بحيث استحالت الأرقام التي طرقتها انجماً صغيرة. عدمت الوسيلة لمعرفة ما إذا أخطأت وأما في دروة الذعر، أعلت الشاشة محاولة ثانية. محاولة ثانية. الآن؟ أعلم بأن في المحاولة الثالثة، ساكون مفلسة، وبطاقتي معي

تحققت من الأرقام الأربعة المخفية في قعر محفظتي بالقاء نظرة عليها لم تتغير، لا يتغير الشيء، فسراً، في دقيقة حينما يكون رقماً. لحسن الحظ، نجحت المحاولة الثانية بفضل عيون الآلة، التي كافاني بشاشة جديدة 200، 400، 600، 800، غير ذلك. كيف يمكنني الحصول على 200 فرنك؟ حاولت أن أضرب الرقم 200 على ملابس الآلة، ولكن لم يسفر عن ذلك شيء. صغفت، يانسة، على أحد الأسهم المحيطة بالشاشة. متسبية بعبارة « تفضل بالانتظار » الشؤومة. نسأل مصرفك، أعلت الآلة، وتوقف قلبي. لماذا يسألون مصرفي؟ ليس هناك ما يؤخذ علي

« تفضل واسترد بطاقتك ». استوليت على ثروتي كطير خارج، وأخيمتها بعراء في قعر جيبي. لقد مر الأصعب. سمعت صحيحاً معدنياً جديداً، ارتفع مصراع، وانزلت تحوي أوراقاً مالية جديدة جداً لدرجة تثير الشك في أن تكون مزورة. 200

فرنك، مرة، مرتان، ثلاث 600 فرنك! مدعورة، بطسرن بي أوقامي، حبستها، وحبتها من جديد. لقد أخطأت الآلة، لب وثقة من ذلك، وأعطيت أموال شخص آخر. كدت أن أزعج الورقين الزائدين على الشخصين الذين كانا ينتظران، فربس أن هذا المال هو لهما.

في أول غرفة هاتف صادفها، اتصلت بإيريك لروني معامري المرحمة، لأجرحه أن يتصل بالمصرف، ليلعلم بأن ورقتين من فئة مائتي فرنك، سُحبتا من حساب غير رسمي. اسحبنا تلقائياً. أنا مستعدة لإعادتهما، في الحال إن لم أتمكن. لو أن هذا الصراف اللعين كان يرضى بأن يعمل بمهكر، ويتسلع الأوراق المالية مثلما يزدرد بطاقات الائتمان

- لا تشغلي بالك. أجبني رجل حياتي، مطمئن. قد أنك قد ضغطت على الزر غير المناسب ..

على ما يبدو. أن لكوات الآلية لا تخطئ أبداً، واضور لا فلور منع الماء عن روج من عشرة من الأبدان. نساً ضغطت حقاً على الزر الخاطئ، واخترت السهم الخمر. نساً انقلت المبالغ. في كل الأحوال، هذه الموزعات الآلية أراق المالية، هذه الوحوش الباصقة للأموال التي تحل محل بورقي الكوات ليل غمار، لن تعطيك أموال الآخرين. مطلقاً سلك الاطمئنان الدمص، سأنتظر بعد ذلك على الأقل خمس سنين يوماً والخوف من مخالفة القانون ينهش أعماقي، حرس من كشف حسابي، الذي ذكر بوصوح سحب ستمائة فرنك في نفس ذلك التاريخ الذي واجهت فيه واحداً من أشباه

هذا، لا يمكنني العزم على قبول مبدأ الانتماء تربتي
وقيمي والغياب الطويل الذي حذف مني أشياء من العالم، كل
هذا يجتني على رفض الميل المعتم إلى بقاء أموال لا وجود لها
حيث نفسي لزمن طويل مرغمة لتلا أكمل نفسي طواعيد
بقلائق الانتماء ومهمه، يُغرّونا بالكثير من الأشياء، بالكثير
من الكنوز التي معمر أحلام أولئك المستعدين لأن يتكفلوا
لعشرة أعوام، لعشرين عاماً، بحكم بلا استئناف في سيل سياره
جديدة عادية. ماذا لديها أكثر من غيرها، هذه السيارة التي
تدفعهم إلى اقراض بنسبة مئوية تُدعى تفضيلية؟ مقاعد من
الجلد، وهواء مكيف، ولون زاه، وإطارات من الألمنيوم
للعجلات؟ يا للمهزلة! لو أن الأمر لم يكن يتعلق سوى بي، لكنا
عشنا عشرين عاماً بنفس سيارة بحر العتيقة، ولكان كل سنتيم
مقتصد من سيارة مرسيدس سيضعهم حساباً بمحمد، لفصول
الشتاء العvisية.

ليس لحالي كمتكشفة في عالم مجهول الكثير من
القوائد، اللهم سوى هذه: لن تكون حاجاتي أبداً نفس حاجات
الأحرار. أنا أيضاً، كنت شابة، طائشة، صحية الدرجة
(الموضة) والدعوات إلى الاستهلاك اليوم أعرف أموراً قضى
البعض أحياناً حياة كاملة كي يفهموها. جوعي لم يُسهّد بعد

لابد من القول بأنني، منذ عودتي إلى الحياة، مذهولة بالحيز
الذي يشغله الآن الإعلان في دنيا أمثالي. قبل سوات، كان
يجري الحب على الاستهلاك، ولكن عد، عن أن المسج قد
قرص ذكرياتي، لا شيء كان يضاهي الصخب العشوائي

إعلانات اليوم. جدران المدينة مغطاة بإعلانات تبسط عليها
البس والبسة وعطور. التلغاز عبارة عن أسهم نارية للإعلانات،
لحرقها أصبحت بلدوار: قبل الأفلام، وبعد الأفلام، وخلال
الأفلام. بين الأخبار والبشرة الحوية، يندس متجر كبير أو محل
سكّارات. العديد من البرامج «قُذفت لكم» من قبل معلن
في مجلات، كل صفحة من أصل اثنين تغري الباس الأحرار
نحاسن ومنافع ما لا يملكونه. فتيات رشقات في الخامسة
عشرة تجسم حال من العيوب يمتدّان مزاياس مرهم مضاد
للتجاعيد. صورٌ تُبجّرة مرجانية مياهاها لفروزية تسير تممرات
المرق، مدهوغة به «عرضي خاص» يثير الأحلام.

رحلات طيران بأسعار مخفضة إلى آخر الدنيا، حواسيب
مكتبية، ستريوهات، دراجات رياضية، هاك من العروض ما
يناسب كل الأحلام وكل الأعمار. حتى المستين الذين يُسمّون
العجائز لأنهم لم تعد الأشياء تُسمّى بأسمائها الآن، هؤلاء المستين
الذين من المقترص أنهم قد بلغوا حالة الرزانة والحكمة يجسري
إغراءهم واجتذابهم بفضل كراس بمسندين للجلوس وحيدين
بلاهة أمام التلفاز، أو بأثاث الحديقة، الذي سوف يربوونه
بعناية، تحسباً لليوم الذي قد يقرّر فيه الأطفال، الغائبين منذ
رمن طويل، رباؤهم الأسوأ من هذا، يُباع لهم مآثم وصكوك
تأمين على الحياة وأمكة في المقابر، تحبباً لأن يرعجوا الآخرين
حينما تأتي ساعة إقلاعهم الأبدي عن الاستهلاك.

البؤس

أبهر صديقي، ومع ذلك فهو ليس صديق أحد. لأننا نمر
من أمامه دون أن نراه، إنه جزء من المشهد، كاعمدة الإشارة
أو الحاوية في ركن من الركن. لم يُعد يُقال متشرد - بطلت
العبارة في أثناء غيابي - وإنما « بلا مسكن ثابت ». وخاصة
SDI، كسبا للوقت. ومع ذلك فهو لديه مسكن، يكاد يكون
ثابتا. بسقوط الليل. في زاوية قصية، أسفل واجهة مخزن لبيع
الأحذية. تحت خفاف ثمنها مائتي يورو، يضع حوائجه البسيطة:
كيس نوم، وسادة مرتحلة مكونة من مترة ملفوفة اسطوانيا،
وكأس ماكدونالد مُلقى على الرصيف، إن حدث وحاول أحد
ما أن يتخلص من القطع النقدية الصغيرة التي تشبه جيوب
البرات الأليقة ينام أبهر هناك كل مساء، عدا ليالي الشتاء
الأكثر قسوة حيث كانت حافلات بضاء تحمل من لا مسكن
هم لتجيبهم الموت بردا. لمرة أو مرتين، اضطر إلى حزم متاعه،
مطرودا من قبل الجيران الذين كانت الرائحة ترعجهم. أو من
قبل مدير المخزن العائد لتدقيق حساباته. كما أنه هوجم، ذات
ليلة صيفية، من قبل مجموعة من الشبان الذين أوسعوه صرنا
اعتباطيا، بسبب الرياضة.

أبهر صديقي، وليس هذا على سبيل الكلام فحسب.
وإذا كنت أفسد بإملاء طامه بين الفترة وأخرى، فما كان
يدفعني إلى ذلك الشفقة. هذا خطأ. فبخلاف الناس الأحرار،
أشعر بنفسي على ما يرام صحة المتسولين أفضل حتى ممن
صحة الذين يملكون المنازل الذين يوقطون بالضرورة أحراري

كأكياس القمامة، لعرض وحيد هو أن يخيروا، أما أيضاً أدركت ذلك، هذا السعي الخيبي إلى العيش حق اليوم التالي، دون أن أعرف حقاً لماذا، هل غريزة البقاء، أم هي الأمل، وقوة العادة؟ أجهل ما يدفع اليانسين إلى التمسك بالبقاء إلى أقصى حد.

كل يوم، تتلاشى نقودي مدراراً في الترو، تلتقيها كل ذراع العالم السفلي مشردون، متسولون، موسيقيون، بانعو الصحف أو الحلوى... يمزون خلصة في حياة أولئك الذين يسبلون عيونهم لدى اقترابهم، يتابعون بلا كلل كأنهم يعدون الركاب، منتقلين من مترو إلى آخر. طفل جائع، سقط من أجل الليل، ما يكفي لوجة ساخنة، بعض القروش لدفع الإيجار. هو هو الصادق بهم؟ لا بهم إن كان الكل صادقاً أو لا شيء من ذلك، فانا أشعر بعورهم فطرياً في انتظار من يتيهم، يتحولون في المقطورات، وهم يمدون يدهم في الممرات أو على السلاط، تحت الشمس الحارقة، تعمقت لازمهم في السلوك إلى حد لم تعد تثير اهتمام أحد إلا نادراً لحظة خطاهم، تتشج الوجوه خيفة، وتقطب الحواجب، تشتت العيون إلى الجلات أو كتب الجيب. لقد أصبحت قدرة البشر الأحرار على عص النظر عن بؤس الآخرين فطرة ثابتة إنهم ببساطة يعلقون على أنفسهم. وأنا أراهم عارفين في قراءتهم أو في التأمل في أحذيتهم، تراودى شكوك بشأن الصدقة التي يعلقونها ثانية عند الزووم. هل يتصنعون اللامبالاة ليسوا بأنهم قد ينضمون، ذات يوم، إلى البر في عائله الرتيب؟ ربما يحافظون على كمال محفظتهم فقط، فلكثرة ما يتحفظ المرء من قطعه

وفلاقي أما الذين لا مأوى لهم، فلا يعيشون ولا يجدعون بأنهم لا يتغيرون، وأجد نفسي في طريقتهم الساذجة واليائسة في التوخر من العالم، كم من الوقت أمضيت مع البر وأقرانه في الحديث بتواتر عن كل شيء وعن أفقه شيء، عس العالم وشقائه؟

En3aM
www.rgwtity.com

لم أعد أدري، ولكن يبدو لي أنني كرتت لهم من الوقت أكثر مما كرتته لأصدقائي لا تؤثر مفاتيح الإعلانات عليهم، كما علي؛ إذ كيف يمكن الانسياق للاستيهام على الموقع الجديد، عندما ينام المرء خاوي البطن؟

لأبهر أربعون عاماً واطش فوضوي قاده إلى أسفل عمارتي. أحياناً، يروي في سنوات تشرده. وأحياناً أخرى، يتدفق بوحاً، يتكلم عن أيامه التي لا تنتهي، وعن الطاس الذي يصعب من أن يثلى. ويهتم بي، بلا غلق، بلا مجاملات الناس الأحرار الذين يبدلون الكثير من الجهد للإثبات أهميتهم للآخرين إلى حد أنهم يسهون بذلك عن الإصغاء إليك لا أحب أن أدرس نقوداً للبر، فالاستجداء يصايفني والعريب، بينما هو يبعث عن الاعتقاد بأن التسول ينجل ويستحي، كنت أنا من أتصابق لفكرة رؤيته يمد يده للآخرين. بين الحين والآخر، كنت أحاول أن أعطيه القليل من المال دون أن يعهم من ذلك أنه صدقة. أو، أوفر له فيلاً لما يهتم، قليلاً من الطعام، قارورة، وجريدة.

فليأكلوا، ويشربوا، ويدخنوا، ويحششوا، فإن السبر وأقرانه يعيشون على هامش عالم البشر، مرميين على الأرصفة

النقدية الصغيرة، يجد نفسه مرعاً على صرف ورقة نقدية، حينما يقرر شرب فنجان من القهوة.

من جهتي، أعطي بلا تمييز (غالباً خطأ)، إذا صدقت أقوال أصدقائي، الذين يعلون لي بأن ما فيا حقيقة للتسوّل تعيشُ فسداً في باريس)، بعض القطع النقدية الزهيدة والتي قنصا أشهر، بخلاف أغلب الناس، بأن قطعتين أو ثلاث قطع مرمية في قبة تنقلهم من مشكلاتهم مع عذاب الضمير.

بتأثير ألبير وآخريين، شعرت بأنني أعود نافعة، وأنتهي أنسى غصاي النفسي لأمدّ يدي إلى أولاء الذين ينامون تحت المطر. وهكذا، وبكل براءة وسداحة، اتجهت طوعاً إلى خدمة مجانية في مؤسسة SAMU، الاجتماعية. ربما لأمدّ لكل واحد أن يجد هناك هدوء وتوارده. وقد لا تكون الوسيلة الفعّالة لراحة الضمير سلسلة من الجلوسات الاستيطانية التي تستغرق الواحدة منها نصف ساعة لقاء مائي يوروي. بقوة هذه القناعة الجديدة، رحّت أبدل مساندتي للمفوطن من المجتمع. ولكن شتان بين الأفكار العظيمة والواقع. ذات ليلة، سارت بباريس غير متطوّرة، شرسمة، طافحة بالفور والأوباش تحت أبصار. من خلال الزجّاج المعتم لوافد حافلة SAMU، ارتفعت أنوار المدينة كتجمعات خافتة... ووددت أن أعود إلى بيتي. راحت قراراتي الكبرى. وهمني حديقة العهد، وورعي هاء انطويست على نفسي، مذهولة بالكثير من الحزن. شعرت بنفسي أضعف بكثير من أن أحتمل المزيد، ونقضت وعدي. بعد ليلة حزينة من الخدمة، وما يكفي لتغذية كوابيسي للسنوات القادمة.

- هذا لا يهم، قالت لي مسئولة الوحدة، معظم الناس لا يقاومون الصدمة.

شئ علي أن أقول لها بأن قلبي يتقبض، وأنّ تجني يتقل علي الأسوأ هو أنني أعلت بصوت عال وفوري لم كان يريد الإصغاء إلي بأنني كنت أفتحم ميدان العمل الإنساني، عابئة حتى على الأكثر فوراً، لعدم بدل أي جهد لتحقيق عن التعساء كمفتي ليلة واحدة لأدرك بأنني لم أكن أملك رباطة الحاش والجلد الكافين لأواجه صيفاً آخر غير صقي لعدة أيام، قمت بدورة طويلة لأتجنب واحده تاجر الأحذية لمجرد فكرة الطر إلى صديقي ألبير، الأخ في المصية لذلك الرجل الذي شاهدته يموت على رصيف، بسبب ليلة صيفية طويلة جداً.

En3aM

www.newwilly.com

في عظة سان لارار، يُدعي البؤس وحها جديداً، إذ تمثّل في ذلك اليوم، اتخذ في قسّات وجه سيّدة عجور، وتصدع بطاء إلى الرصيف. غر حقية ثقيلة وقفةً وعصا، وكان مس الواضح أن لا أحد ينتظرها لحظة وصولها. حداتها مهترئ، وحقيقتها رثة، وثيابها رمادية وبالية على صورة السنوات التي تنقل كاهنها، شاهداً تقدّم، شبحاً بانساً محيياً في المذ الشري البارل من القطار. أهي عائدة من رحلة أم أنّها، كغيرها، تقسم في ركب معتم من الخطة لا شيء يتيح تأكيد أي احتمال كاد المسافرون يظروها أرضاً، وهم يتجاورونها من اليسار ومن اليمين، ويصدون عصاها لدى مرورهم بها. سعون عاماً في وادي الدموع هذا انتهت وحيدة، متشبّعة بامتعتها...

العالم الذي آتيت منه بعيد عن أن يكون مثاليّاً، ولكنه

علمني احترام العجائز، ونقل المعرفة والتقاليد، ومعنى العائلة
لدي ذكرى سهرة حيث كانت ساء يجمن على جباههن
نخاعيد وقوزة يترنغن صدارة الخبس، وهن يروين قصصاً لم أكن
أستسيها في المجتمعات الشرفية، لا يمتنى أي كان الموت قبل
أن تدركه الشيخوخة...

من جديد، أشاح البشر الأحرار بنظرهم. يوماً بعد آخر،
تزداد دهشتي لقدركم على إشاحة وجوههم عن بؤس
الآخرين، وقد تفسر ذلك العناوين البارزة للصحف، التي
يصعب علي أحياناً تصديقها يبدو لي أن عادة الرعة الفردانية
بلغت خلال عشرين عاماً ذروتها.

مشاهدة تلك العجوز التي تسير وحيدة إلى مصير يخبئ
عنه المارة، تدلهني المفارقة اليوم على نحو خاص. قد قوت على
هذا الرصيف دون أن يقترب أحد منها. في أحسن الأحوال،
قد يستدعي شخص ما رجال الإطفاء أو رئيس المخططة أهو
الحجل أكثر منه اللامبالاة ما يدفعهم إلى الإشاحة بصرهم، إلى
الاستعراق في أحاديثهم، إلى حب خطاهم؟ كم سيكون بسيطاً
الأخذ بذراع هذه السيدة العجوز، ومباذرها بالتمساة،
ومساعدتها في حمل أمتعتها. شاهدت لامبالاة الآخرين،
فأسلت ذراعي غائباً اخشد على ما لم أفعله أنا نفسي
ولكنني لست بين الخشد لا أزال لا أشكل جزءاً من عالمهم
الشيخ. الشاهد الشفاف، وهو من يحكم أبحث عن قوى لأجل
العمل دون أن أعثر عليها. إذا كان علي أن أستقي واحدة
منها، فهي قوة التألم، قوة الرف من الداخل.

سوف لن يمكنك قط إيواء كل الكلاب الضالة، قبل

أعرف ذلك، لدي من الموم ما يكفي لتلا انشغل بموم
لآخرين. ولكن هذا أقوى مني: الضيق يستجوبي. بل ربما
ويجديني.

الشبهة

أنا قادمة من عالم لكل كسرة خبز فيه قيمة، طيلة سنوات، للملئ الكثير من تلك الكسرات وحفظتها بحيث لم يذهبها في صف متواصل لرسمت خطاً بطول طريقي من هنا حتى المغرب. في حكايات طفولتي، كان بيتي بوسيه petit pouce يستعص عنها بالخصى ليهدي بها إلى سبل منزله، أما من جهتي، فساكون قد أعطيت كل شيء كي لا يُعثر عليّ أبداً، كي أترك خفي البيت الذي كان عول مُتَوَحِّ قد فرشه بالألم والمعاناة.

لا قيمة للفتات عند الإنسان الحرّ، ولا حق للخبز الذي تمنح عه هذه الفتات. فهو يُقَطَّع على عجل وبلا عناية، وتُرمى قطع منه في سلة وإذ به يذهب لتربين المائدة في أحسن الحالات، سيُغمس في طبق فارغ أو سيُقسم، مسقياً بالخرذل، في انتظار وصول الطعام « الحقيقي » الخبز هنا لتسلية، لأن الجلوس إلى المائدة يكاد أن يكون لعبة. لعبة لها قوانينها وأنظمتها ومجاملاتها البسيطة وسلال حبرها التي ستُفرغ في حاويات صحمة حاملاً تنهي الوجبة، مثلما تُفرغ منقصة سجانو.

لقد عانيتُ الكثير لأتعرّف على المخازن وعلى مصاطبها لعرض البضائع والتي تطول لكيلومترات، وعلى مائة صف من الأربعة الطويلة لحزها، بحيث بدا لي العالم معمر عن الإصلاح بحمة جديدة، لا مناص منها طالما أن المائدة هي محور العالم الحرّ

En3aM

www.rzwity.com

كل شيء يتر من حلاها، الصدقة، الحب، الأعمال، العائلة، فتناول الطعام هو جواز مرور لكل شيء.

En3aM
www.rzwily.com

- سنتناول الغداء حينما تشائين، يا عزيزتي.

تناول الغداء. أي أن يجد المرء نفسه في مطعم، وسط حشد جاء هو الآخر من أجل الكلام أو التفاوض أو التخطيط أو الإغراء، أو رؤية الذات في فراع العيون، أو توقيع عقيد أو الاتفاق على أمر.

من يهتم بطبقه؟ الشبهون، الدواقون، لا طائل من المباحة. أولئك الفخوريين يدفع سعر مرتفع جداً لقاء تشكيلة صغيرة « من الفصائل الكمالية تسقط على المائدة في زحافات يصعب على المرء أن يميز فيها بين ما هو للأكل وما هو لتزيين المائدة هما حرر مقطع على شكل دائرة الرياح من قبل فنان حايقي هناك، كمية من الصلصة ممتدة للاستفهام، دقيقة للغاية بحيث يُعتقد أنها مسوحة بعناية من قبل معلم ياباني. ما الداعي للحضار الدقيقة المعدة على شكل عجمة أو الورقة المؤبدة التي تزين كل شيء؟ الأمر عصي على القول وإد تدبي الحيرة، ساعد الكلب في راوية من الطبق لأن « المطبخ الكبير الجديد » يدعي أكثر حيرة من المطبخ الصغير.

الطعام في "المطبخ الكبير" فحري وشرفي، ولكنه مشير لسمحية أيضاً. وإذا كان، في خسارة الراوية، هو دريعة للإصراف إلى الثثرة، فإنه، في المطاعم الكبيرة، يتيح للأكثر ثراء أن يخلدوا إلى مراسم هيبية حقيقية. انظر إليهم يتحدون

أوضاع متكئة، ويستغرقون في قائمة الطعام بجينة شاعر مائل « مقارص الريراك البرية (أو الموحشة)، عصير الكركند المصنوع بالجليون الأخضر، وتفاحقا الصغيرة الجليدة من ريلدة بقشرة ملحية » يجب انتظار مدير الصالة ليأتي ويجب ي طبقى باحترام وتقدير كما لو كان يحمل طفل الله وهو يحن: « ثلاث فطائر صغيرة من الزيز البحري مع قليل من الصلصة والبطاطا ».

بلقمة واحدة، سيتلاشى هذا الزيز البحري. وسُضاف إليه الطبق الأول والخبز والخلوى والحمر والقهوة وأخاصم. لتبرير فاتورة حساب فلكية، مائة وهجسون يورو للشخص الواحد، وربما أكثر (لم أر الأسعار سوى نظرف عبي- إذا لا يُعطى للنساء سوى قائمة طعام بلا أسعار) عماداً يقتات فوخ من هؤلاء SDF (من لا ماوى لهم) الذين يامون على بعد مائة متر من هنا، والذين سيقنعون بطعام بلا مواصفات، لا برقي، ولا جليله ولا صغير.

ولكن الأكثر غرابة يبقى هو الوجبة قبل الوجبة... أثناء الاختيار من القائمة (لابد من الاعتراف بأن رؤية الأسماء التي لا تنتهي لكل طبق، جعلتنا نقرأها بأسرع من قراءة الكتاب المقدس)، جلب لنا النادل صيبة من المسليات، مغطاة بقطع صغيرة من المعجنات والخلوى والقمم الصغيرة يوجد عليها كل ما يمكن تصوّره بل وأكثر، بنمادح مصفرة، كوجه عيد في بيت للدمى. سلك، لحم، كميكات فاكهة ملحة، قشدة، رغوة،

صلصة، خضار، قريدس، عجينة موزقة، عجينة مقطعة، عجينة بيترا. كل هذا على صينية من قشرة.

طيلة عشرين عاماً. أكلت لأبقى على قيد الحياة في سجننا. كانت الفترن والحردان تأكل حينما تجوع. ولكن ليس نحن لقد اعتدنا. بالقوة وما غدا نأكل لتستلي، أو لتبادس المرؤى حول العالم

En3aM
www.rewity.com

بلا حظورة، وبلا قلق بينما كان الناس الأحرار يسامون حول قطعة لحم من الصلح. كان لنا، عائلتي وأنا، الحق في لشر من الزيت شهرياً، وشعنة واحدة لكل شخص، والنفق عشر بصة لكل خمسة عشرة يوماً. اثنا عشر بيضة فاسدة متعفنة. شكلت لأمد طويل كتراً مطيحياً بالنسبة لي.

بالنسبة لم يصد البيض «الحوي» في عربة أو يطلب طبقاً من عجة البيض على رصف مقهى لا دور، يكون مبدأ التعفن سبباً تاماً. فبالنسبة لي، لا تكون بيضة فاسدة حينما تتجاوز رمزياً تاريخ صلاحيتها، بل حينما تظهر على قشرها، التي طالما عرفها الناس الأحرار بضاء أو شقراء، طبقة محصرة. طيلة عشرين عاماً، لم أعرف البيض إلا بهذا الشكل، كدت أن أنسى أنه كان فاتح اللون.. أخي الشاب، الذي كُسر في السجن، لم ير أبداً قبل إطلاق سراحه اللون الحقيقي لبيضة. لم يكن بيضا أصفر ولا أبيض، وإنما أسود كالخبر، كعقمة الحجر الذي كنا نتعش فيه

ولكوي مكلفة بإعداد الوليمة التي كانت نزيّن، كل

له عشر يوماً. مائدتنا المشتركة، كنت أكرس ليليا فشور نص المحصرة لأدع السائل الأسود يتزل في قصعة كاس مع من تلك العجة الكوبوسية رائحة تنفث تنشر شيئاً فسينا من الليل، مما يكفي ليصبح ذلك البيض، الذي لم يقطع أحد لكنه محفة أن يتسم بها، فبالاً للأكل. وهكذا نغطس قليل من الحمر المائت في الخليط، وبإضافة قبصة من الخليب المسحوق وقليل من السكر ومذقعة من حساء الزيت إليها، كنت أعد نوعاً من «الخلوى»، فطيرة ضخمة مشوهة كنا نسلط بها. كانت رائحة القلي التي نعلو الزناريس عيداً لنا، كانت تساوي في نظرها كل الزيران البحرية في الدنيا.

أما الخبز، فكنا نطلبه بدقة خلال جلسات تنظيف مطوالة حيث كنا نحاول تخليصه من طبقات العفونة ومن يعر الخرد أو الغار، حسب الأيام لأب كنا نخفي دحيرتنا من الخبز تحت بلاطة، بجأى عن حولات التفتيش اليومية، وبذلك يمكن تسمية الخبز التراي بالمخاض حيث كانت الحردان تأتي لتارعا عليه، ملونة إياه بوهلا، وقاصمة ما كان يوسعها. مثل البيض، كان أسوداً... إن الألوان الفاتحة مخصوص الغذاء هي، كما اعتقد، دليل على الحرية كانت كل قطعة، كل كسرة مه نغيسة لأتها كانت تريد ذخائرننا. كان ذلك مخزنا الكبير الخاص بنا، مطبخنا الكبير والصغير، حسب المقادير التي تنزود بها. اليوم أيضاً، وبعد مضي كل هذا الوقت، أعصب لرؤية أناس، محترطين في أحاديثهم، يصنعون تلقائياً كريات من لب الخبز تنتهي مرمية في المفضة. كم شخصاً مهم، ما أن يفرعون من لب أول قطعة خبز، يتناولون سواها دون التفكير في تحويلها كلها إلى فتات، دون وضع قطعة صغيرة منها في أفواههم؟

الظفرة المدعى ألقبها على كل واحد وعلى كل شيء لا يمكنها... الموضوع طاماً أن المقارنة ستجرى مع ما صبي أنا ولكني يشغل أغلبية حياتي وحياتي بـ هؤلاء الناس عموماً إلى متى سيعبر رد الفعل هذا صفاتي وحلمي؟ في البداية أمل الوصول إلى العالم الحر يستحور عليّ الآن في البحث عن المقر... والأمل.

المرأة التي «مقابلة» معي تلعب الأربعين من عمرها أو ربما أكثر. أمي أن تتكلم على المائدة لأنني كنت قد عانيت من الجوع «ثلاثين عاماً».

- سيكون لي على الغداء أكثر مصّة وألذّ، قالت لي عبر الهاتف، يومئذ التقينا أبداً من قبل.

ألذّ وأكثر ثمة قوية بعض الشيء، لأن الصحافي ما كادت تصل من أمام قائمة الطعام، وتسنّرت لأش بيتزا التونة ليستأثروا، وتقتت لو أنهم يستبدلون لها الفيليلة بالصبي لا تحب الفيليلة، على الأقل المشويده منها - لا بأس من هذا المملّحة؛ أرادت أن تعلم إن كنت أحبّ الفيليلة المخبّنة مستطمين ذلك مقالتيها. بلدت أفهم لماذا لم أقرأ جريدة.

مررت ما يقارب دقانق من التفاوض مع الدلة، التي لم تكن مثيقة من «سيكون عليها أن تسأل لطافى».

- في المرة التي تكس البيضة ناصجة عما فيه الكفاية،

صاحب الصحافية إن نوع الشيء هو ما يجعلك مربضة لها؛

أمل

لا تقلقي يا سيدي، سأبلغ هذا للمطبخ.

En3aM
www.rewity.com

أمل ذلك!

والآن تحددي شاهدة، وتردّد بأن بيضة مينة تنقل على المعدة، وطبعت موافقي ولما لم تلها، نقلت إلى أمر آخر. ثائرة لعب المنصصة، ولكون مياه يبريه فاترة وهذا ما لا يُعْتَمَر «يريد مكحات من النسخ» كلاً، لا تريدها، إنها تعطي طعماً غريباً.

- فلتحدث عث، قالت لي فحاة، برات عالم نفسي

تحدثنا عتي. بينما هي تشوّح البيتزا بتقرّر بعناية فائضة، فروت، وصعدت جانباً الخوف (السميكة جداً)، البيضة (الناضجة جداً، هذه المرة) حبات الزيتون (التي تسعقوا الرألة بوانها وقتاً طويلاً) وبعض حبات الفطر التي لم تكن تستيقظها. اعتذرت:

- لا أفهم، عادة ما تكون للذيلة جداً.

وافقتها على أمل أن تغير الموضوع. ولكن إذا كان الأمل يُحبي، فإنه غالباً لا يصعّ المعجزات.

- هذا مستحيل، لا بد أن صاحب المطعم في عظمة

لم أستطع مع نفسي من الظفر خلسة إلى طبقها، وري فيه الكويمات التي كانت تديرها في الطبق بشوكة وهي ساهية

— حلوى (كريم بروليه) عندهم رائعة.

لم آخذ تحلية. كما أنني لم أكن جائعة لدى وصولي، ولأنني لست بمن يمكنهم تناول الطعام دون جوع... فلا بد لي أن أحسن بتشتتات المعدة، وأشعر بالدوار والهبوط قبل أن أجلس إلى المائدة. لأن تناول الطعام، لابد لي من أن أكون في حالة حرمان منه، مثل مدمن. الشيء الوحيد الذي ينقص البشر الأحرار الذين أشكل جزءاً منهم الآن، هو بالصط الحرامان ولكنني كنت أنسى بأن ليس لديهم الوقت ليكونوا محرومين.

للمرة الأولى، أدركتُ أن حلة حكمي قد هدأت. ربّما أنا الآن على السكة الصحيحة.. ذات يوم، سأحيد فهمهم. بل وربّما أدافع عنهم ربّما. ذات يوم، سيليقي عليّ شيخ ذات النظرة التي ألقياها عليهم إنهما مسألة وقت. هذا مصححك، لحال المسائل دائماً إلى الوقت...

آنذاك، فكرتُ بروية، في طعم البيرة ذلك... وددتُ لو أجد كل شيء إلى البيت، ما لم أكله وما لن يأكله الآخرون. فالآخرين يبقى عندي فطرة ثانية كل تلك الصحون نصف الفارغة الحكومة بالرمي في الحاوية أيقظت في داخلي عريضة حيوانية. لقد أصبحتُ كالسنجاب، أكون، يوماً بعد يوم، متخبرات لهود الحرامان. والحال أن تلك العهود لن تأتي أبداً، على الأقل في الوسط الثري الذي أعيش فيه. وهكذا تسهي مخزباتي المخفية في زوايا الرّاد أو قاع الخزائن، عاجلاً أم آجلاً، إلى الحاوية. المواد المخفية، النصف قطعة من حلوى كيش، ما تبقى من سندويش، الحبز بالريبب المخدوش، بقايا العجين، كل

تلك التي ستذهب إلى حاوية القمامة، وتلك التي تعرف منها بين الغنية والأخرى لتتعدى، وثالثة قيد الفرر، التي تون الأنتس الآخرين للحنط، زاعت بأبصارها عتي لتحكم بالتشريح، فكل جزء مصيره الخاص. حبة زيتون؟ إلى الحاوية. عرق طويل من جنة موروريلاً؟ في الكومة «المخصصة للأكل» إنه أمر لا يُصدق ما يمكن للبشر الأحرار أن يفعلوه بطريق بسيط من البيرة...

أما طبقي من البيرة، فلم ألمسه أو أكاد، شعرتُ بأنني لست على ما يُرام، مركونة جنباً إلى جنب مع زبائن آخرين يتكلمون بصوت عالٍ ويضحكون ويشربون ويدخنون. قل الهواء من حولي ولم أستطع معي من التفكير بكل ذلك التذير، بكل ذلك الطعام الذي سيؤول إلى حاويات ضخمة للقمامة، بكل تلك الصحون الداهية إلى الفرز من قبل رباني يستيقظون هذا ويعفون عن ذلك، زبائن لا يعرفون معنى الجوع، فيجدون البيض غير ناضج.

دفعت الصحافية جانباً صحنها المليء ببقايا العملية المعروحة على البيرة، قبل أن تعلق بأنّها لا زالت جائعة وتشتهي «تحلية صغيرة».

— تمام؟ سألت النادلة.

— ممتاز، وذت الأخرى، التي تكلمت، في نصف ساعة، عن البيرة خاصتها أكثر مما تكلمت عن سجن.

ثم توجهت إلي:

ما حرته بعناية ولا يُسَمَح لأحد بحسه. هذه المؤن ملكي أنا ليس لأحد الحق لا في التصرف بها ولا في رميها، فهي محرقات مؤي حسناً للشاة

- أزوجك. ارم بقية البطاطا المقلية هذه، قال لي إيريك متوسلاً، إنها تعف إذا أعيد تسخينها

رفعت بشدة، وأنا أعلم مع ذلك بأن مصر البطاطا المقلية حاصتي محسوم. التخزين أقوى متي. بعد ذلك بضع سنوات. ساكتشف الولايات المتحدة، فردوس الساجد داك حيث يحض كُن شخص وهو يحمل الـ «doggy bag» حاصته حقبة قلنا تكون، رغم اسمها، محصنة لإطعام الكلاب.

في بيتي أيضاً، أعاني أمام صحي من نفس الحاجة لعدد إرواءة ثامناً، للإبقاء على شيء يسير سيريد مذخرا في لا أرمي شيئاً. فالرمي قمرق.

كل يوم، أرى مجموعات من المراهقين عند خروجهم من مطاعم الوجبات السريعة، وأدرعهم بحمّة باكياس ورقية مليئة إلى حوافها بكل شيء وبأني شيء. الملك الغالي، والثروك ماك. يأخذون منها أكثر مما يحتاجون، ويصفون بعض البوروات للحصول على رحيات «ماكسي» والكوكا بالحجم الكبير. والبطاطا المقلية المعوشة، والتشيزبرغر الإصالي. إما أن ينهوها أو لا يبالون بها أبداً، فظنراً للفرار الهيد في السعر. كثيراً ما يؤخذ كل ما هو بالحملة ويؤمى كل ما هو فائض. علاوة على ذلك، حينما نغتن المرأة شطيرة مجانية، يكون مبدأ العصور

الخدنية هو التالي. هذا عرض؟ سأحذه إذاً رغم احتمال رمة ورغم احتمال تعفوه. يشعرون بارتياح بالغ من رؤية أي شيء يندم لهم ثامناً، من ألا يضعوا أيديهم في محافظهم، لدرجة أنهم قد يقضون الموت على أن يرفضوا عرضاً. مع أن ذلك الموقف حيناً على القول، وقد قتته بنفسه: «كلاً شكراً، لست جائعة» يكفي لتناول التشيزبرغر الإصالي. «ولنظر إلي كحيوان فصولي.

En3aM

www.rgwlty.com - خذيه، إنه ضمن الوجبة على كل حال.

رايت وجبات هامبورغر بالكاد قُضِمت، مرمية في الحارات أمام مطاعم الوجبات السريعة، وشطائر لم يقطع منها سوى لقمة واحدة لتذوقها، قبل تركها هناك. والغريب في الأمر، أنه حتى (من لا مأوى لهم) SDF لا يقربوها. نظرت، حائرة، إلى الناس الذين يتصورون جوعاً ولكنهم يرفضون النقاط وجبة هامبورغر محلوشة، وكأنها تحمل كل فيروسات العالم في وقت ما. كانت هذه الشطيرة نفسها، مقبضومة أو غير مقبضومة، لتشكل بالنسبة لي وليمة حياة. حينما نعيش في تمكة التبذير، التي حتى يؤساءها يسمنون من الطعام. ولكنهم صحيح بأن من لا مأوى لهم يشربون النبيذ أكثر مما ياكلون. وذلك ليتخذوا، ليتدفوا، ليلفوا اللذة من الباب الضيق.

الحمار، سوف يقولون لي. إنها مهمة مستقلة تماماً، بالإضافة إلى أنها ليست في متناول الجميع.

آه حسن ..

إلى ذلك، أدركت سريعاً حقيقة أنّ SDF ليسوا
الوحيدين الذين يشربون، ففي المسرح الهائلي الكبير، يأخذ
الكحول الدور الأول على الدوام. أينا كانت المائدة، من مطعم
فطائر الخي وحتى لو غران فيفور، تناول الطعام يعني احتساء
المشروب. بين المشروب الفاتح للشهية، والبيز والبيرة
والهاصم، يُعْمَرُ أيُّ عذاء بالكحول وجبة بلا كحول تُعتبر
كثيرة، لم أفهم بعد عدا تكون وجبة مريوة أكثر هاء إلى هذا
الحدة، ولكن لو كنت قد فهمت ذلك، لما عدت سحبة مُطلّس
سراحتها بلا معالم ولا جملود.

النبيذ، على نحو خاص، يتركني في حيرة من أمري. فهو
يُراقب، ويُرتشف، ويُنظر إليه بشغافية، ويُعثر فيه على نكهة
هنا، وعلى نغمة هناك، يُعتقد بأنه يمتزج مع السمك، أو
مضحك مع الحلوى. يلزم قاموسٌ جلدولة أوصافه، وشهادته
بوليتيكيكي للفرع من دقائقه. ولأنّ كل إنسان حرّ لا يؤدّ
الاعتراف بجبهله، في أيّ مجال كان، يعطّ أحدهم نفسه في
الزجاجة ليبدلي بتعليقه القصير على البيذ. بشكل عام، يُسكب
القليل من البيذ في قعر الكأس قبل تقديمه للرجال لابتذ من
تحريك هذه القطرة في قعر الكأس لسبب أجبهه، وشمها بعمق،
ومن ثمّ احسانها، بتمزّر. واتخاذ هيئة وقورة وموحية ثم يأتي
التعليق، الذي يتطهر كل من على المائدة وأكاتها كلمة النبي
إله جيد. لم يفحّ بالرائحة بما فيه الكفاية له رائحة الكشمش
إله مجفّف. إنه لادع. إنه فاطر. إنه مختار. إنه أقلّ جودة من المرة
السابقة. وسوافق الأكثر رزانة بمزة من الرأس، وهو الرضا

الصامت الذي كان النادل ينتظره، مزروعاً وقارورة في صمت
ورع فيما يبدو لي. إن نتيجة طقوس الترحاب هذه هي دائماً
دها يُقدّم البيذ ويُشرب. لم أز قط قارورة تُرفص، ومع ذلك،
بقي ذلك الطقس متبعا.

ما أن تنتهي كلّ هذه الحركات الاستعراضية، يُردّد
المشروب النقيس دون أن يُعار أدنى اهتمام، جُرعة مع السلطة.
وأحرى أكرر مع لحم الفخذ، وفي كلّ مرة فرغ كاسي، يُملأ لي
دون أن أسأل إن كنت ظمّانة.

لا أهمية للظما والجوع. فالمرحح اليومي للمائدة يقتسم
ظهوراً ومساءً المسرحية دائماً، والتي يأخذ فيها دوراً أعقد بكثير
مما ينبغي. وإذا كان لابد من إسناد ذلك الدور لي، كنتُ
ساحيله دوراً بسيطاً، أن يأكل المرء حينما يجوع ويشرب حينما
يعطش. الأمران اللذان، على علاقتما، بدوا لي لزمانٍ طويلٍ
نميين.

ككلّ المقتطفين عن جلدورهم، انبهرتُ بجلود الآخرين،
إلى درجة أنني أحسد أحياناً الباريسيين الذي التقى بهم، والذين
أكرر مغامرة هم هي أن يغيروا الدائرة التي يقيمون فيها. لا
شك أنّ هذه الطقوس الموروثة من التقاليد تحري بسهولة
بالسمة هم. الخبز والبيذ، هم لدي فرنسا هذه التي يشقّ عليّ
كثيراً أن أجعل نفسي فيها...

المائدة الوحيدة التي استمتعتُ بها حقاً منذ إطلاق سراحني
(إذا أمكن إطلاق تسمية مائدة على حصيرة مفروشة مباشرة

على الأرض) هي في صحراء الأطلس. هناك في الصحراء،
يقاتن بدو ضنينون بالكلام في صمت على حفة من السبع
ويدو لي أنهم قد فهموا كل شيء بحس الحياة. أنا، ابنة العرب
وحفيدتهم أشعر بنفسى أكثر هواء وسعادة في الزهد في المأكس
من أن أكون في طقوس العربدة العشيّة.

أشعر وكاتب أيضاً بدوية مثل أهل الكلبان أوليت
فليعطوني قليلاً من الماء، ويضع حيات من السبع، وشيئا من
الرز أيام العيد؛ وسأكون أسعد امرأة في العالم.

الكتابة شهادة على حياة

الحياة. كنتُ مدينة بالنجاح. إنم عريب وحدها إمكانية أن
دي بشهادتي، أن أقول للعالم أجمع بأن المغرب لم يكر في
لعبة تلك الديمقراطية التي يساندها العرب، وخاصة فرنسا
لأنه أن تُكشف هذه المصحية المُقنعة بالملكية للجميع إذ يمكن
لرواية حقيقتنا، التي شاركت في الكشف الطيء عن مصر
السعاء السياسيين. أن تسعدني في المضي قدما بكتابتي
لرواية السحبة، التي لم يكن بوسعي تقييم مستوى نجاحها
بالتاكيد. كنتُ أعزم الماضي. كنتُ أنورز مه جزنيا، ولكسي
أبضاً كنتُ أعاني من عبء دور محمد: دور الضحية إذا شاء
المراء أن يرى الأمور بتأول أكثر. لا يزال صدى كلمات أوبرا
وبقراي يرن في أعماقي. « لقد ولدت لتكوني رسالة. » لقد
قصيت وقتاً طويلاً حتى أطلقت رسالة. وقد حرمني ذلك أحيانا
من أن أعيش حياتي. منذ أن حصلتُ على آدم، عرفتُ بأنني
تخلصتُ من أن أكون ضحية وتلى الماضي، وأصبح المستقبل
يعتني.

En3aM

www.rzwitly.com

الكتابة. لسنوات طويلة، كنتُ دون كتابة، لانعدام
الورق والقلم. حفرتُ كل كلمة في ذاكرتي، تحباً ليوم قد
ألدها فيه من جديد، بعيداً عن السجن. قطعاً. على ورق
حقيقي، وبقلم حقيقي. بحيث أعطي أخيراً حياة مادية للكاتب
المتزدة المتطيرة في داخلي نضج كل واحد منها بأناة، عسى

En3aM

www.rzwitly.com

مدى عشرين عاماً. فهمتُ منها الكثير، قصصاً، وأقاصيص وحكايات، ومراسلات، مقاطع من حياتي وحياة الآخرين تعلقتُ بكل واحدة من تلك القصص، بكل شخصية فيها، بكل لغزٍ يكتنفها، وبكل حادثة تنتهي بها.

كان من الطبيعي أن تكون من بين أولى المتصع السرى انسجمتُ معها، متعة ريادة معبدها المقدس: المكتبات وما أكثرها في باريس. ولكن، في العالم الحر، ها هي الكتب نفسها قد تغيرت.

دخلت صدفةً، مظاهرة باللامبالاة، إلى مكتبة ضخمه على الضفة اليسرى وطلبتُ كتاباً بترجمة مازحة. ماذا كنتُ أتوقع؟ ربما مكتبة أحلامي، محلّ جيل بألوان بضرة، ورفوف من حشب أصهب، ومكتبي بشوش، يكون قد قرأ إلى آخر سطر كل عمل يعرضه على رفوف المكتبة رجلٌ يشعر أشيب يكون قد عرفني، وربما سيكون قد علق بذكاء وكفاءة على مرأيا وعيوب شهادتي. لا أدري إن كان المكان موجوداً قبل ولادتي الجديدة، أم إنه ليس سوى ثمرة خيال ممسوس بالمقدس يبقى أنه لا بد من البحث جيداً على الطاولات المكتني المسالي موجود، ولكن لديه الكثير مما ينبغي فعله، غارق تحت عبء الإصدارات الجديدة والصحايا اليومية، والناسخين والمعجزتين هل أنا في حالة مراهقة للأصف، نعم. لا أريد أن أبيع مصيبي، ولكن قانون السوق هو الأقوى. علي أن أبلغ مكانتي. المكتبي في كل مكان وليست في أي مكان، فالعرض فائضٌ بكثير عن الطلب.

كم هو عددنا نحن الذين نشهد وسروي وصيحي وكشف عن آرائنا؟ أمتع عن الإحصاء.

الكتب كقبة الأشياء. ثمة الكثير منها، يختار المرء حياته ليس هناك من سياسي أو مسرحي أو شخصية عاقبة إلا وكتب مذكراته أو أفكاره أو رؤاه أو مختاراته المفضلة من الأغاني الفرنسية أو ألومه للصور العنالية. أكد أشعر بالجنس من الانضمام إلى هذه الحجة: لقد دخلت شهادتي ضمن الكمية التي لا يمكن الإحاطة بها من الإصدارات الجديدة

قلتُ في نفسي، حادثة. إن أمي فريدة من نوعه، من سبيلك الحرة على أن يأخذه علي؟ إن ترجمة هذا الألم هي التجربة التي تنطج القوة ومن جهة أخرى، كان ابتكار هذا الكتاب ولادة مزية تسعة أشهر من العمل، إلى جانب صديقي الصحافية ميشيل فيتوسي، قضت إلى حكاية لا أتحج ل إقاعمي بأبي بطنتها. تسعة أشهر طويلة وقسية، كنت أنظر حلأها إلى الأمام، دون أي التفات لثلاث مرات في الأسبوع، رويت لميشيل أيام العز والشقاء تكلمت بلا حدود، بلا محذور، بلا تنفس. بدناً أحاديثنا بال خوف من أن نكون مراقبتين، وأودعنت تسجيلاً حلاً في مأمن عند الناشر، وكأنها ستكون سرية. أكان ذلك دهاناً هذيتياً؟ ربما، ولكننا كنا مفتحين بأنه يتم التفتت على هاتينتا. كانت بيما رموز سرية «الطاحن» أو «الوصفة» كانتا تعيان بأننا سستأنف العمل معاً. سكوت! الأذان العادية تنصت إلينا بعض المشاهد المحجبة، التي سببتها أنا بعلمي، طفت على السطح. ذكرتُ

مدخل الذي يفتح، وسجّانين خارجين من جهات مجهولة، قادمين يبحثون عني لأقضي مزيداً من المقوبات على جرائم لم يكنها. لا شك أن الرأفة تولد إنفجها الخاص، تولد في ذاتها وفي ظن الآخرين الشبهة.

إذا، اخترت بوعي تام أن أعود إلى الجحيم، أن أقود ميثيل إلى كسر هذا الباب الذي اقتضى متي أربعة وعشرين عاماً لأجتاز عتبة. أنا بلا هوية أو أكاد.

في اللحظة التي أبدأ فيها بالاعتراف، لا أعود أعرف من كون. لن أستطيع أن أبوح: كلاً، لم أحلم باي، لقد حلمت بحسن الثاني. حينما كنت أستيقظ، كان يصيرني الحصل والعار. لم أكن أستطيع مشاطرة ذلك مع أهلي: سوف لن يفهموا موقفى لم يكونوا قد تربوا في القصر، مثلي. وكنت قد اقتنعت أحياناً بأن الملك لم يكن جديراً، وبأنه كان قد عجز عن الوفاء بيمينته كأب متين وحام، حينها أكون قد كرهته! كانت ميثيل، المختلفة عني جداً، تجيد إعادة الثقة إلي، وامتصاص تلك المشاعر المتناقضة، كمولدة كلمات. كانت شرققة أحمي بها، ملجأ كنت أصل إليه أحياناً بحبطة واحدة الغزيرة. كنتا نشرب شيئاً وكان الطفلان، ليا وهوغو، يقاطعنا بفجرح. كانت الحياة قد انتشرت من حولي، تشيع نواة عزلة.

أحياناً، كنت أصل، مسلووبة الشعور بالاتجاه أو بالوقت، إلى بيت ميثيل متأخرة، مغبطة لأن باب بيتها يكون قد غيّر مكانه، أو أن موقف الحافلة كان قد غيّر خلسة من شارع إلى آخر. حينذاك، لأقبتني ميثيل «مونغوليتا». «أوقفي

للمرة الأولى طغواني المردوجة، المتواطئة مع الطغيان، والحادمة له. انفتح القصر الملكي لأحلامي كغلبة بندور. وهكذا، ام يكن معلماً للقرآن، الشيخ ذو الهيئة الشاححة، الذي كان يرعنا على تقبيل يده، ذلك الرجل الوفي الذي كان يؤمر بانحني وبقرا السور القرآنية، هو أول من نظر إلي كامرأة؟ إن أي مدى ذهب حينذاك؟ أحفظ منه بالإحساس الغامض والجل لرجل آثاره فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها. دعيت ميثيل، سرّاً، أن أستمع عالماً مختصاً بالجنس. الذي سيُفهمني الحقيقة، المكبوتة، الجبسة. إلى هنا تعود محاولي المسبقة من العلاقات الخسية، المقرونة بفكرة الهيمه طبعاً، أتذكر ذلك. ولكنني أردت أن أنسى.

بعداً عن شعوري بالتخفف من خلال شهادتي، يتسامى الخوف الذي يصاحبني منذ أربع وعشرين سنة خلت. الخوف من الإيقام، الخوف من جلادي، الخوف من عيادهم في حرماي الأبدى من ركن منير. الخوف على أهلي، الخوف من الحياة. عينا أجد نفسي بعيدة عن سجّاني، في منجى تام خفيف ترس وسائل الإعلام، يبدو لي أن كل شيء قد ينقلب في رقبة جفن. ممّ أخاف، وأحياناً أخاف الكثير من الأشياء كي لا أجد فيها سوى سبب وحيد. بعض الأهوال راسخة في داخلي عميقاً جداً بحيث تعصى على المنطق. أستيقظ أحياناً في منتصف الليل، في ساعات باهتة، حيث لا يعرف المرء تماماً إن كان لا يزال يحلم، مقتنعة أنني أسمع وقع خطي على الدرج، وصرير بساب

أوفقيباتك»، كانت تونحي بانهاج كنت أتكلّم كثيراً، د.
إعطاء الإيضاحات المتعلقة بالحدث والتي كانت ميشيل تولييه
أهمية، فكانت تقول لي، بين الابتسامة والسرور « Only
facts». كانت تعرف حالتي: كنت قد فوجئت بحادث ع.
متوقّع. كنت مرتجّة عابرة سبل. مع ميشيل كنت أضجّد
أيضاً، إلى أن تجري دموعي. باستحضار ما كنا قد عانيناه
الإبقاء على روح الفكاهة. أحبّ الضحك ولكن لا بد من
شخصين على الأقلّ لأجل ذلك. هذا الكتاب مثلاً. كنا ينكره
لكي أتوقّف عن أكون ابنة الجبرال أوفقي، الضحية، كوزيب
السحينة، الأميرة المقتلعة من رقاد القصر. كنت في حاجة إلى
أحد ما، لأني، مفردتي، لم أكن لألجئ في ذلك. مع ذلك، كنت
قد حاولت الكتابة، لمئات المرات، من خلال مقتطفات، ولكن
كان من المتعذّر تجاوز العقبة.

ميشيل امرأة ماهرة، ناضجة، وهي صحافية ملتزمة
وروائية وناشرة لأعمالها، أمّ لطفلين ناجحين. ورغم مسيرتها
الصاحبة حينما كانت في سني، فقد ألّفت حياةً وحقيقية، في
النسج كامل مع دائما ومع خياراتها ومع أنوثتها. لديها كلّ ما
أعده. إنها تلك التي كان يمكن أن أكونها في ظروف
مختلفة

بعد الكتابة، كان النجاح، نجاح فرنسيّ أولاً، وأوروبيّ
ومن ثمّ أمريكي، أي نجاح عالمي. حينما كنت أصل إلى دار
ناشري في شارع سان بير، كان باستطاعتي أن أقضي ربع ساعة
أمام الواجبة: كنت أرى كتابي، تتوسطه صورتنا نحن الستة،

أطفال في ريق العمر، عيونهم داكنة، لم يغيرني النجاح، بل
على العكس من ذلك، ولكنه أخرجني من الخفاء. القراء،
دود الأفعال، المؤتمرات، كان كل شيء يأتي بلا ترتيب،
مباشرة من الأيدي الممدودة أجا ذلك بعد فوات الأوان
د. لم يستجب كلّ هؤلاء، من كاتب الفصحيات، ورجل
ساسة، وحركة نسائية محتكة، مبكراً، حينما كنا بحاجة فهم؟
نعم لماذا؟

بالتفكير العميق بذلك، لا أدري حقاً الذي أثّره لدي
فراشي أهر عاطفتي، أم مجرد نروغ إلى المعلومة، أم فصول،
فيل من التلصص الخافي الذي يساعد الناس في أن يقارنوا
مصانهم بمصنعي. في صالونات الكتاب، بينما كنت حلف
طاولتي الصغيرة، كان كلّ واحد يسيّ ويحتش بمصنعي. في
مونييه، لا زلت أذكر رجلاً مغرباً مستاً، أخذ به الحين إلى ما
كان يعنيه لقب أوفقي، أهداني سجادة! في مدينة أخرى، كان
الناس يسألوني، وكانني الأم تريزا، كانوا يطبقون الوصفة
السحرية للتخلص من الشقاء، التوبة المضادة للشقاء وفي
مدن أخرى أيضاً، كان صحابا آخرون لأنظمة أكثر فساداً
يبارعونني في لقي كبطلة متى سيُتهم أنني لا أشارك في مارتون
للأم

هذا النجاح، لا أنظر إليه ككتابة وإنما ك امرأة؛ فأب
أعرف أفضل من أي شخص أن كتابي قد يتحوّل فيلماً أو
ريورتاجاً أو مقالة في صحيفة. هذه شهادتي المهمة، وإذا كنت

درة أن أروي قصتي الآن أيضاً، وطعاً في العرب، ردت لي
ن. النقي باباس يتسمون لي، يتعزبون إلي، ويقولون لي بساطة،
سكراً. لا أدري ماذا أقول، ولكنني ما زلت متأثراً بهذه المرة
الأولى والوحيدة.

تالت البرامج. ورغم كلامي الذي بقي في العرق هو
بفسه، إلا أنها لم تتشابه طوال ساعتين خلال تفسير طويل،
بكلمت وأجبت بتواتر على أسئلة، وروى من جديد
وباستمرار ما قادني إلى هنا، أمام جمهور حلسي باحرم وكأنه
في عرض مسرحي النقاشات أقل تأثراً من فنان حالي ()
تلك الجلسات المطولة التي يتحدث فيها المرء عن نفسه
صمت كاندنانية، ولكنها في المقابل تشلي بكماء عدائية
محتمة من المتحاورين معي. ماذا كان سيجري لو أنهم
أحد بذقني، ويدافع بقوة عن قضية جلادتي، لو إنشكك في
كلامي؟ كنت سأعدم وسائلي. أعلم أنني كسر ساعد
وسائلي. لحسن الحظ، لم يحاول أحد حق يوم من يجعل
نقسي الهشة تهتز

دائماً، تكون اللحظات الأولى مقزعة بحدسها كون
الأخرون، يسترحون، يرقبوني بطرف عيهم وكأنهم يعرفون
مسبقاً ما سيسألوني عنه. بالنسبة لهم، البتة أم مجرد لعبة،
أما بالنسبة لي، فهو حملة تعز أمام الجمهور، رمز العلاج
النفسي بالصدمة. ككل مرة، راودتني الرغبة أن أترك
الميكروفون والحصور والمناقشة هناك لأعترس بسدة عن
الظرات .. وحالاً تساب كلماتي متتالية، نكدن خارج

تير ضجة. ذلك لأنها تكشف أهوال سلطة شمولية والقسوة
الهائلة للملك. حاولت - وان كنت فب القلب والرعب - أن
أستبد بانتقاصي. شعرت أنني قاتلة ملك. آمل أن أحسن
الثاني قد حظي بالوقت الكافي ليقرا في قبل موته حتى وإن م
يقرا في. ما كانت مخابراته السرية لتختلف عن إعلامه بأن تلك
التي اعتقد بأنه أفاها إلى الأبد تسمع صوقها للعالم بالمعنى
الحقيقي مثلما هو بالمعنى المجازي

للمرة الأولى التي عثرت فيها عن آرائي أمام الجمهور.
أعد من الكلمات، مدهولة - كتمثال حقيقي - كنت مقنونة
جداً بسحر أن أسمع صوتي للناس.

بدا لي صوتي، وهو يسير في مكبرات الصوت، غريباً،
وكان، دون أن أعتبر بأنه صوت طفلة مرتجحة خجلاً. التوت
يدي في كل الاتجاهات وانعقدت معدني. ولكن السحر فعل
فعله بعد كل حساب أصاح المستمعون السمع إلي، بصمت
مطلق، صلابين محوي لدرجة أن أتباههم كاد أن يكون
محسوساً. استمعوا إلي نظروا إلي. احترموني. وولدت من
جديد. استعدت وجودي. ومع ذلك كنت نفس تلك التي
حرى تجاهلها بشموخ طيلة شهور. دبت الحياة في كلمة بعد
كلمة. ماذا هاك أكثر إدهاشاً للإنسان من ذلك الإحساس
بالعودة إلى الحياة، بإطلاق صرحته الأولى في الرابعة والأربعين
من عمره. وخاصة، بأن يكون مدفوعاً بفكرة البدء من جديد؟
لأنني لا أكمل، وإنما أبدأ.

أنا ممثلة لكل القراء، لكل هؤلاء المجهولين الذين منحوني

سيطرتي. لا أعود أميز الوجوه بين الجمهور، ولا أعود أحس عداوية المشاركين، قدأ أنفاسي وتستقر، ويكف قلبي عن الخفقان الشديد بكلمة واحدة، أروض القلق.

En3aM

www.rzwity.com

- آسف لإزعاجك...

وقعت رأسي، مستغرق في الأفكاري. بعد مناقشة، كنت مثل ملاكم عاد إلى حجرة الثياب (ذاك الذي لا زال واقفاً وليس الآخر) حارية، مرهقة. ولكن متحفقة من ألمي أيضاً أكاد أكون هادئة رانقة. الرجل الذي انتصب أمامي للتو، هو في الخمسينات من عمره. بدت عليه تلك الهيئة الرئيسة واجتهدة التي تكون أحياناً للأطفال الذين لديهم شيء هام ليقولوه.

- كنت أريد أن أهتك فقط ..

شكرته بتهديب، وأنا أتساءل عما يمكنه أن يهتني عليه ربما على الحديث دون أخطاء أمّا سوى ذلك. فانا حصينة ما فعلت في الحياة.

- ... وأقول لك بأنني سعيدة للغاية بأن عرفت أن والدك هو الآن رئيس الجمهورية!

حتى إذا كان الموتى يعودون حقاً من قبورهم، كان عليّ والذي في ذلك اليوم أن يعود قزويناً.

- الأسبوع القادم، ستقومين بتوقيع على الكتاب، قال لي الناشر، هذا ليس مثيراً للاهتمام ولكن، هنا، لابد من الإذعان

التوقيع. لا شيء يدعو للقلق، قلتُ في نفسي، بالنسبة لمن خرجت من سلسلة متواصلة من المقابلات والمناقشات، وهي كبوس كل انظرانية تحرم نفسها

لأن كهف التوقيع هو حلبة. يلعب فيها المؤلف، حسب استعداداته، دور الور، دور مصارع أسيء أعداده كثيراً أو قليلاً. لا بل، بالنسبة للأكثر تعاسة، دور الصحبة التي تُرمى فريسة للسباع لتسلية الضمائم.

- ها آنك ترين، كل هؤلاء الناس هنا من أجلك! قال لي الناشر بحماسة، معتقداً بلا شك أنه يُريحني.

- حقاً؟

- أعتقد أنهم يصطفون لتهدئ لهم كتابك بعبارة منك، إلا إذا كانوا يظنون أنك تديرين الصندوق

- الجميع؟

- الجميع.

لم تتجاوز أبواب تلك المكتبة التي سبق ورغبتي في أن أوتي هاربة منها. كل هؤلاء الناس هنا من أجلي... هذا كل شيء عدا أن يكون خيراً مفرحاً، لأن العدد يصنع حسداً، والحسد يُصيبي بالانقباض. كان قمة أناس من كل المستويات ومن كل الأعمار، من السيدة كما ينبغي إلى الطالب الصغير المملس، بسروره الجير البالي. هناك وجوه أكثر ما كانت مغربة، معنية طبعاً بمحديتي، ومجموعة من الأميركيين الذين

En3aM

www.rzwity.com

تساءلتُ إن كانوا قد قرأوا الكتاب بنصه الفرنسي، وسئلوا مصحوبة بعدد كبير من الصيَّان لا بدَّ أنَّهُم سيُصحِّرون للعالم في عالم الكتب بلا صور هذا. أيُعمِّون جميعهم في، بقصي يصعبُ عليّ تصديق ذلك. ربَّما فقط ينتظرون إنشاء معلوم مسلي عن النظام، تفاصيل غير منشورة عن الحسن الثاني م الذي لم أفكر به عَلاماً؟ غالباً ما لاحظتُ أنَّ الحملات الشعبة قد حظيت بتجاح باهر في حياة هذه التماثيل المجهولة، الصاحبه بالنشاط. يعلم المرء من خلالها بشئٍ الأمور حول الرؤوس المتوخة، يُقرأ فيها، في ألفة صالات الاضطرار، مصرع الملوك وطيش الأمراء ومجرتهم. حينها، خشيتُ أن يُنتظر ذلك متني، وقائع شاذة بعض الشيء عن خفايا السراي الملكي. «في الحياة الخاصة لملك المغرب». «الحسن الثاني المجهول». «أنا، الأميره المحلوقة».

طبعاً، أعرف بعض الأمور، فتحتُ قلبي ورويتُ قصة حياتي. ولكن إن كانوا يريدون شيئاً غير قصة حياتي، فسأجيب طبعهم بشهادتي لم أهاجم قطُّ وطني، يبقى المغرب بالنسبة لي تربة ساحرة. استمد منها قواي. إنني أصمّي حساباتي مع الملك كانت لدي فكرة راسخة: تفننرت المجموعات الحديثة، أوروبية كانت أم إسلامية. إلى الحدِّ الأدنى من الحرية كي لا يشعر المرء بأنه حبيس قوايلها.

- اجلسي، نفث الجلاء الذي أعذَّ ذلك الإعدام. أترغبين في كوب من الماء؟

استدرتُ نحوه، مندهشة لوجوده هنا. أهو صاحب المكتبة؟

لم أعلم شيئاً عن ذلك. حقق قلمي سريعاً لم أربح لا في مونس ولا في شرب كوب من الماء.

لو كنتُ قد أردتُ شرب كوب من الماء، لكنتُ سأفعل ذلك في بيتي، بين جدران أربعة، بعيدة عن عشرات الأرواح من الأعين هذه، التي تراقب أدنى ردود أفعالي من جديد، دت هوف من الآخر في داخلي، تقذمتُ السجبة على الكاتبة، واحتججتُ إلى ثبات كبير كي لا أعدل عن موقعي وأدلف إلى أول سيارة تاكسي فارة من المكان.

علت أكاداس الكتب على الطاولة كالأبراج. انزلتُ، حميلاً، عني كرسيّ لأضع واحدة من الأكاداس بسفي وبيّن طابور الانتظار. لكن لا شيء سيُحسن إختفائي عن أنظار ذلك الطابور، الطويل جدّاً بحيث لم أنجزاً علي رفع ناظري. شاهدتُ، من مكاني، أجساداً تتدافع، وأبداً ممدودة تحوي.

ما كنتُ أجلس، حتى قاطعتني صوت به غنة

En3aM

www.rzwitg.com

- إلى كريستيل ودادو!

- عاذا؟

مكثتُ فتاةً في حوالي العشرين من عمرها أمامي. وقد صمّت إلى صدرها نسخة من كتابي وكانَ أحد ما كان سينتزعها منها.

- الإهداء؛ إلى كريستيل ودادو.

سيدس كريستيل ودادو كتابي في مكتبتهما، فخورين

بعضة السطور المغربية بمجلة:

« محبة، م أ » محبة، حسب التعبير الشائع، كما لو
نعرف بعضنا من الأزل. بمحبة. إنها الصداقة المتجردة من
الماديات التي تحتفظها اللغة الكبرى لوسائل الإعلام فلا
كلمات مكتوبة على غير هدى على صفحة بيضاء، تماماً كـ
الإهداء « القلمي »، وماذا نأخذنا من معرفة قديمة.

— تبديس في أحسن حال، قال رجلٌ ثالثة في طاء
اعجولين، مدهشاً، حنن الطن في الواقع

كدت أن أعتذر عن عدم كوني شبح المعقلة ذي الثلاثين
كيتو عرما الذي كان يأمل أن يراه. ولاقت، واحدة فواحدة.
النظرات الخملقة التي كانت تحتل محوي وكانت لها لتجذب
أنظاري. البعض منهم هنا ليعبروا عن مسانلتهم ومحبتهم.
وآخرون لإرضاء فضولهم المخرف أحياناً. أما بمحبة هؤلاء كما
لأولئك؛ فمن حلالهم أستم، تارة حقيقية وتارة مصطنعة.
موجودة ومتصورة بالتأويل، ولكن دائماً حية، وهذه الحقيقة
تبرر كل شيء.

مرور الوقت، اعتدت على التوقعات، منظمها روضت
الميكروفونات. لتحفظات، تظهر أطراف تعتم على هشاري،
وتتطارد في أوقات مديدة، وأحياناً لأيام عديدة هذه الأشباح
الشريفة تمي تجرني، وتصرخ متهمة إليّ بالكذب أو المبالغة،
وترفض أدق اتهام صدمت مثل أسوأ الوشائيات.

ودائماً يتعلّق الأمر معارية، مواطنين منصفين محص
وغتهم، ابتدعوا لأنفسهم، بعيداً عن الدار البيضاء، حركات

حبه ساحطة في فرنسا وغيرها، يوح . هؤلاء المصلحون
« هات تشككي بمحمد طهري، فوالدي أصبح جلاًداً بعد
ملايين، وأنا أصبحت أداة دعائية مآجورة لصالح الآخرين لا
أخل هؤلاء المعرضين، في مقابل الأغلبية العظمى من قرائي،
على حمة، ولكن العريب أن هؤلاء هم من تركوا الأثر
لا عبق علي، وتأكيدهم تقع على وكأنها علامات بالحدود
أهامي على جسدي. لا شيء أسوأ من الإكسار، مس هو
لكثير لرجل لا يعرف شيئاً ويعتقد أنه يعرف، والذي، بتعليق
لاذع، يكسح عشرين عاماً من الآلام والعذابات وكأنها لم تكن
له. وحدث قط.

صالون جيف للكتاب ليس محتفواً كثيراً عس صالون
باريس؛ فبدأ لي وكأنني سبق وأن عشت ذلك الشعور
بالانسحاق تحت عشرات الأطنان من الكتب، وسط مد شرقي
غمر بمحيط تخطط الوجوه. أين أصدفائي، بارسي، وملحقني
الصحية؟ أين إيريك؟ ربما كانوا قريبيين جداً، ولكن في كل
الأحوال سوف لن أراهم.

تنافس كبرى دور النشر بلوحات إعلانية، بلافتات، كل
واحدة أكبر من الأخرى. قبة ضخمة لإحداها، ألعاب ضوئية
ساطعة لأخرى، يجب أن يكون الهدف مرئياً من بعيد، لأنه لا
يتم من البيع من طارقي التي أجلسْتُ عليها لأوقع كدساً من
كتبي، شاهدتُ شيئاً أشبه بمثلية تدور، في جهة وسط الحشد

توقّف زوجان، لفظهما مد المتسكعين، أمامي، وعابثاني
كما يُعاني حيوان في قفص. كدت أنحسب لأن أرمي بحفنة من

القول السوداني: حاول الرجل والمرأة، دون أن يحسب فضولهما، قراءة عنوان كتابي؛ ليس هذا صعباً جداً، هناك عشرون كتاباً منه على الطاولة.

- ما هذا؟ سألت المرأة.

- طبعين... المرأة - قاطعة الطريق، أجاب الرجل خافضاً نبرته، ولكن حتى يُسمع الصوت في صالون خفيف، لابد من الصراخ بأعلى ما يبلغ...

- من تكون هذه؟

- أجل، الهندية... ألا تتذكرين... لقد شاهدناها في التلفزيون.

حينما رايتهما، يتبثث الواحد منهما بالآخر، يومقاني بطرف عينهم، متضايقين بعض الشيء ولكن غير قادرين على مقاومة الفضول. سألت نفسي من من بيننا حقاً في القفص انتهى الرجل بأن بادري بالتسامح أشبه بتكشيرة، ثم شد زوجته من ذراعها.

- تعالي، يوجد سوليتزر هناك.

صمتت ثانية صوقها بعد برهة:

- آية هندية؟ لا أتذكر!

- أجل، المرأة المسنة التي أغصبت... في الهند...

- آه، نعم! قل ذلك، كم هي نحيلة...

الهندية المقصودة تصلّت الصفحات الأولى للصحف غريباً في تزامن معي؛ فقد خصّص لها موضوع في اليوم السدي كنت قد استصغت فيه أثناء بشرة الأخبار التلفزيونية كانت تلك الفتاة، المقتضية، المهانة، قد تمحّصت في قرية جبلية. وشنت من هناك حرب عصابات حقيقية ضد النظام، متزعمة عصابة. وكانت، الوجه السائي لروبن الأدغال، تناضل - إن أسعفتي الذاكرة - في سبيل قضية النساء. وفي سبيل عزّها، وربما أيضاً لأسباب أقلّ بلاء. معاً جنباً إلى جنب، في بشرة الأخبار التلفزيونية ذاتها، هاتين الانثى متخرج بمرح. لأنّ الألم لا هوثة له...

مغربي

« المغرب: مملكة بألف نكهة »...

منذ أيام، ينتشر هذا الشعار على جنبات كل حافلات باريس، على قاعدة المنارات، والكثبان، والبيوت المبهطة ماعير. والأرقة الساطعة بالألوان. المرة الأولى التي رأيت فيها هذه الإعلانات، مكثت جامدة كمثال، لرؤية صورة سوق لمديني تبعد على خلفية حافلة. ثارت ذكريات كنت أظنها غير مؤلمة عيفة في داخلي. ذكريات تغير وقعها الآن في كل ركس من الشارع وأنا أرى وطني يمر على طول جادة سن حرمان. لعشر موّات في اليوم، الشعار نفسه يتكرّر على صور مختلفة، جمال عند مغيب الشمس، سوق، بضعة مخلات. والكسكو الأيدي المنح على طاولته النحاسية، الذي يسيل لعاب سائقي الحافلات التانهين وسط الزحام مد وصولي إلى باريس. ويجري ذهبي باستمرار إلى أن أعلن كرمي للمغرب بالنسية للناس الأحرار، العالم على صورة فيلم الساعة 20.30 الطلعيوني: هاك الأحيار والأشوار. وبال الأشوار عمومًا عقاقهم في النهاية، اللهم إلا إذا كانوا ملوك المغرب وكما هو الحال في الأفلام، لا بد أن تكون نهاية تحرزي سعيدة happy end، سعادة بلا لون معتدل لن تستولي عليها أصغر ذرة من الحنين.

يا لقطاعة هذا البلد، قال أحد الأصدقاء مناسفًا وهو يهز رأسه برزاة.

En3aM

www.rzwity.com

En3aM

www.rzwity.com

الأطعمة اللذيذة بإفراط على من يرغب : تلك المسئلة التي
حق العمر طهرها، وتلك الفتاة الصغيرة دلت العيبين
له اسعين الداكيتين، المرتدية اسمالاً لا تقبل من قارها، أشاهد.
ملهيته، السياح الذين يفتهم سحرة الشعابن. يحدث أحياناً أن
يعرف عرافاً، لي فيأتي ليتنبأ بمستقبلي. إنه لا يواجه خطراً
كثيراً!

بعد ذلك بعام تقريباً، كنت أقود سيارتي الصحبة ذات
الدفع الرباعي، في شوارع الدار البيضاء. وأنا أغلق عيني،
وكنت أتعمل بحوكة الصعارات، كدنتُ أصدق تيبو ذلك
لعراف. فقد وجدت نفسي، متوترة الأعصاب. وسط ازدحام
عنى الطريقة المغربية: أكثر ضحكاً، أكثر تلوثاً، أكثر تلوثاً
بالناكيد من هنا، لأن الحرارة والشمس تضاعفان عشر مرات
من الضرر الذي يسببه الديزل. كنت أقوم بست حولات من
الذهاب والإياب، وربما أكثر أحياناً، بين أستوديو تصوير
ومكاتب، صم وظيفتي الأولى كمرأة حرة والتي تكمن في
القيام بكل المهام لو كالة إعلانية .. كانت تتطلب في الواقع أن
أقضي معظم وقتي وسط ذلك الازدحام لإرضاء نزوات منحرج
عريب الأطوار. بات لدي الآن وضعاً خاصاً بي، راتنا، وظيفة
معروفة، وإذا كانت لا تستطيع أن تسبق بأمني لا زلت لا
أملك الإذن بالطيران إلى فرنسا، فإنها تروّدي بمظهر نفسي من
مظاهر الشعور بشخصيتي.

استغرقت مُملة الدار البيضاء، من حوالي، في فترة من
الألوان والأضواء. تدفقت الحشود على طول الشوارع

عن أي بلد يتحدث؟ عن بلدي، بلا شك، وبجارات
مرزعة إرضاء لي. ماذا يعرف عن المغرب، عن تجسري، عن
العمة والظلام والنور في مملكة الألف نكهة؟

من جهة أبي، محمد أوفقير، ومن جهة أمي، فاطمة شتا، أنا
سليمة البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان مساوي ومسام
عائتيهما، مهتأين دائماً للسانين واحتجاجين، الذين يكترون في
ثلث المناطق الصحراوية المقفرة يُعتقد بأبي أميرة. أنا سسله
الشعب. في السوق، غالباً ما يُقال لي: ولكنتك تساموين
كبربرية! لقد وجدت صفائي وحب المغرب في الصحراء. لقد
طفت البلاد بطولها وعرضها، غالباً صحة صديقتي صباح
صديقة كل أخ. وأنا أمتع مكانة أثرية لتعليليت، مهد
أجدادي لأبي، أشعر نفسي ضاربة الجسدور في هذه الأرض
وسط الكشبان الصلصالية البون، وتلك المساحات الشاسعة من
الرمال السمرء المذهبة، وتلك الواحات من النخيل الماهولة
بالبشر الزرق، يسود صمت مطبق. أدركتُ أين كانت
جلوري. أنا مغربية عميقة الجلور. في مراكش، وليس في
اناموية أشهر أنفي في بلدي. لا لساوي الفنادق الباذخة شيئاً
عندي: فمهما حدث، أنا من طبقة دنيا! ساحة جمع الفنا، الفنا
الذي يُستخدم منذ بعض الوقت ساحة إضراب حيث كانت قد
غرست أجساد ورووس المكمل بهم. عندما يحل المساء، كنتُ
أجس على مقاعد خشبية بسيطة مرتبة حول طاه مرح يشوي
أسياح الدجاج، ويظهر الطاجن باللحم وبالخضار، أي طعاماً
بسيطاً. يتجمع الجامعون من حولنا، في جماعات، وأوزع

الترسمية، وتعالّت أصوات الراديو والتلفاز والصرخات والصحكات والأصوات المتشابكة التسمية من كل نافذة ومن كل شرفة ومن كل محل مفتوح على الشارع. بدا كأن الجميع يتجرعون الحياة، بينما أنا أنظر، بصنبي القلق، حبيسة سيارتي ذات الدفع الرباعي وكأني معزولة ولم أجد في ذلك، عند السلام الرباني، سوى نفاذ صبر متعاطم جعلني أتلوّى في مقعدي، بتملّكني الجوع شناً فشيئاً

ثمّة خطوات تتداخل فيها العيال والمعدة، وهكذا كانت حالتي وسط بروج دابل ذلك، فالشيء الوحيد الذي جدد اهتمامي هو المسئلة الصغيرة لبانعة متحوّلة خبير السميد، على بعد مائة متر منّي لو لم أكن حبيسة تلك السيارة اللعينة. لا سرعت الخطى كي أسنسلم لفيض من تلك القطائر المربيه اللذيذة، التي بلغتني رائحتها الشهية رغم المسافة ورغم كسوف رحاج السيارة مغلق والهواء مكثف اشترى شائناً، وكأنا هيم يورديان في حيز السميد، الساخن جداً للدرجة يصعب عليهما الإمساك به. اتابني دوحة خفيفة في حين دكسرتني معدني، بجوقة من القرفة، أن عاملة أمينة عليها ألا تسمى أن تنفّذي.

تحوّلت الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر، بعد أن تقدّمتا لبضعة أمتار فقط في الشارع المزدحم، حينما دقّ رجاج سيارتي. فجأة، انتفضت، من انفاضة أكر منه من الذعر، لأنّ للدحرف في المغرب حدود، حدود سوف لن أجدها، فيما بعد، في أوروبا.

إنهما الشبان اللذان اشترىا للتو خير السميد عسراً

الشارع، واقفين وسط دفق السيارات، وأشاراً بأن أحصص لهم حرج.

— حدي، يا سيدني. قال لي أحدهما وهو يمدّ نخوي رعيماً من حيز السميد ملفوف بورقة جريدة

أمسكت، مدهوالة، عما كان عاية كلّ استيهاماتي في تلك اللحظة.

www.rgawity.com

— كنتا سمرص لو اكناه دون أن عطيك منه. شرّح لي لأحر متسماً.

انطلقت الصفارات. وما كدت أن أقنم ببعض كميات الشكر حتى أطلقا سيقاهما للريح. متأنفين طريقيهما وكأنّ شيئاً لم يكن.

هكذا هي العرب، أكثر من سجون شباني. إنهما مجهولان لاحطاً النظرة البانسة لسانقة مجهولة، على رغيغ خبز. إنهما حطّة كمال، يشعر فيها المرء بنشوة كونه ليس وحيداً في الدنيا. ربّما توجد بلدان أخرى حيث تكفي نظرة بسيطة ليعبر المرء عمّا يُريد، حيث لا يمكن للمرء أن يعزم على تلويق غداءه دون إشباع امرأة جائعة. ساحب المغرب إلى الأبد، وسادافع عنها، أنا التي سرقت المغرب عشرين عاماً من عمرها، في مواجهة أولئك الذين يقدحونها. وطني ليس الملك المترنّع على عرشه. وطني ليس تلك الآلة القمعية التي يعث بها رأس متوجّ كما يعث سلاح وطني، هو هذا الشعب الذي يمدّ يده إليك دون أن يتنظر منك أيّ مقابل، شعب لا تلوي رأسه حتى راحة أطيب القطائر في العالم

للأهب لزيارة عائلي في الرباط، يمر الطريق الأقصر على المتاريس لتي تتاحم، وسط مركز المدينة، سور القصر الملكي يخترق شوارع رئيسية من جهة إلى أخرى هذه الدائرة المقتد في عبور كل المغربيين، والتي كانت دارني فيما مضى ولكن خرد فكرة العبور بها، تقضي معدني، وتور في داخلي أسب الأهوال غير المصنوعة، وتدفعني إلى القيام بأطول الالتفاف إلى أن يء يوم معي فيه أمر طاري أن أسلك أطول الطرق. فوحده نفسي في مواجهة قلعة الخوف تلك، مقرزة العبور

يلوف القاتل الذي يعود دائماً، كما يقال، إلى مسرح جريته، بادرأ ما يعيل السجين إلى التجول تحت بواقده حلالده خاصة عندما تنوء الأسوار تحت الذكريات، عندما تصضح بالصحن والعبرات في آن.. بقيت طفولتي وهينة ذلت السور المهيب، حيث توقفت فوراً، كساعة محطمة.

عند أسفل المتاريس، بدا لي وكأنني سيارتي لم يعجبها الموقف، الخاطت، ورغم ضرباتي الخجولة على دواصة البزين، لم تتحرك سوى القهقري نحو سور القصر. على البوابة، بادرني شرطتي بردي بزة نظامية فضفاضة بإشارة أمرة:

تلقني!

تلقمت، لو كان يعلم إلى أي مدى تلقمت. أشارت لوحة علانية بأنه لا يمكن تجاوز سرعة 40 كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة تنوق الصوت بالنسبة لي، فتجارت مشقة على لس دواصة الغازات قد يروني، قد يسمعي، تجاوزني المشاة

بلا مشقة، والسيارات من خلفي وجهت إلي بداءات ساحطه عبر مصابيحها (إذ ليس من المستحسن على الدوام الترميم داخل دارة أمير المؤمنين). انتابني شعور بالدوار والاهباك العبد، كنت كامراً حامل حقيقة. ربما من جهة ما، تنمرح نافذة وتكشف عن وجه مألوف... عين ثابتة قد تتعرف علي لي الحال من حلف الزحاح الملون لسيارتي دت الدفع الرباعي

احتللت الذكريات من حولي، تارة سعيدة وعذبة، وتارة فظة حارقة، ابحت الحياة في الجدران وشرعت بروي حكايتي، وأنا الصغيرة المكشمة على نفسي في سيارتي، رأيت كل دقيقة نعري كأنها الأزل

ضاق أحد السائقين ذرعاً، وكانت مقدمة سيارته ملاصقة للدفاع الخلمي، ومذ رأسه من السقف المفتوح لسيارته: هل ستستمر هنا أم ماذا؟

لقد سمعت ها لرمز مديد. ولذلك يشق علي كثيراً أن أقدم اليوم قاتلي، وعلى معدة بضع منات من الأمطار، ينتظرنني اتفاق جديد. الحامل الثانية، البوابة التي خرجت عبرها من القصر إلى الأبد. لدى وصولي إلى أسفل المخرس، تباطأت سيارتي من حديد، الأمر الذي لا بد أن يعد مأثرة في نظر النساء الذين يتبعوني. ودني دركني الحراسة بظرة تكفي لأن تصبني بمزيد من التكرز. وأنا في منتهى القلق والارتباك، أعملت يدي وقدمي بنشاط، وانتهيت إلى الوقف المفاجئ على نحو مشر لمشقة. اقرب الدركي، بينما انكبت على مفتاح

التشغيل كما في الأفلام المثيرة الرديئة.

En3aM

www.rzwitg.com

هل من مشكلة؟

لقد توقفت فجأة، قلت وكلّي أمل أن تخفي نظراتي الشمسيات حيرتي وهويتي.

طاف الرجل حول سيارتي، بينما قلبي يخفق حققانا شديداً لماذا تكرّرت من ذلك الدركي، مع أن أماله أظهرها منذ إطلاقي. لطفاً حياتي؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك. أريد الانصراف. عور القصر قل في كل منطق، وإذا استسلمت لقلقي بعض الشيء، انتهت إلى التحيل بأني سوف لن أخرج قط من هنا.

عاد الدركي، في هيئة الواقع من نفسه.

هذه هي المشكلة مع سيارات تويوتا. سهري لديه واحدة مثلها.

آه حسن، قلت ذلك بترّة من سيّجهر عليها على قارعة الطريق بطلق في رأسها.

أعطتها قليلاً من الغاز، هكذا، وراح يقلّد طربات دواسة البترين بيده المفتوحة. ومستنطق في الحال.

أقلعت من جديد، حابسة أنفاسي.

أرأيت، استأنف الدركي بلهجة المتصر. أنا أعرفها، سيارات تويوتا.

برؤيتي أرتعد في كل ركبي من الشارع، قد يعتد بأن

ببدي ملكة حمحة يسود فيها قانون الأقوى هذا خطأ، وأكاد أحقد على نفسي من هذا الخوف الذي يعشش في أعماقي ويشلّي. أعلم أن النظام قد استفاد بذكاء من الهجمات الإسلامية لقرض إصلاح المدونة، الرمز السري للعائلة المسلمة التي احتزلت، منذ قرون، حقوق المرأة إلى شيء لا يذكر حتى اليسار امتنع عن إلغاء هذا القانون المهجور. إذ إن الرجال من جميع المشارب متفقون بلا شك على هذه البقطة الأساسية هيمنة زواجهم. لا بد أن الحكومة ستحتاج إلى كامل قوتها في الإقناع (والله أعلم بأنها لا تنفّر إليها) لكي تُعطي للمرأة المغربية حقوقها في حماية المظاف، وبذريعة مكافحة التطرف الديني لقد ببّ آمالاً على السياسة الإصلاحية محمد السادس. حتى وإن بقيت أمور كثيرة لايّده من القيام بها في مجال الحريات السياسية ومكافحة مظاهر التمييز واللامساواة.

أليس عسيراً أن تكون امرأة في بلد إسلامي؟

المغرب ليست بلداً إسلامياً.

إسلامي، إذاً.

ولا كذلك.

En3aM

www.rzwitg.com

المغرب بلدٌ للتقاليد الإسلامية، حيث تمارس الأغلبية من سكانه إسلاماً متسامحاً. في بعض الأوجه، يُعدّ ببدي واحداً من أكثر البلدان تنوّراً في العالم العربي، وي أوجه أخرى. يُصاهي الدكتوريات الأسوأ في العالم الثالث. حين يُسلم أمير المؤمنين روحه لإبليس سوف يتوجب الفرز نكهة بنكهة كي لا يبقّى

منها ألك بل مئة تكون كافية لتجعل من المغرب فردوساً ليس يعود هناك ألف بكهة، بل قد تكفي مائة منها لتجعل من المغرب فردوساً. إلا إذا استولى المنتحون عليها، ليغطفوها بحجاب أسود.

En3aM

www.rzwilly.com

En3aM

www.rzwilly.com

الملتحيان

استغلّ الدين سنوات غيابي المشرّين ليشغل مكانة ميرة. أشعر به، في المغرب وفي سواها، ثقيلًا، مصوغًا في بعض الأحيان بخوكات حمجية تضاهي الحرب الصليبية، عارِق ومذبحة.

اليهود، ما أن فقد العالم الحرّ معاملة، حتّى عدّ له يده ممكراً، لدم له، عوض الخدمات النافعة والصادقة، الوعد بالإقامة لأبدية في الفردوس. يشقُّ عليّ أن أفهم كيف عادت التمامية لأكثر سلفية دارجة بين الشباب مثل سراويل مراهقي لسبعينات. ولكن ما يتركني مذهولة حائرة هو أن يتمسك المرء بتوابت مهجورة لأشباح متعطشة للدم ومتحمّة باجهل ما الذي حدث كي يحتاج الناس من جديد إلى مرشدين مكفوفين؟

في البدء، اعتقدتُ أنّ التمامية المتجددة لم تكن تعشعش سوى في وجوه آيات الله، المصّين فوق الأحياء الفقيرة لبلدان المشرق، ولكنني أخطأت. تزدهر الحُجب في شارع شانزليزيه، ويونج صبة، مهاجرون من الجيل الثالث، شقيقاتهم لخروجهن حاسرات الرأس. إلى متى ستُترجم الفتيات اللواتي يرتدين التنورة؟

كان صالون الكتاب* في باريس في أوج نشاطه، ومن بين جميع الناس المدافعين للحصول على توقيع كتابهم، كانت سيّدة

* المصنود بجذرة صلفون الكتاب: معرض الكتاب

تنتظر دورها بوقار. لقد تعلّمت بمرور الوقت أن أتعرف بنظرة على أوتك الذين يمدّون كتبهم دون أن يقولوا شيئاً، وأنشد الذين سيجّهون لي بعض الكلمات، وأخيراً، أولئك المسكين لهممة مقبلة، الذين يستغرقون في مونولوجات طويلة عالياً ما يشق عليّ إيقافها. لقد تلقّيت خلال بضعة أشهر دروساً في الحياة أكثر مما يتلقاه إنسان حرّ طيلة حياته... أقسم على أن هذه المرة تنتهي إلى هذا الصنف الأخير، الذين يعطون الدروس تحت بكامل جسمها على الطاولة التي تفصلنا التفتت إلى اليمين ومن ثمّ إلى الشمال، وبحلّز شديد، همست:

— كيف حدث أن وافق الملك على تبيّث على الرغم من أنّك يهودية؟

فأقربت منها أكثر، وكانني أريد أن أضلي مزيداً من الكتمان على السرّ الذي نقاسمه، وأسريت لها، بنفس النبرة الهامسة:

— لست يهودية، أنا مسلمة.

ساد الصمت. أصبحت عنها مدوّرة كعين سمكة.

— ألسنت يهودية؟

لم يكن ذلك في الحقيقة سؤالاً، الأخرى إنه محض ضبط فاجع.

En3aM

www.rgwtv.com

— كلمة

هزّت رأسها، وكان كلّها في ذلك بليغ الدلالة.

— آه، حسناً. ولكنني كنتُ واثقة أنّ...

En3aM

www.rgwtv.com

— كنت عظيمة.

تردّدت للحظة في مذكتها مخوي بسبب هذا الاكتشاف لرهيب، ثمّ ناوطني إيّاه بأطراف أصابعها، بشبه ابتزاز. وقفت منه استعادتته، ودالماً بنفس العرجس؛ بحيث أنّي شيء ما بها، عند أوّل حاوية تصادفها، مستخلص من شهادة تلك التي طلبها داعية للعائش الديني، وإذ بها في الواقع ليست سوى مسمنة. ربّما في يوم قريب، سُدّمنغ الكتب بعبارة: «مكتوب لليهودية، يمكنكم اقتنائه.» أو أيضا «حلال 100%، اقرعوا بلا حوف» أسطوانات كاشير، أفلام مباركة من الفاتيكاني، سيتطيع كلّ واحد أن يتسلّى حسب مقياس ربه.

الخطر لا يعود إلى الأمن، ودون أن أجعل من نفسي كاهنة، منذ أن أطلق سراحني عام 1991، كانت لدي رؤية محدّرة منه وكأنّه للقطع مع أماكن طفولتي (وبابتدال أكثر لشعّ المال)، أقمت في حيّ يدعى ناميا، يجاور حيّاً شعبياً جداً رغبت أن أعيد فيه اكتشاف المغاربة الأصليين. كان يوجد هناك، وعلى مسير بضعة دقائق مشياً على الأقدام، ناد صغير للفيديو. كنتُ أتردّد عليه باستمرار، على أمل أن أستعيد الرحمن الصانع. فحقني السيمما لم تنتظري أثناء غيابي، والقصة الخيالية بنفسها قد تجاوزتي منذ زمنٍ مديد.

نادي الفيديو، الذي تعلوه لافسة متواضعة متخلّلة تحمل

اسم هوليود ستار. هو عبارة عن حوت صغير، يُدار من قبل أربعة أخوة شتار أسدي في هؤلاء الشتار. الصارفين وسيد الأكراس الموضيه من الشرائط المسجلة. كل الصانح الر أحتاجها، ووفروا لي عودة الموتى الأحياء لصالح رين ميان بمرور الزمن، ثم تعاطف بيّننا؛ فسلموني أسرطة مسجلة في البيت بينما قمّت بتسجيل الأفلام التي يصممونها إلى محزوم من الأفلام. ربّما حدث لي وأن أثبت على أحد أفلامي الخاصة، لفرط ما أدير الحانوت بشكل خاطئ.

— كيف تمّدي إلى ما تريد وسط هذا الركام؟

— لا أجد مشقة في ذلك، أجباني واحد من الشتار صاحكاً قولي لي اسم فيلم وسأخرجه لك في غضون ثابتيين

اتفقنا على ترتيب جديد، وشراء رفوف تتوافق على نحو أفضل مع تجارهم. اخترعتُ لفسي دور المدرّب، وحفظت مستقبل الحانوت كمن يلعب المونوبولي. لا شيء يجعلني أخروح من عزلي مثل الخراطي بتلذّذ في إستراتيجية التعدد الثقافي المستقبلية لهوليود ستار...

ولكن بعد عدة أسابيع، عادت إدارة الحانوت من جديد إلى التسبب. فلأكثر من مرة، اصطلمتُ بستانر حديدي خفيض. باهيك عن كدس من الأفلام احتتمت دون قيد أو شرط.

— ما الذي يحدث؟ كل شيء يسو بشكل خاطئ، قلتُ للأخوين اللذين استقبلاني.

— الأمر طبيعي، أجاب أحدهما، لم نعد سوى اثنين وهناك

خبر من العمل.

EnsaM

www.rzwitg.com

— الثان؟ ولكن أين راح الآخران؟

هز الشاب كتفيه وبدرت منه ابتسامة تدل على استسلام.

الشتان الآخران في المسجد الكبير. ومثل العديد من شتار هذا الحي حيث لا يجد المرء ما يست به جموعه، الضمّا إلى صفوف التمازية، واستبدلا سرواليهما الجيّد بجلباين وحلقا سرهما الداكن وطولا لحية مدببة. أغراهما اللتحون بمسلمات صلاة، منهجا كغيره من المناهج لتحقيق الفروقة والنجاح. العمل الصالح في الدنيا في سبيل مائة عتراء في الآخرة، إنها مسألة...

توسّل آخر المدافعين عن هوليود ستار لي أن أنصح أحيويهما وأعددهما إلى حضن الأئمة الرأسمالية. فبدوهمما، احانوت (المتراجع بالأساس) معرض لخطر الإغلاق عتسا قريب.

— أنت، سوف يصغيان إليك، قال لي، قولي لهما بأننا في حاجة إليهما.

وعندهمما، ولو أنني أعرف أنه ليس لي وزن يُذكر مقابل إله التمازيين، ولا حتى مقابل أي إله.

بعد ذلك ببضعة أيام، سلك المتحيان الضحيتان شارع نادي الفيديو، بجيتين رزيتين تثيران السخرية بالنسبة لعرهمما البالغ خمسة وعشرين عاماً. جرى الحديث مختصراً، وإن لم

يجمع حاشو* الجامع بعد في نوع دماغيهما نفسي حديد.
متناسكاً، ولم يصطبغ سوى عمارات مقتضية أحياناً وما سر
تبريرهما؟ لم تعد التجارة موعة. في الجامع، يستعيد
الأمل، أمل النظر إلى الله.. الأفضل والمستقبل الأفضل،
الأخيرة، فسراً، حيث يحصل الشهداء بأحرمهم الباسمة السر
تزعجهم قليلاً قبل يجلسوا في دار النعيم.

— فكري...

En3am
www.rzwily.com

— لقد فكرنا.

— فكري أكثر.

ماذا يمكن أن يقال لهما إضافة على هذه؟ بدا لي أنه لا
طائل من ذلك، وافتقراً أصدقاء جيلين. ولكن مع شعور باب
لن نخط بفرصة اللقاء مرة أخرى. ذكرني انقباض طفيف في
قلبي بضحكاته المجونة في الحانوت الصغير، حينما كنت
أسألهما، والعيون مدورة، من يمكنه أن يكون مساد ماسك
سرعان ما سيكونان قد نسيا ذلك بنفسيهما.

لقد تسرعت بعض الشيء في نعي للشباب المغربي. فبعد
بضعة شهور من ذلك، حظائي قلبي في شخص آخرى اللذين
فقدتهما، واللذين بقيت بهما من حديد، وهذه المرة كانا
برتديان سراويل جيز وفي شرت، وقد حلقا ذنبيهما منذ وقت
قريب، وعلى أذنيهما المسجلة المحمولة. لدى اقتراحي، انشقا عن

* العائل: من يطارذ القريسة للإيقاع بها وهذا الإشارة إلى من يكره أن يرضى بالثبات في
المساجد لكسبهم إلى صفوف الأصوليين المتزجر.

الجمعة واسعة.

نعم، نعم، لا تقولي شيئاً، نعرف.

لقد أخلقهما الوهم لبعض الوقت، ولكن رغماً عن
منسبهما للأمل، انتهى بعد أن بلغ مداه. لقد أرادوا إخفاء ما
في عيده، بسبب تكوينهما العقائدي؛ فنتج أن يضجعا
ماداً إلى رشدتهما، بكل بساطة.

على غرار الآخرين السبعين، ليس الشباب المغربي باحثاً
في الهوية، وربما لهذا السبب ليست التوبة شائعة تماماً
في المغرب مثلما هي في غيرها من البلدان. للشباب، الفخوريين
مهم مغاربة، والمتمسكين بجذورهم، لا يزلون المتطرفين إلا
بعلامة تحدد ضد نظام متوحش. لا يحتاجون سوى إلى شيء
يحد الحرية. الحرية والعمل. وفي هذا، لا أحد يهتمهم أكثر
شي

اختفى هوليود ستار، ليس الله وحده، ولكن تحول، رغم
بعض وخاصة رغم حبة التعصب إلى متحضر صغير. مخزن صغير
مستحب، مؤثراً بشكل جيد، يخلد جزءاً كبيراً من الحبي. لقد
عشت كثيراً إلى جانب الأشقاء الأربعة ليجعلوا من عملهم تجارة
قابلة للاستمرار، ويستثمروا تزويجهم المغامر. الأرقام مفرحة
والإمكانات ممتازة، وعلى الذي القصير ستكون التجارة رابحة
قبل نهاية العالم. لا ضير من ليل أرباح على الأرض، بدلاً من
العداوى في الأخيرة. إنه حساب لمر الأمد، على الأرجح لا
يعرف صحته إلا يوم موتنا.

سحينة الصعجاء

ممل سوء طابع بالنسبة لبعض الناس. وسنة ومحمد
من الآخرين بالنسبة لي، اكتشفت العمل من جديد بعد
من سنوات من السجن، واعتقدت بأنه ليس سوى
بلاخرط في عالم لم يعد عالمي.

عند ألا نسي لنا كما ملاحضتي ومراقبي، وأنني
مادة في محوت، مثقفة، من ذلك الحومان من الحق الأكثر
عند حق كسب القوت، انكسرت على العمل بتلدد، مناسبة
أسي، أو جلّه لأتفرغ لتصوير تلك الأفلام الإعلانية التي
حدث مظاهر قصايا في غاية الأهمية تركي المال لا مبالية،
لشيء انكبت على كل مهمة كنتها، مهما كانت بسيطة،
لو أنني أرسل في البحث عن القوال.

بفضل تدخل الشخصيات المهمة الكبيرة في أعمال
السمعي البصري الباريسي، انفتحت أبواب لعالم المهني قبل أن
تغني أبواب البلاد أمر لأعيش سياتي في بلد آخر ولكن
سرطه أمير المؤمنين نقطة، ومن بداية أوز تصوير حصص له
عصالي. جاء « الأس الإقليمي »، وكانت مصادفة، بقلبي في
سجلات الموططين إنهم يرتابون في كل شيء وفي جميع الناس.
على كل حال، الأمر يتفق بأحد مشاهد فهم فرنسي - إيطالي،
من يدري، فربما يكون كل هذا وكراً لجواسيس، خطراً على
لبنظام، على البلاد، على الميت.

En3aM

www.rgwlty.com

* رادع - استعجم يسوع المسيح أثناء القضاء الشرقي، وفي فقرتين السبع عشر
و ثمان عشر، قصص المعتقد من روايات القروسية أصل البحث عن القوال من قبل
فرنس الملك برتر - الصرحم

- مسألة أمن وطني، شرح للمنتج بمدة بوظن بو
عينا خلف نظارتين سوداويين.

كل يعلم حقيقة أن ليس التقنيون الإيطاليون ولا المجر
الفرنسي هم من يفلقون السلطات، ولكن القلب العربي الـ
أفقر، أوفقر، مرادف الصمت والنسيان. اليوم أيضاً يريد
القلب كطلقة بندقية، والخال أن طلقات البنادق تجدي
الشرطة، التي يكون قهها، كما هو معلوم، إعادة الأمور
نصاها.

ليس لابة أوفقر أي شيء تفعله - حرية - خصوص
تصوير فيلم، ماهيك عن اتصالها مع أجاتب.

لغرض ما تزدودوا باستمرار على مسرح التصوير، حلس
خمالو البنادق جواً من الرعب غير ملائم تماماً للفيلم. فلما بر
الخوف، مع أنه العنصر المثير للمعرب، مسوك لأيمانج في
الفريق، الموهقين بالتهديدات الخفية التي تضغط عليهم دون أن
تكون معلنة بوضوح. أمّا المنتج المغربي، فقدس كن في ذروة
الدعوى، وعلى الرغم من الاستقبال الحار الذي حصي به وسط
الفريق، فقد انتهى بصرفي عن العمل بمجموعة دراع واهية.

- نتفقون إلى الخيرة، قال لي وهو يرتب مقتاته، دون
أن يتجرأ على النظر إلي وجهاً لوجه. ثم أن الباليات قد
خففت.

أخذ التمرّد بتلايبي. بعد سرقة عشرين عاماً من حياتي،
يسرق مني حقّي في العمل (لا أحسّر على الحديث عن

لأن هذه العبارة مستفرض أسني قد ارتكبت
واحتجت من جديد إلى كل الضغوط الخارجية للفك
لعدة لسياسة ولإعادة ديجي بالفريق.

يسعدني أنك قد عدت إلينا، كذب المنتج، بانتصام

En3aM

www.rewity.com

مهمة.

علمت فقطة بأنه أرغم على إعادتي، وأن تهديدات
الاعمال المالي قد أخفت بلا شك التهديدات بانتقام صرف بلا
دعة أنا أعمل، فليكن، ولكنني أعمل لأن أحدهم أرغم على
طغي من الصعب في هذه الظروف الدويان بلا تصبر في
العالم، والاقتداء برملاي في تمنانيهم في العمل. كما أنه من
الصعب، وقد وقع ذل الطرد من العمل ومن ثم العودة إليه
تحت رحمة الضغوط، توبخ أولئك الذين يضطهدهم النظام..

لكل عملية تصوير، ولكل تحرك، تجد الوكالة نفسها
متشحة بنباس الدرك وبالبوليس السياسي. وكمديرة للإنتاج،
يبهي عمي طلب تراخيص التصوير من المحافظ، ومن المبرك
ومن القائد (والذي يوازي المختار في المعرب، رغم لقبه
لكريقي على الأذان الغربية)... وجعلت رؤية هذه الطلبات
موقفة باسم أوفقر أكثر من واحد منهم يتفخ من مكانه

هبط الليل باكراً على الدار البيضاء، وأمتيت الوحيدة هي
العودة بعد غار طويل من العمل المضني. ولكن قبل بيتي بضعة
شوارع، وقفت سيارة BMW فارغة سوداء اللون في منتصف
الطريق. عملت متبه السيارة للمرة الأولى، ولكن دون

«لا من أن أطلق العنان للعدو المطلق كنت أشتتُ حشدا من
عصور من حلال اسمي كان الجنرال أوفتر الكني السود،
بخدمه واحدة منه، ليستطيع أن يصغر والسدها المقسوس إلى
حجم حرقه تافهة، كان يكلمي أن يعرف الناس أبي ابنة الآن
عاد والذي موجوداً، والنظار الصغار شقوا كل دقيقة من
دقائق الخمسة والعشرين عاماً من شباني المسروق، وما من أحد
سيعني على الوقوف على قدمي.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الكثرة في العمل، بدا لي أن
الأبواب تفتح أخيراً أمامي، ليس تحت تأثير الضغوط أو
التهديدات، وإنما ببساطة لأن قيمتي المهنية قد عُرِفَتْ لم يَضَع
معمي الجريء، رب عملي الجديد، للسلطة، استقبالي،
واسمع لي، وامتنحي مهتماً فقط بقيمة عملي نأثرت به
ودمعت عيني؛ فمنذ زمن تقاذفني الأيدي كحطب مزعج
بغاية

— أنا أوظفك لقيمتك لا لشيء آخر. أهتمين؟ لا شيء
آخر. وإن كنتِ عديّة الجدوى، سأصرفك من العمل!
في تلك اللحظة، شعرتُ بنفسي إنسانة أخرى. إلا إذا لم
أكن قط شبيهة بنفسي...

لا زال السجن يتقل علي، مثل ظل غير مرئي. رغم
الاردهار المهني الطفيف الذي حملته أعمالي وسط الوكالة،
لارلتُ لا أطيع التشوش، وانتهى جو التصوير بهماكي.
صحيح، وأصواء، واللوان، وصرحات، وصعق نفسي... كم

حدوى. وللمرة الثانية، والثالثة، حاولت مباداة السائق لـ
سنة الممر فحاة، انفتحت بوابة السيارة، وبرل منها رجس
متوغداً بشابيه استيخ. وبذلك الطريقة الفريدة في نصب
الكثمين، عرفتُ العسكري، كلب حراسة الطام، الذي لم يفتح
برته المدنية الخيدة التفصيل من الستر عليه ولإعادي لصوائ
أخذ يستقي، وهو يلوح بي بأوراقه العسكرية بازدهاء.

En3am

— إنك لا تعلمين من تواجهين

www.rzwily.com

أجل، أعرفه، أعرفه كثيراً. كل تناقض المعرب يكمن هـ
بالضبط، في تعسف السلطة هـ الذي يعارض بشدة مع
الشعور بالتعاضد الذي يثير شعبي. الرجل كولوبل، وينصو،
ككل الصباط بأنه يتمتع بسلطة شبه ملكية، ولم يتواءم عن
قديدي بالأسوأ. الأسوأ؟ أه لو أنه كان يملك أدنى فكرة عما
عشته.

للمرة الأولى، لدى عودتي إلى البيت، أطلقت العنان لما
كنت أتمتع به من نفوذ لأحد رجل الـ BMW من شاربيه
أصبحت تعذبات السلطة لا تُطاق بالنسبة لي، ومع احتمال أن
أمارس واحداً من تلك التعذبات بمسلي لإعادة جلاديس
الصغار إلى نصابهم، سأفعل كل شيء لكي لا أعود معرضة هذه
التعذبات.

ثمّة حكاية كهذه، فقد كانت ابنة مقسوس في السابعة
عشرة من عمرها أخرجتني من صالة سينما كمسحوفة في ذلك
اليوم، كنت لا أزال واحدة أخرى، وكنت قد استسلمت.

أعضاء الفريق غير الضروريين لحس سر التصوير؛ من
 كان عملي الإنتاجي قد أعجز. يمكن أن أسل قيادي

لأمام الملا متاهية التي قد تأتي، للهواء الحار جداً الذي
 به يتنفس هوباً. نارجيلة الله العملاقة هذه تمنحني
 ولدت، أفح دراعي لأشعر بريح الصحراء تبع نياي.

قد تكون السيدة التي استقبلتني قد ولدت قبل ألف عام.
 شيء في هيتها أو في وجهها المحدث، يشي بعصرنا. عباها
 حلا اللون لقرط الصياء، ويدها دانتان وصقيلتان، وكان

ممل قد قرضهما. حينما دعني لدحول بيتها السراي الذي
 بده ظليل عذب، شعرت وكأن الرمس يعيدني إلى السوراء.
 عابا الشاي، والوجبات بل والصمت أيضاً، جالستين على

سجاد عذ مغيب الشمس. قلنت من ظهوري على « المائدة
 أنظمة»، التي تقدم عليها مع دلت صوان مدتهشة من الفاكهة،
 وموالت كاتو، وأطباقاً صيفية طازجة شعرت بمسي على

أفضل ما يرام عند العائلة التي استقبلتني والتي قصبت معها
 الوقت الأكثر صفاء، ذلك الوقت القليل الذي لم يطلب فيه
 حصوري للتصوير.

إذاً، قولي أنك أحببت هلتن ارفود، قال المخرج
 مسحراً.

في الواقع لم تكن نتوقع وجود أسرة « king size »، التي
 يمكن لثلاث رجال بدينين أن ينامو فيها فأردن أذرعهم. ولا
 بازات صغيرة مليئة بأنواع المشروبات، ولا قمائم من المرمر
 ولا واليات ورقية من تلك، التي تجب المرء أن يصمغ ردهيه

مرة رعبت في أن أقفز إلى سياري، وأقودها في وجهتي هار
 مستقيم، دون أي هدف سوى أن أذهب بعيداً»

وجدت طريقي مصادفة، أثناء تصوير وسط صح
 الأطلس. كانت الشمس تستع الرباط قوية بحيث أعلن
 درجات حرارة هائلة لدى وصولي. لدى الانطلاق بس

الرياحية الدفع المليئة باللوازم، لم أتقبل للحظة أن كل كبد
 أقطعها يقريني من الصفاء... هدف الرحلة: ورزازات وارم
 نوع من هوليود صحراوي على الطريقة المغربية. لا يصا

السائح الباحث عن الغرابة عينيه وهو يرى ذلك: كل
 النتائج الأمريكية الصخمة، مهما تعلق الأمر بالصحراء
 بالمساحات الواسعة، استدارت إلى ها، على بعد خطوتين من

القرى الجرداء التي تزار على ظهر الحمل. إنها هاتمك
 لورانس العربية، على مدى النظر أمام أعيننا. ارفود آله
 عملاقة، أستوديو تصوير في الهواء الطلق حدوده الوحيدة تحوم

الصحراء. يغطي مدى هذا العدم، بانتظام، بالشاحنات
 والهوائيات، والحيام، وإدارات الإنتاج، والمسايط الصوتية.
 والذلاجات. يُنكلم فيه بكل اللغات، العربية والإنكليزية طبعاً.

ولكن أيضاً الفرنسية أو الإيطالية.

- أيزعك الإقامة عند السكان؟

En3aM

www.rgwlty.com

- على العكس!

كنت، في آن واحد، فضولية بقاء الناس البليدين ومتراحة
 بالتخلص من عبء الجو المكهرب للرحلة تستقبل القرية

حيث جلس آخرون قبله. لا ترتبك الصحراء بالكُماليات حتى ما هو ضروري غائب عنها، والعرب أن الضروري يعدو فيها فائضاً.

— ماذا فعلت، من دون تكيف؟ كنت أسأل وسط الندوة العذبة لمكاتب الإنتاج.

— يجب أن يكون المرء هناك ليصدق الأمر، ولكن لم أحتج إلى التكيف.

لم أحتج إلى أي شيء آخر لا سيما وأنني لم أشعر بالقلق لأنه تلاشى في رياح الصحراء، وبدأ أنه عارمٌ على أن يدعي بسلام وهدوء طيلة إقامتي في ارفود.

أهل الصحراء مقلون في الكلام ولكن مرور الأيام تأسنا، مضيقاً وأنا، بعقم وتبادلنا رؤانا المختلفة هذا حول العالم والحياة. المرأة التي أصبحت صديقي لديها أربعة أطفالاً صغار، علاوة على زوج وأمّه، أتكدت لي بأنّها كانت في السابق أجهل نساء القرية. اليوم، لا تتحرك السيدة العجوز بوجهها المختد من الركن الأكثر رطوبة في الدار، وتكتفي بعر العلس الذي جلبناه بالأكياس.

شيئاً فشيئاً، تحرّات على أن أسألهم عن رأيهم في هؤلاء العرب الذين يغزوهم بانتظام والذين يستخدمون صحراءهم كديكور مسرحي. كنت أكاد أصعب الأسئلة والأجوبة عليها لمرط ما شعرت بأنني أفهمهم. العرباء؟ يفضونهم، طبعاً. كدت أقسم على ذلك.

لا شك أنني وحدي، وقد أظهرت نفسي منفتحة على ثقافتهم، بحثت من قسوة حكمهم. وبعد قليل، قد أعدّ الحاجبة الوحيدة من الحجرة التي سوف لن يتوانون عن ارتكابها فيما لو ذهب، عرضاً، الفريق بعيداً في تدبّس تربتهم.

ولكن صديقة البدو صدفت... كلاً، لا يكره مضيق الغرباء إنهم فقط يلومهم تأساً على عدم دعوتهم لكي نعدّ في فلما! لأنه سبق وأن شارك الرواح والفتيات الأربع وحـ الجدة في مقدّمة ما يقارب عشرين من فيلماً أمريكياً. أه مقتنيات الممثلين الصامتين القرية مفتحة على البدو وسكانها يستلذون تاذية الأدوار الثانوية. الأجر جيد (ك شيء سبي) والحوّ لطيف، لشاهد من قبل العالم، وتقدّم لـ أشياء بسيطة. لماذا يحرم المرء نفسه؟ كما أن الحياة ليست دائماً مسخرة في الصحراء، والموارد شحيحة...

لم أعدل عن دهشتي إلا عندما أخرجوا لي صرة من الأشياء النافية، علاقة مفاتيح، قداحات، قبعات، في-شيرتاد أغلبها مدموغ بلوغو إنتاج سينمائي صخيم. شرحوا. بافتخار، بأنهم قد مثّلوا في هذا الفيلم وذاك. مع هذا الممثل ذاك (مع تشويه بسيط في لفظ اسمه) بينما لا يشاهد شخص في القرية التلفاز.

ربما صديقي امرأة الصحراء، وهي تشير الصـ والصراحة، هذه المرأة التي كنت أظنّها متحررة إلى الأبد من العبودية الطوعية للبشر الأحرار، تلقي في الظلّ غير كـ الجمات المبتدئات اللواتي يحلن على مكاتب توزيع الأدب

أملًا في الحصول على دور صامدٍ لتأج سينمائي ربيع. نكر بساطة، مضيئي من الرواد القدماء مولود.

- هذا يفاجئك بعض الشيء قالت لي مع ابتسامة En3aM
www.rezawity.com
ماكرة.

لم تعد تتكلم عن ذلك، ولكني تيقنتُ من أنها أدركت في لحظة ما كان يجول في خاطري. فذكون معادة على أن تقدم دمية مصورة لكل تقني السينما كم واحدًا من بينهم، مثلي، أخذ صورها إلى بلاده، وهو يبين لصدقائه أن أهل الصحراء قاذبون من عالم مختلف جدًا؟

- أتعرفين أن ابنتي تزوجت من إيطالي، قالت لتنتهي الحديث معي.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

- أشكر الله في كل صلواتي، وإنشاء الله، مستزوج الثلاث الأخريات من أجنبي.

- إنشاء الله.

لم أكتشف حقيقة هؤلاء الناس، بتناقضاتهم ومفارقاتهم، إلا من تلك اللحظة. إنهم على ظهر حسان بين عشرين؛ يستعملون واحدًا مهمًا للترويض الآخر، دون أن يفقدوا شيئًا من مروءتهم ولا من نزاهتهم إنهم أظاظ، وأذكاء، ومتحفظون وقلوبهم ملؤها الدفاء والخيبة. لم تستيقظ عماريتي في أية لحظة، لنمنعني من العيش إلى جانبهم لحظة حقيقية

بعض بعض ما فاتني. الصحراء شرققة بالنسبة لي، فصاء بعدد من حكم البشر، يحتمي فيه الخلود إلى تنفس منتظم. حينما سهر الفريق أمتعته، تاركًا الأطلس يستعيد معلمه، عرفت بأنني أعود. لأن العالم صغير للغاية ليقطع المرء عن الأماكن لم حبة التي يشعر فيها بأنه يعيش.

بعد بضعة أشهر، عدت إلى الأطلس بساتر وانفعال، وهذه المرة، في إطار حملة إنسانية. جلست، برفقة صيادلة بلا حدود، في المنطقة لنوعية السكان بمشكلة التراخوما، وهو مرض يصيب العين قد يؤدي، إن لم تتم معالجته، إلى العمى. خمسة عشر يومًا في العراء وسط الصحراء تلت رحلة مضنية، وجعلني استشف من جديد عالمًا مثاليًا، هادئًا وقاسيًا في آن، البيئة الوحيدة - بجمال حيائي - التي وجدت روحي الراحة فيها.

القرية التي زرتها، جافة، فظة، ومهيبة كسكانها في ساعات ذروة الحرارة، تدوب ضواحيها في تشوش مهدش، يحجبها سرايا متدفقا يلهب الخيال. كان الأطفال والنساء، الذين كنتُ يعاطيهم دروسًا في المدنية (بعد عشرين عامًا من السجن، إنها لسخرية جميلة) أجل ما شاهدته أبعاري. عيون واسعة صافية على بشرات نحاسية تدور وكأنها تنبهما فضولا حينما تنتهي دروسهم (ساعة ونصف، يصغون إلي أتحدث، وهم الهمون جدًا للكلمات) بدأ درس الرجال، وقد تأثرت للاهتمام الذي رافق إصغاهم إلي. ما هم من أكون، ومن كان أي، وما نمودي. أعطوا قيمة للوقت الذي منحه لهم، فقط

حديديا، قالت، اذهبي ما

جولت، وأنا غيب الحيرة، أن أشرح لها أنني لا أستطيع
صحابي، أنها، وأنه ليس لدي أي سبب للذهاب بابنتها
بذل في أعمالي، استغنى حرج قديم، حرج الأم التي لم أكفها
- حديديا، ليس لدي ما أحعلها تحيا به، أنقديها، أنقدي
هذه عني الأقل

اختلطت الأفكار في ذهني، فكرت بإهمالي أنا، بغياب
مي، برعة أن أجعل طفلا بدوري، أكثر من أن أفكر بمصر
بلك الطفلة ذات الشعر الأشقر شبه الروماني، والوجه المسعور
الاسمر الداكن اخملق بعيبي واسعين رقاوين.

- شعرت أنك سأحديديا، تابعت الأم شعرت
بذلك، برعيتك.

دون تفكير، أحدث الطفلة بين ذراعي، ولكن لحظة ألفت
الفكرة، أحدث الصغيرة تصرخ دغرا، وتنتوي بين ذراعي،
وعرست أطرافها في رصفي

- لا أستطيع، قلت وأنا أعيد الطفلة إلى أمها إنها
تقتل حرك على الراحة.

- ستعبد

- كلا، لا أستطيع.

اخترت الطفلة الصحراء لو كنت قد استطعت، لفعلت
لشيء نفسه أنا أيضا، كنت سأحب طفولة كطفولة الآخرين.

لأنني منحتهم لهم. هل كان لا بد من العوض في قلب الصحراء
لأنني أخيرا الاحترام؟

النساء فتحات بالسواد، لا من أجل الاحماء من بعد
سجدهن من له منهن للنساء، وإنما اتقاء من معبر الصحراء
اللافح وأعطية رأس الرجال تصفق في الهواء كاشعة أحلام
شعرت أني حاوية ورائقة في أن. جمعت الحياة نسي طفلة
للصحراء، أدركت ذلك منذ الكيلومترات الأولى التي قطعها
في ذلك العالم الذي لا أفق له حيث تنجم الصحراء بأحاديث
وبالصمت تتسلل حراح الروح هنا أفضل من أني مكان آخر
ربما لأن الأحسيس تتقدم على الكلمات

بلدت بساء القرية، جالست جماعات عسى حذر
غضبة، وكأنهن شعرت بانها راي بعلمهن لأنهن يوحتهن إلى
الحياة والترحب كلما اقتربت منهن. أقرأن أيضا في روحي
كما في كتاب مفتوح؟ غير أن واحدة من يسهن غضت وجحات
صوتي، وبين يديها طفلة صغيرة. هي تلك التي أعطني ذلك
النبي الصغير للغاية، ذي الجمال المدهش.

- انظري، هذه ابنتي. ابنتي الثامنة

- إنها آية في الجمال، قلت لها، ليس لمدهشها،

وإنما لأن الطفلة تشبه ملاكاً نزل إلى الأرض

- عمرها سنة واحدة.

هزئت رأسي.

بعيداً عن بلخ القصر وأنهته، بعيداً عن أشباح السجن، تلك،
كاعنة في دهاء ذراعي أم لا أميرة ولا سحينة، فقط داء
صغيرة لا تطلب سوى أن تهدئت لتندثر الكوايس.

انطلقت نحو خيمتي، دون أن ألقت إلى الوراء، تاركة
خلفي تلك التي كان من الممكن، بزوجة، أن تكون ابنتي.

En3aM
www.rzwity.com

أَنْ أَكُونَ أَمَّا، أَخِيرًا

لن أصبح أمّا أبداً العظم. دوت الكلمة كأنها حكم
لعمي ترك السجن وسواساً حقيقياً للأمومة يسيطر علي.
لأن الولادة كانت الطريقة الوحيدة لأغدو امرأة مستقلة
أما، مع إيريك، جربت كل الطرق: معالجات هرمونية، تلقيح
صطناعي، تخصيب غير فيقرو، جماع في أوقات ومدد معددة،
عدة أكبر الأحصائين من بينهم د. ريتيه فريدمان في كل
أربعاء كنتا، إيريك وأنا، نذهب إلى ليج، ثم نحفي إحدى
شيفاني بويصة مجرد رؤية اللوحة التي تحمل اسم ليبي كنت
أعيش وكان قلبي يؤمني. على مدى ثلاثة أعوام، أبحر سباقاً
شاقاً في علاجات مضية، كان تأثيرها النفسي مفعماً. في بعض
الحظات، بعد صدور السجينة، كنت أشعر بتساؤل سدارني
بالأمومة، بحيث كنت أريد تقويض علاقتنا. شعرت بهلجاجة
التقويض الذاتي: شيء ما كالانتهار صمدت العلاقة الثانية
كان إيريك ملاكاً صابراً عرفت لأولئك السيدس محبوبا
لعشرين عاماً، إلا على شيء وحيد حرمانني من أن أكون أمّا

- لو أن أولئك الناس قد قتلوك، يقتلونك لمرة ثانية، قال
لي الطبيب المختص بالأمراض النسائية، الذي أصطر للغياب
عن دروس علم النفس في كلية الطب.

أمام وجهي المنقطر رعباً، عدل في رأيه:

- ولكن يمكن التبتني، كما تعلمين.

أعلم أنه يمكن التبتني، ونوال، ابنة أخي، أيضاً ستعرف

ذلك ذات يوم. لم أضف شيئاً على ما قلته له. الآن اتحدت بفردى مع شعوري بالذنب، ومع ذلك تبدو هذه الطفلة سعيدة إلى جانبي. لست أنها، ولست متأكدة من قدرتي على أن أكون يوماً ما كذلك. أنها، أختي مريم، فريسة نوبات الصرع مند سحسا، والتي تنقادها المستشفيات، في حالة صحة سيئة للغاية بحيث لا تحب الاعطاء بالطفلة. يعيش والدها في الزباط، ولكنه، للأسف، غالب في غالب الأوقات. ما العمل حينما تناديني نوال ماما، وتنادي ايريك بابا؟ اضطررت لأن أخبرها بأن لها أمان وأبوا. تعيش معنا الآن في ميامي. طبعاً، عوض الشعور بالذنب، الذي كان قد شذ على خيالي. لأن نوال بالمعنى الرسمي ابنة مريم وفواد، حاجة الطفلة إلى أسرة مستقرة. كنت وصية عليها في باريس، ومنحني والدها المنفصلين عن بعضهما حماية الطفلة، طفلة آية في الجمال ذات شعر مجعد، طفلة لعوب، حيوية، فتاة صغيرة عشقناها.

هل يمكنك أن أتى ذات يوم أن الطفلة التي تغط في نوم عميق في الغرفة بهية لرواق ليست طفلي؟ هل سأملك ما يكفي من الحب لأصبح أباه. أنا التي أحس ناسي في عاية الضمور واليباب؟ قرأت نظريات مبهمة عن غريزة الأمومة، تؤكد بأنها تنطوّر تدريجاً أثناء الحمل لتتبع مداها في هدبة سعة أشهر.

ولكن جرّبت كل الوسائل لأجد تفسيراً لذلك الحب الذي ينقصني. ثمة أمر واحد مؤكد: النساء محكومات بساعة عيدة، وأعشى أن ساعتى لن تعود تتحدّد الوقت أبداً.

هطل المطر على الحاديات الصليحة، وأنا أحت الحطى مسته يد نوال لم ترق في قط مشاوير العودة تمتد انت، هبوط السبل. في عز الشتاء. قصت الطفلة النهار عد أمها وأحبتها الصعبر الررس يشهد بذلك. كلما عدت سريعاً. كنت سبي ذلك سريعاً. الاثرع المطف للبت من أمها الذي غنله بك الربارات، المسافة التي تبلى بعيدة للغاية، المطر السذي لا يكف عن المطول كان ذلك عدما نحت من حلال انعكاسات لواحها، المسلة شيخ رحل قصير وسجين يسير حلقاً عن قرب في البلدته. اكتنبت عرافته بطرف عيني، ولكن سرعان ما بات واضحاً أنه يتعقب أسرعت، فأشرع، جامعاً كتفيه على رأسه، وكان دفعا شريفاً يحركه شعرت بحضوره، باقتراجه المترايد أحد فمي يخفق سريعاً، شددت على يد نوال كأنه سيترعها مني. وشئت بالأحرى تخفي. من حلال واجهة محبر للحادية، نحت. أقرب أكثر من أي وقت، بقمصه الريصي الفضفاض، وقلنسوته سرت قشعريرة في ضللي وهو يقترب جداً مني بحيث شممت رائحته المفعمة بروائح لغائف التبع.

دول أن أفقد رباطة حاشي، توقفت فجأة، أملت أن أخدع لعدو. ولكنه بدا أكثر مكرأ مني، تجاوزني لا مبالياً وتابع طريقه، للدرجة أنني تساءلت في لحظة إن كان حوفي المصاحني العفيف من كل شيء ومن أي شيء لم يصلني. عشياً ألفت قسماً كبيراً من الرموز السرية للبشر الأحرار، غالباً ما حدث لي وحطت حسي النية ببيتها، تحت الألسنة العسكرية لأرتقي بين ذراعي أول نبال قادم، لذلك اللطف الطفيف الذي يفضي هيته.

مع ذلك، لم تخفي فطري، هذه المرة: أبطل الرجل خطره، وتركه بدوره أنجازوه. ثم انقص على. هزت هزة عيمة كثر كانت حقيقي هي مقصده. تبيئت، متكررة خوفا. عما ك بطعم فيه، لأني، لزم طويل، بلا هوية. تحتوي هذه الحقيـ على أرزاقـ، وصورـ، ومالي. ومفتيح البيت، بالإجمال حيوي لا تترغ حياة هكذا، في رابوية شارع. ولكن كان للرجل راي آخر، وهزني موبخاً على أمل أن يراني أفلت فريستـ.

- ستعطيني حقيقتك، وإلا سأهاجم صيتك، نلت من بين أسنانه.

أحياناً، تكفي كلمة لتعير مجرى الأمور، لتحويل العريسة إلى غائب. أحلى الخوف، مُجَتِّناً في لحظة، مكانه لشعور من الشراسة العنيفة جداً بحيث شعرت وكأن محالاً تنمو لي. فجأة، كـت لؤفة، ذئبة، ذئبة. على طريقة الدابة التي قلما تقلع العيث بذريعتها.

- وقد ما قلته، قلت له دون أن أترك له الفرصة ليرة بكلمة.

En3am

www.gawity.com

لونه ضربة من ركبي في المكان المناسب على نفسه؛ دفعته إلى الواجهة الزجاجية، بقوة بحيث اصطدم رأسه بها. وبقيت أصبره، اعتباطاً، بكل ما يقع تحت يدي. بيد فقط، يقدم ومحقق تحت ثقل الحقد، أصبحت المعتدية وهو الصحيحة، لم أعد أشعر إن كنت أدافع عن نوال أم عن حقيقي أم - عن حياتي، لم يبق أكثر من تلك الموجة التي تدفقت في داخلي والتي

تكفيها سحق باريس بنفخة واحدة. كما في أفلام العنف لـ دنته التي عادة ما أنام أمامها، لم أعد أرى سوى أسواراً، مكاسات صونية تحت المطر، والشبح المتلوي على نفسه لذي يحاول الاحتماء من ضرباتي. أنا حيوان كاسر، سأنتقم حسماً يموت.

انتهى الرجل إلى العراز، دون أن ينال مراده. في تلك اللحظة، اكتشفت نوال، ممتدة أرضاً، باكية، متشبثة بعروقي هذا الحقد في الحال، الخبيث لآخيلها بين ذراعني. فبضع كلمات في أدمها هذا، مبددة رعب السدائق الأخيرة تلك. دأبت شعرها، بينما شدت نفسها إلي. من حولنا، وعلى مساحة لا بأس بها، حملق الناس الأحرار إلينا كهائم فضولية، مشدوهين وكان أملهم قد خاب من جراء النتيجة عبر المتوقعة للاعتداء. على المرأة الحرة أن تكون صريحة. ما كان ذلك سوى لإتاحة الفرصة لأن يعود المتسكع إلى بيته ويروي حكاية سُرعد عائلته الصغيرة. سيسهي في خطة عابرة عن الاعتراف بأنه لم يرفع إصبعه الصغير مخافة أن تأتيه ضربة غير مناسبة.

فتحت حادثة الاعتداء، عيني واسعاً على الأومرة، على بحر غريب، الأمر الذي لم يكن أي أخصائي نفسي قد نجح في تحقيقه. ربما ذلك العوص في أعماق الغريزة الأولية أتاح لي التحقق كم كنت والدلة الطفلة التي أرتيها، دون أن أدرك ذلك. اللبوات أيضاً تنبت الصفار المتروكين، ترضعهم وتحميمهم كصفارها. الآن أعلم أنه ليس من الضروري أن تنجب المرأة

طفلاً لكي تحبه، وأد كل من سيحاول التراجع نوال متى .
كذلك يقتلي في نفس المكان. كما أعلم أن هذه الطفلة
ستكر في حصي سيمكها أن تعتمد علي طويلاً إلى أن
جناحها.

أنا أم، وكنت أجهل ذلك.

En3aM
www.rewity.com

اسحب في الأربعين

الرجل الأول في حياتي، الذي كان لا بد من أن يجعل مني
هزيمة هبط على حياتي، بعد قليل من إطلاقي من

عمري 43 عاماً

اطوبو، إيطالي، جميل مثل أبولون، أشقر، شعره مجعد
ناعم الملمس، له لحية قصيرة. على قدر كبير من الفتنة
احمال إنه يمثل كوميدي، التفتت به أثناء تصوير الفيلم
بدي دعيًا، أحسّ ماريانا وأنا، إليه من قبل صديق طفولة.
مستشار ثقافي في السفارة، وقد التفتت به عند خروجي من
السجن

حرى التصوير في الصحراء، منح الفيلم مغربي وفريق
لتصوير فرنسي - إيطالي. احتجنا في البداية إلى بضعة أيام لكي
نأقلم، ماريانا وأنا، مع الحو: منذ زمن طويل لم نشاهد هذا
القدر من الناس. ففي اليوم الأول، جعلني رؤية كل تلك
الأحساد بلباس البحر مستمتعة بالشمس أرتمجف لو أردت
القاء واقفة، لكان علي أن أتمد إلى جدار أو عمود. وخلال
الحظات، تبلّلت ثيابي.

مع ذلك، كان ذلك المكان، بالسبية لي، الفردوس على
الأرض، ولكن كغالب الأحيان منذ إطلاقا، كان لدي شعور

En3aM
www.rewity.com

بأني دخيلة على هذا العالم خاصة هناك، وسط كل هذه السمايين المهمكين في العمل، ذلك الوسط الذي وقارته بعض الشيء، والذي كنت قد رعبت أشد الرعب الانضمام إليه، كان ذلك الشعور أقوى من أي وقت مضى قلة من أعضاء الفريق يعرفون من نكون، من أين خرجنا، مع أن نظراتنا الحزينة أثارت التساؤل لدى أكثر من واحد منهم.

كانت أختي ماريا أول من كشف الطوبى.

- هناك شخص جميل جداً مغرمة بك، همست لي في اليوم الأول

EnzaM
www.newwity.com

سألها

- كيف هو؟

- أشقر، عيناه زرقاوان، وله لحية!

أختي مجنونة. جميعهم شقر، وبشرهم برونزية، وملتحون. ولا يتقصدهم الجمال. ونادى سيهم «شخص جميل» أحمر استطاعت تمييزه من بين الآخرين. ودلّني عليه خفية بإشارة من إصبعها. فعلاً، إنه جميل. ولكن لم أر سوى نظراته الثابتة علي. ولو كان بإمكانه، لالتهمني كاملة.

بعد بضعة أيام من وصولنا، أقام المنتج حفلة شيبانيا لمناسبة عيد ميلاد أحد الممثلين. حينما وصلت إلى قاعة الطعام الفسيحة، كان هناك عالم مجنون.

أحاف الخشخشة، ولكن عني أن أرغم نفسي. علي أن هدئ عفايتي. كنت هناك، مترددة، حينما أخذت يد يدي بطف. ثم حرارة جارفة في تلك اليد، بحث لم أجد أية مقاومة. سابت أصابعاً برقة ثم شعرت بضغط شديد، وكان صاحب اليد، وهو يكاد يهرس أصابعي، كان يريد أن ينقل إلي كل من الدنيا.

التفت حينها ورأيت.

إنه الرجل الذي كانت ماريا قد دلّني عليه. ظل يرمقني ودائماً بمس الطريقة شعرت أنه قد خصني من بين الجميع وانطرب بشغف. عرفت أنني أقص على نفسي حكايات عمري 43 عاماً. ولي قلب فتاة طائشة ولكن، عيائه لا تكذباً يبدو هذا الرجل مجنوناً بي. تكمن صفة الحب إذاً في مكان آخر غير الكتب.

جذبتني نحو صالة الطعام، بصمت، ولكنني انسحبت حذرة. شعر بتعقّطي، فأحد كرسيين ووضعهم حول طاولة خارج الصالة.

جلسنا. ظل يحدّق في ذاهلاً. توارت ماريا. بقينا هناك، نحن الاثنين، دون أن ننس بيت شقة. كنت أرغب بشدة. فرفع ستره من كشمير أسود موضوعة على كتفيه ولقي بها مثل شال ثم وضع يده على صغوتي ومسدي برقة وحنان.

طلّلت أرغف ووغيت في ذلك. هاملت مع نفسي كلها كيف بي، أنا التي كنت من بين جميع أخوتي وأخواتي.

أمتلك « بين هالين » التجربة، وواقعة من أنني لفرط ما
رويت حكاياتي العشقية، سأصبح جراح جسدي أكون
حرساء كفتاة صغيرة فرقة، مدعورة، خجولة، تقف بعصب
من الفرح إلى الخوف.

بقي إلى جانبي، لم يفارقني. شعرت بحراوته، برقته. رددت
في نفسي أن هذا مستحيل. لطالما حلمت بهذه اللحظة، هكذا
أودت أن يكون الحب الذي يُقدَّر لي. عني أن أظفر بهذا الحب
قدّم لي انطوبو راحة من السيد الأبيض بدل جهنم
لحلاتي بالفرسية

En3aM

www.rzwily.com

هذه سنتُ الدفء فيت. قال لي.

على العكس. أرجعي الحمر من حديد. لنا لست معاد
على الشرب بهاية الكأس الثانية، وقد رأى حالتي. توقف عن
تقديم السيد إلي، ومذني بكأس من الكوبيك
ها. كان الأمر معاكساً لم أعد أحصل لمكان. كانت
حالتي سيئة. نهض.

- سأزافك إلى عرفت

متحني على سريري، بقي إلى جانبي بلا حراك. الفتاة
الصغيرة في داخلي كانت أكثر رهبة من أي وقت مضى
التورب على نفسي.

قرفص عند أسفل السرير ورمقي مطوّلاً

- ولكن من أنت؟ سألني. ومن أين أتيت؟ تبدين وكأنك

مدى كل يؤس العالم وشقاله في نظرك.

كزرت تهتت وحزقت وأخذت أنتحب بقي إلى
مضي حتى بزوغ النهار. شددت تقفسي إليه، وبكيت. لم أفعل
سوى البكاء.

في الصباح، نمت أخيراً. حينها استيقظت، لم يكن إلى
حالتي.

من أين أتيت، يا انطوبو؟ من مكان معتم وجليدي حيث
بهيت بالاستسلام. سوف لن أعرف الحب أبداً بالتأكيد.
ككل فتيات حيلي، كانت لدي بعض المصبرات، ولكنني لم
يكن قط حدية لقد أحببت أحداً. كان حبي في الساعة عشرة
برنياً كأني حبّ أول حتى كدت أن أعل خطوبتي مع شاب
طريف البقية نه في باريس. في سنة دراسي للماكالوريا. وقد
واظناً على المراسلة في بداية أسري، في تامنات، حينما كان
لا يزال بوسعة تلقى البريد ولكن سرعان ما توقفت عن
الكتابة إليه، رغم رسائله المتأخرة شعهاً، لم يكن يدرك شيئاً عن
وضعنا المنزلي.

لقد أحبني رجال بين الأذرع، وهموا لي بكلمات عدة
لقد عرفت ما كان يعنيه الرقص البطيء باسترحاء، وتقبل
صبي من نعد.

في باريس. عرفتني ابنة حاتي ليلى شاً، الممتنة المشانة
لعائقة الجمال التي هام بها لحظراً حاميها. كاتب وقتي سوات
الحمر. إلى آلان ديلون وجاك بون. عقدت مع كل منهما

علاقة غامضة، صداقة حب لم تذهب بعيداً. راعى إلا الشابة التي كتبها آنذاك، الخاطبة بالقيم الفاصلة، الحريم، شرفها. وإن كنت أحب الرقص والتسلية أكثر من كل سر أمانا، فلم أكن مستعدة لأخص أيها كان. ببساطة. أعرف بأنني سأزوج، ذات يوم ليس بعيد. كان كل هذا من قبل. قبل قرون وقرون.

في السجن، كنت عازمة بشدة، في حال اسعد للحرية، على أن أرمي بنفسي في سرير أول قادم لأنال فردس ولكن الواقع أكثر تعقيداً. ألتست معرصة للانكسار، في حين أنني لم أبدأ إلى الآن بالخطو على دروي؟

مع ذلك، لدي متسع من الوقت لأثقل الرجل البدن سيرف كيف يهزتي ويؤثر في. حسب الزواج، والحكايات التي كنت أرويها كل مساء لأخوتي وأخواتي، كان في الأحلام. مقاتل، حامل جوق الشرف، رماح بنغالي، طبيب بلا حدود، يدوي بعينين زرقاوين، روسي أبيض أو هندي أمريكي، جيمس بوند، طرزان، أو دكتور جيكاكو (بلا الشارب)، لأنه صفة السجين.

ولكنني كنت أركز على الحب العظيم أكثر من المتعة الجسدية كي لا أحبط المستمعين إلي وأضرهم بالكتب، وخاصة كي لا أحبط نفسي. كم من الليالي المعزلة، في تلك الزنزانة المعتمة، مستلقية على حشيتي البائسة، حلمت بأنني سأمارس الحب؟ في الصباح، كنت استيقظ بعنصري الحزن والمرارة.

تعلّمت ألا أفكر في ذلك، على الأقل ألا أكثر من ذلك، خشية أن أفسد أكثر. في العشرين من عمري، نسيت تدريجياً ما يعنيه أن أكون سبية ومشتهية. لم أعد أجيد الابتسام والضحك. لم أكن لرجل يرمقني فيشع بريق الرغبة في عينيه. تحلونني به ولم أعد أجيد الإغراء.

احتفظ جسدي، الفارق في الرقاد لزمن طويل جداً، بالهكاسات الضرورية للبقاء: الأكل، الشرب، النوم،

وتمّ ماذا؟ وتمّ، لا شيء آخر... لم يعد جسدي يشعر حتى حر. إنه معدوم من هذه الجهة، لدي كل شيء يجب أن أعلمه. ما أن تتركز نظرة رجل على حنايا جسدي، حتى تحمرّ في الحال وجنتاي، وترتمش يدي... أنا كائن ينطوي على معارفة تاريخية وهذا يؤلمني أعطيت الحرية المستعانة شعوراً غريباً بالدوار والفراغ. أحلم بالحب، بالرغبة، بالشهوة، وأخاف، وهذا الخوف يُغفلني. أجد نفسي مثيرة للرأه والشفقة.

لم أعد أعرف كيف أتحسّ نفسي. لأن شيئاً ما يقفز أمام عيني، وأنا بالكاد قد عدت إلى عالم الأحياء: الجنس بات كليّ الوجود. في المواقع الالكترونية التي أنشأها أثناء تناول العطور، في الإعلانات، في السينما، على المصصقات حيث فيات معرّيات، مهيّبات وأكثر شباباً مني يعرض أنفسهن على مرأى الجميع.

لا يُتَكَلَّم سوى عن « هذا » ولا يُفَكَّر سوى بـ « هذا »
أثناء غيابه، الوسواس الجنسي هو

القاعدة الآن، مسبباً الدَّوَّارَ للأقلَّ احتشاماً. غيّرت النفاق
اخلاعية الجليل المتنوّز وتركت حقّ الميَّين الذين يذعنون التهم
متحمّلين عنها

وها هو الوسواس يصيبني بلدوري. ممارسة الحبّ. في
الحال. فكّرت فيها بلا انقطاع. إذا كنتُ

صادقة مع نفسي، فإنَّ الرغبة السوية هي ما تثيرني وتحفّني
شكلي خاص. أريد أن أسمع الكلمات فجّة، رقيقة أو لاهية.
التي يهمس بها رجل وفان ومحتاج في أدن امرأة. أريد استعادة
الرمز الصانع. أكون امرأة أخيراً، ولكنني مدعورة يا انطويو

تعاقبت الأيام، أنا من حاولت تجنّبه، وليس هو. قدّم لي
زهراً، وعنى بافاروتي وشدّتي بخطوات واسعة في الصحراء،
عند مغيب الشمس. وذهبت للعشاء لوحداً. اجتمعت كلُّ
المقومات لكي أستسلم للغواية. ولكن فشلت.

هو، أراد أن يظهر بحجي. وأنا، أبحث عن هوية. توجّهت
اهتماماته واخراجه إلى امرأة حرة أكثر مني أنا السخية التي
لا معالم لي وبينما كان يهمس لي « ti amo » كنتُ أتساءل إن
كنتُ سأجيد الاستسلام أبداً.

حدث لي هذا مرّة وحيدة. حينما أدرك أنني عسكرة،
حينما شاهد ردّ فعل جسدي، بلغ في الارتعاش حداً ما عدتُ
استطيع التوقف عنه.

جلس

بكي

... ولكن ماذا فعلوا بلدي؟

شق عيني أن أروي له ما فعلوه لي. لأخبرني أنه هو من
حدث لي عن حياته، هو المطلق والأب لطفين الحزن

كنتُ واضحة جداً. حينما داعبني، أو حينما اكتشفت
جسده، انشائي الشعور بأنني أتصقح قاموساً. أعلم هذه اللغة
الجديدة كلمة بكلمة أجد وأفان فيها ولكن الإحساس بخدلي
يغيباه.

أشهد نفسي وأن أقوم ببعض الحركات. لا أحسُّ بأية
لذة. إنه مفرّغ أشدّ لعمري. أشعر بذلك، أرى ذلك أنا
مفرّمة بالحنّ. وهذا كلّ ما في الأمر. أعتقد أنني أشعر بأنوثتي.
ولكنني لازلتُ جد بعيدة عن الواقع. احتجّت للقاء أويك،
الذي يصبح زوجي، لأعرف ماذا تعني هذه الجملة معاً
الحقيقي

انتهى التصوير، ورغم الحيات المتكررة لعانها، اقترح
علي انطونيو، بمنتهى الجدية، أن يدسّني في إحدى شاحات
الإنتاج ليخرجني من البلاد سرّاً. ولكن الغروب الأوّل أفرع
مذحراتي من الشجاعة، ولم يبق لي منها ما يكفي هروب فان لا
سيما وأنّ العريق مخترق من قبل عسس الأمن. فمغرب الخس
الثاني لا تنظر بعين إيجابية تماماً لوجود الأجانب على ترابها،
يزيد على ذلك كوني على اتصالٍ بهم.

كلاً، لن أهرب مرة أخرى، لا إلى إيطاليا ولا إلى أي بلد آخر. ذات يوم سأكون حرة رسمياً، سيكون لي جواز سفر رسمي، وحبيها، سأختار مصري.

عدتُ إلى بيتي، في الرباط. عدتُ إلى الشقة الصغيرة التي أنقاسها وأختي ماريا، مقتنعة بأنه سوف يساني.

ولكن كانت قواعتي هذه تعبيراً عن سوء معرفة به.

هبط انطونيو ذات صباح باكراً في المطار. ما أن عرَّ الجُمُرك، حتى ارتقى بين ذراعي، وتعجب لفتوري. هذا لأنني لا أستطيع أن أخطر خطورة دون أن أكون متبوعة بشرطتي. طرأ أنني لم أعد أحبه، وبأن هناك أحداً ما في حياتي سواء. كيف لي أن أفسر له رتائي اليومية، والرقابة التي لا حدة لها؟ وخاصةً السجس الدائم المحصور في ذهني. كيف لي أن أقبله في وضوح النهار بينما جميعهم من حولي ويكتمون لي؟

خلال بضعة أيام، ازدادت حالات سوء التفاهم بيننا. إنه عيور، ويعتقي رأياً، لا أطيع الصراخ والهياج والتهديدات التوتيت على نفسي، وشعرت بأنني أمام جلالاً معذب.

انتهيا كلانا بالاسترخاء، فأضينا أياماً رائعة. ذهبنا معاً إلى السوق، ثم أخذ انطونيو يعد الطعام في المطبخ. يعد لنا عجائن وسمكاً وطماطم بالريحان، وكلها على طريقة نابولي، ويغني في الشقة التي تعوم بروائح السموم وزيت الزيتون. انطونيو مثل حقيقي، مرح، هائج، ذلئ اللسان. أحياناً متعب ولكنه يجتني. يصرخ لي بحبه بجميع الطرق.

تناولنا الغداء صحة ماريا، تحت الشمس، في شرفة صغيرة. وضعنا موسيقى، استرخنا، ذهبنا لتزفه في السوق. تناولنا العشاء أحياناً في المطعم. في الليل، حول باستمرار انطونيو ويريل قلاقلي

— انطونيو، هل أنا «طبيعية»؟

— لا تقلقي، لا يمكن لحد أن يأتي بين ليلة وضحاها.

اعتقدتُ أنني، معه، في مأمن، ولكنني أخطأت، لاعتقاد ذات صباح باكراً، في الساعة السابعة، دق رجال الأمن بابنا كانوا أربعة، اثنا لم يقولوا شيئاً، ولكنهما زرعا الشقة خطي بقنب، عتباطاً كل ما يقع تحت أيديهما، واثنا آخران لهما بالتوالي دور التوقيف والطريف، كما في الأفلام.

— هل تدركين أن والدك، لو كان حياً، ما كان ليقتل أن... أجي.

— أي شيء علي أن أصدق أن أداة النظام هذا تجرأ على ذكر أبي المقتول على أيدي رمالته.

شعرتُ بغضب رهيب يسري في داخلي تجاه هذا المقمق المحس الذي يجعل الأموات يتكلمون، حتى أقوى من الخوف — انتظري في الغرفة. قلتُ لانطونيو الذي لم يعهم شيئاً مما

يجري.

شعرتُ من نظراته الملعونة بأنه يخشى علي.

انتهر الشريو، المسترخي إلى ذلك الحين براءة في أريكة،

قوي لأنظوبو ليطلق صواعق الحجيم معني بكل الآء
سافطة، عديدة الأخلاق، عاز الإسلام، بينما الآخران، و
وجدنا نفسيهما دوراً إضافياً، يستلآن الحديث.

بأي حق أصبح نفسي أن أدس اسم عائلي بياوء و -
ليس روعي هل فكرت بأنني، بخير، بأسلافي، بدا ص و
انظونيو إرهائي ومدمن مخدرات وجاسوس.

حكم الظريف:

- هل تعلمين لو أن الإسلاميين رموك من الأعلى إلى
وسط الشارع، لا يمكن فعل أي شيء من أجلك...

بعد التلويح بالأخلاق والدفاع عن شرف أمي
متظاهرين بسيات أنهم حطّموا حياتي إلى الأبد- تابع لرحلي
الحديث عن أمي الخاص، وكذلك فمن هذا الرجل غير مسلم
الذي دس بخصوره هذه الأرض المقدسة التي هي لعرب
فقطع بي الكيل.

En5eM

- أمارس الحب مع من أشاء؟
www.rgawity.com

دوت كلماتي كطليق ناري، ثم ساد الصمت. دار الشريط
الممنقط مع ضجيج ركان خفيف. تنحج أحد الرجلين
- نعم مع من أشاء، وخاصة مع أجنبي تحديداً لأنه غير
مسلم.

- هل تعلمين ماذا يسمى هذا؟

- ماذا يُدعى هذا؟ طبعاً أنا أعرف ذلك! وإذا كنتم

هنا ساعنكم بقاءه. هذا يدعى بكل بساطة ثمارسه
مع كوميدي إيطالي شاب وجميل، شخصية

يملك الرجلان الوقت للذة علي حتى ارتفعت في
الهد. بعد سال فيص من الكلام في. سريعاً جداً.
هنا أياً جداً حتى لأظن أن عمرياً قلنكي لقد أحد
أر ساي، امهي، حياتي، أي، هويقي، أحلامي، نومي،
رحي. واليوم يراد م بقي لي. أو على الأقل ما يعتقدون
في بي لي. كلاً. حسدي يخصني وحدي. إذا كان
محباً أن شيئاً ما لا يزال يخصني.

هذا. لن يؤخذ متي. ولأبرهن على ذلك، حدثت بلا
ضّر بأن أرمي نفسي من الفتحة لوهلة الأولى. كدت لأن
اصتق بأنني قادره على الفرح من الشاك، فم أعد أطيح وجاه
لظعيان. وطاة هذه الدكتاتورية المتوحشة التي تتسلل حتى إلى
سرير من قررت تحطيمهم.

= طيب. طيب. اهذهني. قل الطريف بصوتٍ قاطع،
مشيراً إلى الآخرين أن يخرجوا.

ارتجفت على شرفتي بشدة كورقة شجر، عرفت تماماً أنه
يخوف بدوره، من أن يضطر لتبرئة نفسه أمام رؤسائه من لطحة
سيوموه عليها لقد أعطيت لهذا الرجل صلاحية أن يمس
حياتي، أن يؤهني، ولكن لا أن يقتلني لو كانت الفكرة السيئة
راودتني بأن أقوم بالقرفة الكبرى لانقلب الآلة الحسمية صده
هو وعائلته واسمه وشرفه.

بما هيبة. لقد عشت من الخسوع أكثر من أن أرتضي
مد رجل، والحال أنه سيأتي ويخضع دليلاً أمام الدكتور
ادافاني سجنه ومحرومة من جوار سفر وتعين إقامتي لا
سيتأتى ملة إرادته ليقاسمني حياتي كسجنية مع وقف
سند أفلا يفهم أنني أريد عكس هذا أن يأتي رجل، كما
سعمل أيريك، ويتشلى من هنا؟

En3aM

www.rgwlty.com

مد ذلك الحين، بدأت أكرهه.

لا أفهم شيئاً، أنا أحبك، قال متعسراً.

لا شيء يعني فهمه، يا أنطونيو المسكين، لم يُخلق أحداً
لآخر لشهور بعد ذلك، استمر الاتصال بيننا، وخاصة من
جهة في الفترة الأخيرة ولكننا عرفنا نحن الاثنان بأنها نهاية
علاقتهما.

تجربتي الثانية حصلت مع شاب عارض للأزياء في الثانية
والعشرين من عمره، جاء إلى المغرب من أجل تصوير عرص
كان صديقاً في غاية الجمال، ذو جسم رياضي. كيف يمكن له أن
يُحب في أنا العجوز؟ إنه لغز. أو أنه ربما تصوّر أن حبرتي
ستذهب به مباشرة إلى السماء السابعة، المسكين، لو كان
يلدري...

استعمل صديقي الجميل جميع الوسائل لأتلقى به في غرفته
في الفندق. وليس في مكان آخر، لأنه خطر عليه تعديداً أن
يقترّب من المغريات أثناء إقامته القصيرة في البلاد. ولكنه لم

- مستصرف، ردّد ذلك ثلاث أو أربع مرات
تشانين، لا شأن لنا بك

انفلق الباب عليهم. العناق جيد. خرج أنطونيو بعمل
الغرفة، أقل جاذبية مما هو في العادة.

En3aM

www.rgwlty.com

- هل كل شيء بخير؟

كلا، ليس كل شيء بخير. بكيت. مرة أخرى، أفسدوا
كل شيء.

بقي أنطونيو بضعة أيام أخرى، ولكن السحر تحطّم،
أعد أطقه. لدى عودته إلى نابولي، ظل يهاقني باستمرار، وهو
يعدني بأن الأمور ستتظمّ عماً قريب...

إلى اليوم الذي أخبرني، متألقاً، خيراً عظيماً.

- مليكة، سأترك كل شيء، السينما، مهني، ليس لكل
هذا أية أهمية. انتحني مهلة ثلاثة أسابيع. الوقت اللازم لإي
أعمالي، وسأتي للإقامة معك.

- في المغرب؟

- نعم، في المغرب. إذا لم يكن بإمكانك معاداة البلد، أنا
ض سيأتي إليك.

أساءت الحياة التصرف. للحظة، أخذت أزدري هذا
الرجل البائس، المستعدّ لترك عمله للعيش إلى جاني. لقد
تحسّب لكل شيء: سوسم على أقمشة وبيعها. إنه يتقن صنع

يدعفن.

بعد نظراته المتقدة وابتساماته المبهمة، حزني قلبي

En3am

www.rzwily.com

ومع ذلك لم أتوقع أن يفتح لي كتاب عاريا مثل دودة

- ادخلي.

كانت الصدمة الأولى. ارتقيت إلى الداخل مذعورة من فكرة أن يكون أحد ما قد رأي، أو رآه، علاوة على البتة من أن الوقت لم بعد للأعالي الإيطالية عدم غيب الشمس أكثر أربع في الجنس" اعتقدت أنني سأحصل على بعض

فصمت على سريريه، مرتجيا، فأردأ ذراعيه. فتحت درج طاولة السرير، وأخرج منه واقيا ذكريا، ومده إلي.

يا للهول لا أعرف كيف أستعمله بدلت جهدي حيال الجراب الصغير، دون التحرز على رفع عبي سابل حيائي لكي أختفي. أنوارى، انتفتحت في مكاني وكانت حركاتي مرتبكة جدا، بحيث انتهيت إلى غريق العلاف والوافي دفعة واحدة

تقمت، اعتلوت، ارتبكت.

أسرعت والوزيت في الحمام. كانت يداي دقيقتين. وصعداي يخفقان بشدة شعرتُ معها أن حجمي مستحظم

عد عودتي إلى العرفة. رأيت شريكى يمدني بالواقعي الثاني مع ابتسامة مريحة.

- لا تلتقيه، فهذا هو الأخير!

أنا، أنفذه؟ آية فكرة توخيتُ العايدة به، عناية فائقة بحيث لم صره، أخذ الجراب الصغير في يدي، ووضعته بسلا. ساعدني وأنا بقيت مرروعة في مكاني بلاهة، أحد يدي، وصعبي بقوة على ذكره بقيت متنتة في مكاني سلا حراك. سان نفسي عما قد يمكنني أن أفعله بيدي السري بطر إلي. درستُ في عييه أنه كان ينتظر شيئا آخر من امرأ أربعيه أنا. يا، فقد كنتُ حاوية، بلا إرادة، يستعرفني لخل، والشكون والصداع. سوف لن أعرف أبدا أن أمارس ذلك

أرحي تدريجيا يديه عن عاقي، وحاول أن يوحى إلى يدي حركة لم أقُلها، ثم قَدَل ساقطاً على السرير، متهددا.

- لا طائل من هذا.

لن يكون هناك طائل من هذا وأنا أول من أعرف ذلك. سيعود إلى وطنه الأم أمريكا دون أن يفهم شيئا عن المبريات من جهتي، اقتعت بأن لا شيء ولا أحد سيعوضني حياة مفوتة.

سوف يجعلني أريك، بعد ذلك بضعة أشهر، أكتشف خطأ قناعي تلك إدا كان هو رجل حياتي، فذلك ليس فقط لأنه فتني، كما في الروايات العاطفية الرديئة، أو لاني أنشعر بأني سوف لن أعيش إلا كصيف إنسان حننا بمفصل. فهذه

En3am

www.rzwily.com

لقد عرف أريك أن يجد المفتاح الذي نزع بضربة واحدة الرتاح عن قلبي. بحج حيث فشل كل الأطباء المصابين. لقد أعاد كتابة الوصفة المفقودة أبدا، سطرًا يسطر جعلني أكثر

من مجرد امرأة: جعل مني امرأته.

قادته رحلة مدبّرة من العناية الإلهية إلى المغرب، حيث التقينا أكثر الجهولين من الناس الأحرار، أثناء حفلة روم وهو لا يعلم بعد أن ذلك سيكون بالنسبة له بداية طريق شابه طويلة، لأرسلت أريدها لنفسه كل يوم كما لا أعلم أنّها الحسور الطويل بابتسامته الماكرة، والذي يصغرنى بأحد عشر عاماً، سيكون هروني الوحيد والحقيقي.

أعلم فقط أنّه لم يطرح نفسه كفار أو كآسر للنفوس وأنه لم يعرضني ولا للحظة إلى الخطر. امتدّ حديثنا حتى مطلع الفجر. دون أن تشعر بمضي الوقت. ضحكنا من كلّ قلبي. لم أصدق ذلك بنفسه. لقد خلّقنا للتلقّي: يتكلّم العربية بطلاقة - عاش كلّ شبابه في لبنان - إنه وديع، ودود، طريف، رقيق، ذكي، ساخر، إلخ.

إنّها المرة الأولى منذ إطلاقي التي لا يتحوّل فيها لقاء منفرد برجل إلى عتيان وهموم. معه، لم أشعر بال خوف - إنه الوحيد الذي جعلني أشعر ذاك الشعور بالأمان - شعرت في الحال بأنّ هذا الرجل سوف لن يخضع لتأثير أيّ ضغط كان.

شعرت بقوة. واستشعرت لطفه. عرفت في الحال أنّه سوف يحمي لما أنا عليه فعلاً، لا لما أمّله. حينها، بدا لي أنّ كلّ شيء طبيعي جدّاً حينما أكون معه، بحيث سيطب لي السذهب معه، بلا يصرّ، بعيداً عن قلاقلتي وشكوكي.

في ذلك المساء، آمنتُ أخيراً بالحب. ولكن، للأسف، لم

كنت تلك هي حالنا احتاح إيريك إلى شهور طويلة من الصبر والشفق لكي تتكرّر حالة العمة العائرة تلك وتمتد. ووصي بدرجياً أحد وقته الكافي. وإن كنت حق وأنا معه، لا أزال حد مثقّة في الشعور بالاطمئنان، فقد ردّد بلا كلل بأنّ هذه ليست سوى لحظة عابرة...

من خلال اللمسة، واليد، وطريقتي في الحديث إليه، والجلوس إلى جانبه، أدرك في الحال أنّي كنت طفلة متكرّة في هيئة امرأة، متمرّدة تخفي ألمها. أمضى ليلاً الأولى في مسداعني ولم أبد أيّة مقاومة.

قادي، شيئاً فشيئاً، دون أن يعاجلني، إلى ما كنت أعقده مستحيلاً إلى الأبد: اللذة.

خلال عام، قام برحلات متتالية بين المغرب وفرنسا. وليكون أقرب إليّ، أهداني هاتفاً نقلاً. وكنت من أوائل منّ اقنائه في الدار البيضاء. حتى أثناء غيابه، أشعر أنني محمية. أسمع ذلك اهتاف يرن من عشر إلى خمس عشرة مرة، في اليوم، وأكون أقوى امرأة في العالم. بعد الآن، هناك في حيّاتي منّ يمكنني الاعتماد عليه، إنه درع أمني. قبل أن أعرفه، كنت يتيمة، وبعلاقتي به، حتى حينما لا أكون إلى جانبه، أصبح امرأة أخرى، أصبح متألّفة مع ذاتي إذا كانت لكلمة الحرية من معنى أبدي، فذلك من خلاله ومن خلاله وحده.

راققت إيريك في طريقتي الطويلة نحو إعادة الانسجام مع نفسي، دون أن تمن عزيمته. حينما اعترف بالإخفاق، يبدعني

هذه ولكن نبات وحيثما أكون فب الإعياء والإحباط
مستسلمة. حينما أحتاج إلى أن أتكور على نفسي في
انتظار أن تعني الحياة، وحده هو من يعرف أن يوفني
قدتي ويدعني استسلم له.

- سنتال ما نريد، قال لي مع ابتسامة مطمئنة.

نحن. لاسا اتان. وهذه هي المرة الأولى التي أكون فيه
واحدة من اثنين. ايريك من هؤلاء الرجال الذين، بدل أن
يكبحوك، يبعثون فيك القوة التي تحتاجين.

ليست لدي سوى تجربة قصيرة في الحياة الزوجية، ولكن
يبدو لي أن التجربة نادرة. سأخلق به إلى آخر الدنيا.

لقد برهن لي، من خلال الانتقال إلى ميامي من أجلي،
بأنه هو أيضا سيلحق بي إلى هناك، إلى آخر الدنيا.

هذه هي المرة الأولى التي يقضي فيها ايريك أعياد الميلاد
في مراكش. وددت أن يكون ذلك مازالتون المداعبات
والملاطفات أمصبا ساعات طوال في قلب سوق المدينة عند
بناحي الأعشاب الطيبة الذين طالما أحببت وفقتهم.

عرض أحدهم علينا نبات مزهرة صغيرة استعملها
أسلافنا (لم نخلق القباعر بالأمس فقط) سلاحف قرمصة،
حرايات، « تعويذة بالنسبة للنساء »...

سأله إن كان لديه شيء ما لرجل. مجرد الحليث بحرية
عن الشهوة أمذي بارتياح كثير. لم يصدق ايريك، القادم من

صوّر فيه بأن المرأة المغربية تحفض عينيها في الحُل
حال

- الرومي معدوم؟ سألتني الشخص بابتسامة صفراء.

- لا، لا، الرومي ليس معدوماً تماماً. ولكن أريد أن تعطيني
إقامة الحفلة طيلة الليل. له ولي، أكثر قليلاً.

هز رأسه. وجلب من عمق حانوته الصغير مكوّنات
وصفة سلفية، مع رماد الضئع كمادة رئيسية، مغلما أكد لي.

تحت انظار ايريك المرتابة، طحن الحانوتي مجموع
المكوّنات وأفرغ المزيج في دورق.

- ها هو، يا خلوتي! ملعقة قهوة في كأس شاي له،
وملعقتان لك. وإلا... ستكون مشكلة!

وهكذا بدأت حفلة الشاي، منذ عودتنا إلى البيت.
كحيشاً حقيقية، أخذت حماماً معطراً، قبل أن أدهن نفسي
بالزهر. بصح فطرات من المسك في تجويف رقبتي. وشعري لا
يزال مبتلاً، والمنثر

متوخّ بلا مبالاة، دخلت دخولاً مسرحياً متفاحرة متباهية
على ايريك أن يعود إلى باريس في اليوم التالي. أردت هذه
السهرة، والليلة التي تكملها، أن تكون سهرة وليلة لا تُسيب
بينما

تناول ايريك ملاء ملعقة حساء من المزيج، تمذّدت على

«ما في حالة انتصب دائم» لقد راودتني الحالة في
الليلة، ومنذ ذلك الحين، أنا عاجز عن فعل أية شيء!
بعد فكري يرتجفي.

لم يبق إيريك أسلمته، إن جاز لي القول، لثلاثة أيام.
وإنه أنه لعني، من أعماق عزلته الباريسية، أنا وكل
مغاربي العرب، عما حققهم المصيبة، وتعييذاهم.
«مراهمهم المعيبة» لا يزل يشق علي التحيل أن منزرا
«أون كان ليكني، وحده، لجعلني مشتهرة، ولكن
مسحوق للدجالين ذاك ضم في قهر عزلة زبدة القول
السوداني الذي خلّب لي من مكان أجهله، والذي أمقته.

بعد بضعة أشهر من ذلك، أمته حينما أخيراً، في
فريسا، إلى وضع النهار. أعيش في بيته. أنا إلى جانبه في
كل ليلة، إذا تركني في الصباح فذلك ليتقي لي عني نحو
أفضل في المساء.

حلت ثورة جنسية، مسيرة بلسة، في العطلات
الأسبوعية المسروقة محل رعاية البعض وحكمهم البعض
الأخر.

ولكن طريق إيريك الشائكة لم تنته... عاد هوس
الأمومة، المكتوب لأمد طويل جداً، المكثوم، المحجوب،
بقوة ليحشر نفسه بين اللذة وبينها. لم يعد هناك شيء
سوى هذه الفكرة العبدية أن أنجب أن أصبح أمّاً.

مما، هذه الكلمة هي الأحب إلى قلبي من كل

السري، والمترد مفتوح، بلء ملقعة حياء... كالأب
الأعشاب قد قال ملء ملقعة قهوة، ولكن ما الفرق؟ عني أن
حال، لأكون واقفة من عدم التعرض لماعيل المريج، اسم
بنفسى ملقعة منه في المطبخ بعمري، قبل أن أضيقه إلى
مقعداً. لا ضير من الإفراط في اللذة، دون أن يحسب الرء بالء
ليس واقفاً من نفسه أبداً، حينما تكون له حياة موقرة.

تقدّد وجل حياتي بدوه، النوى رأسي قليلاً، تفوقنا
الرغبة في عمرة صيرة على الحمية الجنسية. غطّ إيريك ساك
في النوم، بينما انفلقت أجهلي على مشاربي عن ليلة محبوة

في الثانية فجراً، استيقظنا دون أدنى رغبة، اللهم سوى
الرغبة في ألا نعود إلى النوم. فأمضى إيريك آخر ساعات
احتماله المغربي بإعياد الميلاد في مرقص، متروكاً غير مصق
على حلبة الرقص.

طلع غار مشوش بالآخر والأزرق بينما تتكور لي سيارة
الأجرة التي أقلته إلى المطار. يُثقل علينا شعور بالإحفاق. سوف
لن تسبح الكلمات في التصفيف منه. بدت لنا هذه الليلة
الأخيرة، مع أننا نعلم بأنها لن تكون الأخيرة، فجأة أنها خطيرة
ومقلّة بالعواقب.

في الصباح التالي، بينما كنت أجتز عجبتي وبأسي، ونّ
الهاتف. إنه إيريك، قال فرحاً:

- أحزري ماذا؟

EnsaM

www.rzwity.com

- ماذا؟

الكلمات التي أعرفها. في كل لغات الدنيا، تعني الشيء ذاته: الحب بين امرأة وطفلها.

لأعتقد تلك الكلمة، سأكسر كل الأبواب خلال ثلاثة أعوام، أنا غير القادرة على أن أطلب طبقاً من عجة البيض دون أن يغشى علي، تابعت الفحص تلو الفحص.

أريد طفلاً. أريد أن يُنظر (لي) كأن، أن يكلمني الناس عن ولدي، أن يستهلوني بأسئلة بلهاء: هو في أي صف، أو هل طلعت أسنانه أو هل اشترت هذه الثمرة الصغيرة؟ أريد الدخول إلى النادي العالمي للمباراة الأمهات الحرفيات، اللواتي يقتصر عالمهن على الفانوس بصغيرهن الأخير.

أصبح الأمر عقلياً، علمياً. حسبنا الأيام والدورات والرووس والقيعان. انتهيت تدريجياً إلى أن أطرح على نفسي أسئلة مؤلة حول شرعية الزوجين والجنس وهذه اللذة التي يأخذها المرء هنا حيث آخرون يتجنبون

لم أعد أدري ما هو الصائب، ما هو الصحيح، كدت أكره من جراء ذلك رجل حياتي، الرجل الأحب إلى قلبي.

قبل عدة سنوات، أثناء تصوير، أحد الأفلام رجل إيطالي يدعى غوريك، يهوى المظهر الناري بالجرمة والسوط. قال لي جملة لم أنساها أبداً:

— أنت وأخواتك، وظيفته في الحياة هي إنجاب الأطفال.

يقصّ النظر عما إذا كان الرجل الطيب يحسن أم لا لمعهد عظيم لذوي القمصان السوداء^{*}، غالباً ما أقول لنفسي إنه لم يكن محظناً.

عاش ايريك تلك الدوامة التي قوّضت علاقتنا الثنائية دون أن يضطرب. دون أن يجيد، وخاصة دون أن يتحلى عس كفاحه الذي جعل متي، تقريباً عكس لإرادتي، امرأة حرة.

في ليلة زواجنا، حجز جناحاً فجعاً في فندق رافائيل، شرقيه ساحرة كما تحسم بها كل الفتيات. صعرات أم كبيرات مرتز بنون السلمون على السرير، كوعده حيث. راحة كبيرة من الشمانيا، ألواح من الشوكولاته، ستائر مُسدلة، أسوار حافتة، إنها اللعبة الكبرى في ديكور حالم. حيث سيجعل أصدقائنا من الجناح منزلًا مملوكاً كلياً حتى الخامسة صباحاً.

ففي الساعة السابعة تماماً، ايريك على موعد في المستشفى الأمريكي ليسك في أنبوب، البدرة القيسية التي ستعطيني. في السابعة صباحاً، في اليوم التالي لرفاقه...

— أكرهك، قال لي دون أن يفقد تلك الانتماسة التي جرّدتني منذ الأزل من أسلحتي. هذه أسوأ ليلة زفاف في التاريخ!

أعتقد أنني تزوجت قتيماً.

* ذكور القمصان السوداء - هو القالب الذي أطلق على أعضاء الميليشيات الفاترية الإيطالية بدءاً من عام 1919 - المترجم.

الحلم الأمريكي

كانت الولايات المتحدة تجسّد حلمي. منذ كنتُ في
سابعة عشرة من عمري والتافير القصيرة تجتني. وفي ذلك
صبي الذي يصعب جدًا تحلّله، أقلّ ما يمكن قوله هو أنني لم
مخّر فيها. قبل الانهماك في البكالوريا، تسلّلتُ إلى نيويورك،
سما تسلّلتُ فيما بعد إلى باريس أو الرباط أو الدار البيضاء،
لأنني بشلّة من بينها مارفن دايان، ابن أخ موشيه، الأمر الذي
وضع وزراء الملث في حالة ارتباك. عدا والذي، الذي ابتسم
للأمر. كنتُ قادرة على الخروج كلّ ليلة، دون أيّ شعورٍ لا
بالخطر ولا بمفاتيح الخاصة.

في لوس أنجلوس، واقفتُ لآلة نهضة، الشقيقة الصفراء
للحسن الثاني، وأستقبلنا في هوليوود: التقيتُ هناك — زازا
غابور وادوارد ج. روبنسون، وطبعاً على كتاب ماريو الرملية،
ستيف ماك كوين الذي دعاني لرقصة بوغي في صحراء
كاليفورنيا. كم هو بعيد المال كلّ هذا! القول بأنني لربما
كنتُ سأصبح ممثلة طُلقت مرّات عديدة على حافة مسيح
هوليوود.

لم تعد الولايات المتحدة، والحال ألقها تدعى الآن
أمريكا، تسحر الكثيرين من الناس، ربّما لأنّ العالم أصبح
أصغر، ولأنّ الطائرات تطير أسرع، والمرء لم يعد مرعوا علسي
الصراح في الهاتف يُسمع صوته من نيويورك ولكن بالنسبة

" هذا العنوان وُارد في النسخ الأصلية باللغة الإنكليزية - American dram
المترجم.

En3aM

www.rgwlty.com

En3aM

www.rgwlty.com

في. لم يتغير شيء وكنا الذي نُشر على نحو واسع في
الأوربية. شو علي أن أصدق الماسر، الذي كُندى
بقيل من الخط. سينغ قريباً في الولايات المتحدة كـ
أمريكا؟ مستحيل. مستحيل لقد سبق وصعب عليّ كـ
ألف حقيقة أنني أقرأ في أوروبا. حقيقة أن أساساً يهتمون
ولكن في أمريكا، هذا كثير، كثير جداً.

- هذا بسيط جداً، قال ناشري بابتسامة. سوف لن يُشر
هناك ما لن تقومي بعض الدعاية فالأمريكيون لا يسو
بالمراسلة، إنهم يريدون التعرف على البضاعة.

- سوف لن يتعرفوا على شيء البتة. من المستحيل
أن أذهب إلى هناك.

En3aM

www.r2wifty.com

- تصديقي عند كل توقيع، يا مليكة

- هذه المرة، الأمر مختلف. لا أستطيع، لن أذهب.

بعد ثلاثة أشهر، كنتُ في الطائرة، وفي رأسي كل الصانع
التي تُسدل لفتاه صغيرة تساق بمجردها لا تسي حوار سفر
استعطي بطفلك معك رتدي سرتك القرو، فالجو بارد في
نيويورك.

نيويورك؛ عرفتُ، والأصابع قابضة على جواز سفري،
الخط الأصغر الشهير الذي حلم مهاجرون كثر بحياتهم الجديدة
خلفه. ثم تتالي كل شيء: جئني للبحث عني، الملحق الصحافي،
والسائق، وسيارة اليموريين، وأمتعتي المأخوذة بأهداء غير مرتنية،
والتي وجدت طريقها لوحدها إلى صندوق السيارة أهلاً

شرح لي الملحق الصحافي مسبقاً برنامج الأيام القادمة.
وأعطاني بلا ترتيب اسم فددي، والششرة الجوية الخالصة،
والطريق الواح سلكها إذا أردت تأخذ مائة علامة بوعية
ومتمرة لم يقل السائق أي شيء، هذا طبيعي لأنه سائق، وقد
رأيتُ عسه في المرأة العاكسة من أكون أنا، حتى يغودي هذا
الرجل، بتدل. دون أن يعادل قط بطرقي في المرأة، شعرتُ
بالتقص في قلبي لفكرة أن يكون هنا من أحلي، ليحدمي،
وحتى إن حدثتُ طيبة شي، لم أعد أشعر بروح امرأة ثرية
كنتُ متضايقة، وددتُ لو أعتذر منه. ذلك المساء، كم بدلتُ لي
بعيدة المؤتمرات الصحفية في ليون أو ستراسبورغ، والجزل من
القطار حيث كنتُ أبحث، وحيدة أحياناً، عن سيارة أجرة
لتزلي أمام الفندق الصغير للمقاطعة دي القصة التالية حينها،
كانتُ أمريكا هي تماماً أمريكا استيهاماتي، آلة مرعبة وأحادية
في آن والتي تعطي وتحملي نحو مستقبل مرسوم ومحطتُ تماماً
أغلقتُ عيني، مبهورة بحير محرّكات، سمكتني أن أكون
نجمة، هذا المساء.

- من الطبيعي انجيء لاستقبالك، انتم الملحق الصحافي يسعدنا أن نستقبلك.

- سأعود حالاً تراحين لبعض الوقت، قال صوت الملحق الصحافي. الذي جاء يشوش من جديد سر أسلتي الميتافيزيقية

لأننا أصبحنا في الفندق، حيث جاء سارع بلباسي أخضر يفتح لي البوابة، بينما وضع آخر حقاني على عربة كبيرة مذهبة. أهلاً وسهلاً Welcome، مرة أخرى، good evening madame أعدت مساء يا سيدي، ووجهت نحو مكتب صبح حيث جعلني بواب متصنع لي لباسه وكأنه أمير وينز أن أوقع استمارة سار كل شيء سريعاً، صُغت علي المتابعة. كان هو الفندق مدوّحاً: فهو واسع، بأكمله من المرمم والمرايا. يمر فيه عدد هائل من الناس، مستعجلين، حتى يُحال أنه باحة محطة فاخرة.

أخذ جواز سفري (لمرة، لم يكن لدي الوقت لأقلق بشأنه)، وأعطيت لي بطاقة أشبه بطاقة ائتمان أكدوا لي أنها متاح. وصحبي رجل آخر قصير يرتدي اللباس الأخضر، وكذلك عربي المذهبة، نحو المصاعد الأربعة، المذهبة هي الأخرى. توقف المصعد الأول، المتجد والمثبت بنحشب الأكاجو كسيارة ليوموين. ثم وصلنا إلى العرفة التي وضع فيها الساعي أمتعتي قبل أن يتمنى لي طيب الإقامة. أمريكا هي البلاد التي يتمنى الناس لك فيها أكثر أشياء كثيرة هنية. هنيئاً مريئاً، إقامة

هائلة، وصولاً هائلاً، عصيرة هائلة، سهرة هائلة. لو كان جزء يسير من هذه الأميات يتحقق، لكاست أمريكا بالتأكيد الفردوس على الأرض.

- أين جهاز التحكم؟ سألته مدعورة.

- هنا، يا سيدي.

- آه، شكراً.

يتقن الرجل الطيب عمله، فبعد تحقّقه من أن تشغيل الجهاز يشغل بالي بعض الشيء، استغرق الإلمام بدقائق جهاز التحكم الباريسي شهراً كاملاً من وقتي، شرع يشرح لي طريقة استخدامه. هنا، لتغيير القناة، وهنا لقائمة القمر الصناعي (القمر الصناعي؟ هانذا ذا في عالم جيمس بوند!)، الصوت إلى الأسفل، توقيف التدوير إلى الأعلى، ما تبقى لا يهم.

وضبط التكيف؟ زوّضتم مثبت على الجدار، مع درحات وأرقام في كل مكان منه. وركوة القهوة؟ لا أجد حتى استخدام ركوة القهوة. فشرح الساعي، بأنة، من جديد وأعاد الشرح مرة أخرى. أمضى ما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة، والابتسامة لا تفارقه، في تقديم التفاصيل عن تشغيل الصابير (ها اعرفي كيفية استخدام هذا القبط الذي يُدار ويُسحب في كل الاتجاهات حتى الحصول على درجة الحرارة المناسبة)، وعن البار الصغير (المقفل بالمفتاح، لا شدت لمعي من سرقة أي شيء منه)، وعن القواطع الكهربائية الست السهلة

المال حيما يكون في السرير، ابن الحزن الصغيرة
الخزنة الجدارية (خزنة يمكن إكناك روح من الطلبة
يسهوله)

خمس الحظ، بقي لي التلفاز المألوف والمكّن، لولا
أفرغ جهده في البث باللغة الإنكليزية هناك مئات
الخطات، وهي كثيرة جدًا لروح واحد من العيون، وكاف
لتملية أكثر المشاهدين صجرا. هُتم الرسامح، السند
الصغيرة صديقي، صديقي الأمريكية، الوقية والمنقوعة في
وهار! طوال يومين، باستثناء اللقطات التي كان الملحق
الصحافي يطني فيها ليدتي في ليومين، شاهدت النصف
دون أن أتحرك من عروفي في الحرح، هناك نيويورك المديسة
الكيرة الأسطورية التي تغدو بارس أمامها دسكرة ريعيه
احتجت إلى شهو لأواحه بارس وأعتاد عليها، بمساعدة رجل
حياتي وأصدقائي لا شيء في عالمي سيدفعني إلى أن أكتشف
بموردي التفاحة العظيمة، التي تنظ في الهواء القارس أعمده
طويلة من الحار، حارحة من أفوه المارايب وسط الشوارع
تبدو نيويورك تنفس تحت قدمي، وقد تزدردني لقمة واحدة.

أخيرا، بدأت «الدعاية». وأنا التي كنت أعتقد أنني قد
رايت كل شيء، لم أصدق ما رائه عياني.

— ستؤمنين في كل الأقية التمازية المعية، قيل لي أثناء
الموعد الأول مع الناشر الأمريكي.

أمام الآلة الإعلامية الأمريكية، استحال الدعاية الباريسية

هذه ريعية نيويورك علانية، عُنُسَتْ فيها فجأة ككيس شاي
صغير سبب لي عدائي الأول مع Good Morning America
ساح غير أمريكا، عند شبكة CBS الدوّار، كان يجب أن أسأل
لطعام وأحيب على الأسئلة، وأتظاهر معرفة كل شيء، وأعبر
عن أفكارني بالإنكليزية! ثم كان راديو NPR، و Fox TV،
و CNN، (إنها المدفعية الهائلة)، آخرتي الدائرة الإعلامية
بفرح، بينما سيارتي اليموزين لا تهدأ ولا تنف ثابته واحدة
ولعدم إصاعة لحظة واحدة، يُستعاد من أوقات الاحتناقات
المروية لمواصلة العمل عبر الهاتف هاتف السيارة، ولكن أيضا
لقلال.. لقد وهب الله أدنين للمدقق الصحافي، بمحمده
عندهما كل يوم.

En3aM

www.rgwlty.com

Hold on a second.

وبالنظر إلى مفكرته، وتسطير وشطب وقب الصفحات
بعضية، عندما لا يكون «المنظم» جاهزا «المنظم» هو نوع
من جهاز يعرف كل شيء، حجمه بحجم عبة السجائر، ويُقر
بمساعدة قيمه صغير عمله يتكلم كدث أشتكي منه، ذلك
الجهاز الذي تمت محاولة شرح استخدامه لي لخمس عشرة مرة،
والذي يعاني من إلهاق مستمر. يُقر المنظم، ويُعاد نقره،
فينتهي بالروح بسره، يعطي كل شيء، أسماء، أرقام، تصوير
وأرقام. على ما قيل لي، يمكن دس محتويات قساموس في هذه
الأجهزة، والأفضل من هذا: إنها تصصح الإملاء، تماما مثل
أستاذ، أولا بأول، ما أن يُضرب عليها لقد صرفت النظر عن

فلتُ رموز هذه العجائب الفرعونية منذ أمد طويل ،
الوحيد الذي يهتم اليوم ، هو أن أحظى ببطعة حطاط ،
الراحة قبل أن تتوقف الليموزين من جليد ، وأدوم
خارجها ، ويؤخر بي وتُستألف النومة لا شك أنه في
جامعة نوتر- دام في شيكاغو ، كنت الأكثر تأثراً ، فقد كنت
حقاً نوبة من الغيرة أمام كل تلك الوسائل المدهشة الموصلة
بتصرف الطلبة . فقد وجب علي أن أقوم بوظيفة معلّمة المد
لأخوتي وأخواتي ، بواسطة محّلي وحدها .

من وقت لأخر ، وجد فريقنا الصغير نفسه في عي
الإعصار ، حيث يأخذ فرصه في مرح بعض الأسئلة على
نفسه ، ونحن تناول السدوتش حل أرسل الكتاب إلى أوبرا
نعم . ردّ ملحق صحافي ، ولكن لم تلق الرد بعد . رغم التذكير
لمرة أو مرتين .

- لابد من الاتصال بها ، قال الناشر بين لقميتين ،
ومقاعة الهاتف على أذنه .

كانت تلك هي اللحظة التي اخترتها لإبداء رأي ، ربما هو
الرأي الأول منذ أن رُميت في حفّة الإعصار . لأنني تألمت بعض
الشيء للخضوع الصامت الذي يجعلني بلا شك أسدو في
عيونهم امرأة بلهاء .

- الاتصال بها للمرة الثالثة؟ ولكن من تظن نفسها ،
تلك المرأة؟

استدارت رؤوس ثلاث نحوي ، وكأنني قد أهنت الرب
الأب .

En3aM
www.rgwlity.com

اوبرا وينفراي

أه . نعم .

نعم ، ولكنني لم أعرف من هي اوبرا وينفراي .
وَحَسْتُ ، في الوجوه المدهولة لرفاقي ، أنها شخصية
مدم لم أتقبل بعد إلى أية درجة هي شخصية هامة ، بكل ما
منه العبارة ، وكم سبيل لقاءنا حياتي .

لقاء غريب كاد ألا يحصل . في عام 2001 ، وأثناء ماراثون
بشقي ، تظّمت تينا براون ، التي كانت تدير حينها مجلة Talk
لصادرة من ميراماكس ، مأدبة غداء صحبة ما يقارب أربعين
مرأة نافذة . أعلمتني صديقتي ناتالي مارسايو بأن هناك حفلة
كبيرة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لصدور مجلة Talk ، وأن
اوبرا ستكون حاضرة فيها . وماذا يعني ؟ قلت لها . ومن تكون
هذه ؟ في ذلك المكان الذي صمّ في أدنى حد ألقى شخص .
احتاجني صحيح فطع كامواج صاحبة . شعرت بنفسي
كحيوان نادر سأقدم للبيض المتمذنين . فقدمت ، وحُشِرْتُ بين
أياد مجهولة ، شعرت بتعارف مصطنع بعض الشيء . مترلحة نحو
المائدة ، تحت امرأة معضلة أشارت لي بإشارة النصر « مرحى
لأجل برنامج ستون دقيقة ! » بعد ذلك بلحظات ، عادت تلك
الحارة الخاصة ودعّني للحاق بها . لم لا ؟ أسرع ، فاقده
الأعصاب ، إلى مربع الشخصيات الهامة جداً VIP نحو أريكّة
ناصعة البياض ، شاغرة من أيّ كان بشري ، والتي أذكرت فيما

بعد بأنها محجوزة لاوبرا كاتني أعدمت بالكرسي الكهربائي
فقطت ورحلت انضمت إلى جموع الرافضين. تعرضت امرأة
اقتريت في وبيرة حارة، قالت: «عداء، سافراً كتب
احدتي بين ذراعيها، وعمودة رائدة، كتعاهد بين
كورت: «أعدك بذلك.» لم تكن تلك المرأة سوى أوبرا

في طائرة العودة، حلمت بذلك البلد، بلد كل الممكيات
حيث لا سن البأس ولا العقم ولا السجن سيمعي من
حياتي لم لا؟ ولكننا بعيدون عنه كذا، بالتحديد، في حبي
كنت مع اريك الذي أعددت له طبقاً من اسكالوب بصلصة
كريميا القطر مع المعكرونة رن الخافض، كانت الساعة العاشرة
مساءً، أوه، كلاً، إنه صوت ناعم أبان عن نفسه باللغة
الإنكليزية. دعني أوبر إلى برنامجها، في أيار 2001. ستحت
الكتاب لتأديها، وللمرة الأولى في مهنتها، طلعت مني الحسوة
إلى البرنامج حيث سيكون علمي الرذ على أسئلة لجنة
En3aM مستفحة من بين أربعة آلاف مرشحة

www.rqwtly.com

التيه تحمر عنه وقائع الشر: باع الباشر الأمريكي ما
يقارب 700000 نسخة، ولكن ليس لهذا أية أهمية إذا ما قارنته
بالتأثير الذي كان يسود تلك المنصة.

حينما سأعود في عام 2002، لتسويق كتاب الجيب،
سيهيمس مشاهدان، واثقين أمام استديو التلفاز، لدى اقترابي
«هذه أميرة المغرب». وهذا دليل على أن المرأة لا يحسو من
قدره، وإن كان وهماً! إن إغراء الشهرة وقتي ورائل ولكن
الأمريكيين أدركوا أن لغة الألم كانت شاملة، وأن رجلاً أُعْطِر

كأن يضعك لعشرين عاماً في سجن للأشغال الشاقة، هذا امر
محاول الحدود. وجب علي أن أواقب أقوالي، لأنني لم أكن
أريد إطلاقاً أن يتم الخلط بين بغضي الشديد للملك وبين البلد
الرائع جداً الذي كنت أشجع الناس على الذهاب إليه.

الولايات المتحدة: لم أتوقف عن التجوال في هذا البلد
لعملاق كل شيء هنا مفرط فائق الحدود. شرائح اللحم
الكبيرة التي تكفي إصافة القوائم إليها لتصير أبقارا، وبالإضافة
إلى الكميات الكبيرة من البطاطا، حتى ولو كررت أن الطعام
الأمريكي لا يساوي هائل الذواقة الفرنسية، فأنني من جهتي لا
أرى في ذلك سوى فورة كرم. حررتي المخزون الشامل من
حجلي الباريسي: هنا، لم أعد أعجب أن أجمع، وصرت على
مرأى ومسمع من الجميع، وبمعرفتهم، الأكياس المحصنة
لإطعام الكلاب التي تتكدس في الفندق. سوف لن أتناول كما
في باريس رقائق البيرة ونصف شريحة اللحم أو البطاطا
الباردة.

ما دام علي أن أجمع، شئت غارة على المنتجات الصغيرة،
من مراهم وشامبون وعبدان القطن المشبعة للأذنين، وألواح
الصابون الصغيرة، التي تضعها أياد غير مريئة كل يوم في
حمامات الفندق. إنها جذابة للنظر، متقة الصنع، مدموعة
بشعار الفندق، مضممة كاتها لوازم دمية... لا بد أن تكون في
أمريكا حتى تحظى بترف يتجدد يومياً دون أن يُطلب منك
قرشاً واحداً. سرعان ما اضطرت إلى استخدام كيس نايلون
امتلاء بثلث الكنوز التي لا تتضب أبداً. إن اريك هو من
سيكون سعيداً!

سيكون سعيداً على نحو خاص بالمصير المذهل الذي
شهادتي تحت أنوار المسرح، متيحاً لي طرد من تقسّي لي
الغريت. الكتاب نجاح، زوّد ذلك على مسامعي كل
حزائي وقعت نسخاً وسط الشارع، وكان الكلّ كان
بعد أن حكائي. إنها هنا، إنها تاري، انتصاري، أن
وح العالم، في مواجهة الحسن الثاني ورغم أمه، بالعرب
أدلة لعائلي ولآلاف الناس الآخرين. اكسر الصمت له
دوت فرنسا أولاً، والعالم الناطق بالفرنسية، ستة وعشرون
في العالم، وأحيراً القوة العظمى أمريكا، بهذه الصرخة
أحييت اسمي، اسم والدي. ماذا بوسع أن يفعل هذا العالم
المطلق السلطة ليحيل بإشارة من إصبعه حياة عاتية بأكملها
جميعهم سجن؟ لا شيء. ولا حتى إجراء بسيط، ولا توقيع
عابر لا شيء. ليس بوسع سوى أن يُصغي إلى صوتي. القادة
من كل مكان، من نيويورك وغيرها من المدن، صوت أتقى
يكلفه بعضاً من الحسرة والتدم.

سلكت من حديد طريق باريس، محمّلة بالأكياس
والذكريات، حيث ينتظري من أزداد شوقاً إليه كل يوم. أنا
خاوية ومتحفة ومبهوكة القوي وسعيدة في آن. لحظة صغودي
إلى الطائرة، ذكرني إقباص حبيبي في قلبي أن جزءاً صغيراً مني
سيتقي في هذا البلد، لأنه يبقى بلد المقيمين والمهاجرين الذين لا
وطن لهم. أنا أيضاً، هبطت من Mayflower أو Exodus،
هاتين الباحرتين التانينتين، الملتين بأرواح حزينة، متعطشة إلى
إعادة البناء لم أعد أمك جذورا، وإذا كانت التربة الأوروبية

منه على من يحاول الاستقرار فيها، فإن تربة هذا البلد سهلة
والله، فريحة، تكاد تكون مفتوحة لكل من يريد أن يؤهز
فيها

سأستقل Mayflower مرة أخرى إلى ميامي حيث
سعدت هنا في هذه المدينة الساحلية، ذات المسحة الإسبانية،
خاصة من قبل المهاجرين من كلّ الأجناس، بأنه من الممكن
البدء من جديد، أكثر لما في لوس أنجلوس، التي لدي فيها العديد
من الأصدقاء. Ocean Drive: إنه حلم. وجدت نفسي فيها
نحلة جيدة، وبدا لي أن نفس التصرف أسهل هنا. أقمت فيها،
مع نوال وإيريك، مفسولة من ماضي، شبه عذراء، أعمل في
مكتبة على الكتاب الذي تفرّزونه في هذه اللحظة. انصم
إيريك إلي بعد عام من الانتقال. لا شك أن خطأي الوحيد هو
اشتغالي بالسياسة. تابعت الجدل بين جورج بوش وجون كيري
بوجوم. الغريب أنه لا توجد نفس الدرجة من حرية إبداء
الرأي السياسي في الولايات المتحدة كما هو في فرنسا، بل
وأحياناً، كما هو في بلدي، في المغرب. من لم يقرأ المسجبة
خفية؟ لم يكن بوش يُنتقد حينذاك. بعد 11 أيلول 2001، لم أكن
أعرف ما سيكون رد فعل أصدقائي الأمريكيين أيمكس أن
أكون مسلمة متطرفة؟ بعد ذلك بشهر، وخلال مؤتمر، كنتُ
مقتعة بأني قد أرفضُ بتهديد. مطلقاً: لقد صُفّ لي كنتُ
حرّة. الآن، ومنذ تبتّي آدم، أعيش بين ميامي ومراكش.

موت ملك

ظلّ الهاتف بلا حقي برلته، إلى أن التزعي من نومي. نحن
ل 27 تموز 1999. وما من شيء يسوع لي القول بأن جراحسي
سفتح من حديد دفعة واحدة رفعت السماء، تعرفت على
صوت صباح، التي تصل لي من الدار البيضاء لأجل السر
لاعظم صباح صديقي منذ زمن غابر، يمتد إلى أربع وثلاثين
سنة. لأنها كانت صباح، ولأنني كنت ملكة.

- لقد مات، همست.

مات! احتججت إلى بضعة لحظات لأستعيد أنفاسي.

En3aM

www.rzwily.com

- هل سمعتي؟

- نعم، سمعتك.

سوف لن أسأها، في آية لحظة، عمن تتكلم. أعرف عمن
تتكلم. داك الذي لا يلفظ اسمه، إنه ليس الله وإنما هو الحس
الثاني، عاهل المغرب، الذي كان ظله يحيم على البلاد منذ أمد
طويل جداً بحيث كان يُعتقد بأنه خالد. لقد برهن أمير المؤمنين
على أن ذوي السلطان يموتون أيضاً، وأن السلطة، وإن كانت
مطلقة، لا تحمي من الاستحقاق المقدّر. لم يمنعني ذلك، ما أن
أعلقت سماعة الهاتف، من العجز عن العزم على الإيمان بذلك،
فتمثال الفارس الأمر، المتبّيت عميقاً على قاعدته، بدا لي - كما
للجميع - أنه خالد أبداً الدهر. طيلة حياة، صقلت عليه ظوئي،
وأستلقي، وحزني وكراهيتي... أيمكن، في لحظة، بمكالمة هاتفية
وحيدة، أن يزول من على وجه الدنيا؟

En3aM

www.rzwily.com

في حاجة إلى التأكد من الخبر، إلى جعله رسميًا، إلى أن أسمع. تناقلت جميع محطات التلفزة الخبر، بالانكسار. عرض محطات موجة عن حياته، وبث صور من الأرض. الحسن الثاني شابتها الحسن الثاني كهلاً، الحسن الثاني عجموا. كان يرى في كل مكان، وأحلاً، في السيارة، حياً الحسد. الشرف، في الصورة الرسمية، مسافراً الكثير من المصاحبات. الغرب، في الشرق، في الشرق الأوسط، الكثير من الانسداد. المتحيرة على الشفتين، الدبلوماسية... يكاد المرء، وهو يسر. يتألمون في الإقاع النقطع للتقارير، يعتقد أن جميع قادة القس. العشرين يتقاطرون في طابور لالتقاط الصورة العائلية رفد. ملك المغرب. لم يرد بعد جثمان الحسن الثاني، حتى بات من التاريخ.. تم تصب التعليقات التي دوت في أدبي من المدح والثناء لهذا الرجل العظيم الذي تأسف عليه كل صحافي كاتب والده، وقد اختفى الصوت بتأثير إعلامي.

في اليوم التالي، منذ الساعة صباحاً، تواعد كل ما يضمه العالم الناطق بالفرنسية من وسائل الإعلام أمام باب دارني، مسببة خيبة أمل كبيرة لايوريك، الذي كان يفكر في تناول الغداء مهدوء في التروكوت، تحت شمس تموز.

- إنهم في الأسفل، قال لي باتيسامة منكسرة.

حقاً، إنهم في الأسفل، من TF1 إلى M6 مروراً بالتلفاز البلجيكي، والقنوات البرقية، والإذاعات وبعض الفضوليين، المتحدثين إلى العدسات كالتقارير إلى الأنوار. انقلت علسي الأسئلة. الأسئلة ذاتها، دائماً ذاتها.

- ما هو شعورك؟

ما هو شعوري؟ أنا نفسي أجهل ما هو شعوري. قلن بشأن انتقال السلطات، ومستقبل المغرب، ومصير مبدئي الباقي في البلاد. ولكن ليس هذا ما جاء الصحافيون لسمعه... لقد مات جلادي؛ فهم هنا ليروني أقفز فرحاً سحر كالصور التي سيبتونها تحت العنوان: «أوفير. تحريز» من «أرشي» من هذا القبيل. وبما أنني لم أدي أي نوع من الأرباح والسرور - لم أشعر سوى بفراع متشرب، فكيف ساظهر فرحاً؟ - جرت محاولة تقويلي ما يؤذن بهما:

- لا بد أن يكون هذا عزاء لك!

En3aM
www.rwity.com

- هل تشعرون بفلسك أحسن حالاً؟

كلّ، هذا ليس عزاء لي، كلّاً لا أشعر أنني أحسن حالاً. لقد تبحرت عشرون عاماً من حياتي في بطي الفول، لن يعيدها لي موته. ولن يعيد لي والدي. لقد مات جلادي ميتة رصية، في سريه، مع أمجاده، وجميع محطات العالم تنبه هذا الصباح.

شرحت، مهدوء، أن افكاري الوحيدة قبل اليوم نحو المغرب، وأنني لست سعيدة ولا حرة موت الحسن الثاني، وأنني أتتقن أن تصل البلاد إلى بر الأمان ولكن لم يُرَد أن يُسمع رأيي.

- ولكن، في المحصلة، لا بد أن سماع الخبر قد ترك فيك أثراً غير عادي

- أترأى عادي، نعم.
- في الحقيقة، هذا انتقام بعض الشيء، أليس كذلك؟
- كلاً أبداً.

رغبتي أن أضيف: «أسفة»، لفرط ما بدت عليهم
خيبة الأمل.

En3aM
www.rzwity.com

غادر الصحفيون، متعطّين كاميراتهم، خائفين، دون
ضحكات أو دموع «في جعبتهم»، لا شيء يترك أثراً عميقاً في
نشرة أخبار الساعة الثامنة.

كانت الحجة كبيرة لدرجة أنه بعد نفاذ جميع الوسائل،
استخدمت إربابي المرحزة لتأكيد أنني، وعوض أن أفرح بوث
الملك، بكيت به فيالسبة لوسائل الإعلام، إما أن يكون المرء
فرحاً أو مستاءً، ولا وجود للألوان الأخرى قرأت في
الصحف بأنني كنت أسعى لإرضاء الطام الجديد بإطهاري
حزباً شديداً بل إن صحافياً أكثر وقاحة من الآخرين انهمك
في تحليل نفسي بابه، مبرهاً، من حلال A+B، على أنني كنت
مرتعاً لتناذر* متوكهولم: الضحية المعرمة بالجلاد.

لا شك أنني كنت سأبدي فرحاً لو أن الحسن الثاني كان
قد أقر بأخطائه قبل لماته، لو كان اسم عائتي قد بُدِّعاً علانية، لو
أن الصورة الباقية للجلاد قد أعشيت بكشف انتهاكات النظام
وتعدياته. ولكنه رحل معطراً، منخراً، على محرقة حنّانية

* الشنار: تزامن عرض مروض من الأمراء - المتفرجين.

نكاد تكون وضيفة، يتدافع من حولها كل واحد لكي يظهر في
موقع مناسب فهذا سيحظى بوضع الأكثر محبة والأفضل
سهرة والأفضل خدمة...

(هذا الصديق العظيم لفرنسا)، (هذا الديمقراطي
العظيم)، حطب السياسيين، مظنين، الذين أملى أن يكون
عليه حكيماً كوالده...

تركي الحسن الثاني يتيماً من أمي، حرّدتني وفاته من
باعني الوحيد للكره والكفاح والتألم - ومع ذلك كان ذلك
الباعث هو ما أبنائي لرمي طويل عاتمة في قاع سحي حر
شديدة كلما انقضت الساعات، لأن موت أمير المؤمنين هو في
بعض منه موتي أنا. فريحله المفاجئ دون تسوية حساباته، دفن
معه فرصتي الأخيرة لأفهم لماذا؟ لظلماً أردت أن يجيب.
شخصياً، ذات يوم، على السؤال الذي راودني طيلة حياة
لماذا؟ لماذا نحن؟ لماذا أنا، التي كنت بمغاية ابنته؟

لن أحصل قط على إجابة لأسئلتني. وهذه الحسارة
الأخيرة، هذا الحرمان الجديد من الهوية - هويتي كصحبة
غادر الحسن الثاني ثنائياً من المسرح مع الدور السهل.

- طبعاً، أنت معارضة للملكية، مآلتي صحافي معنة
ريپورتاجات، على أمل أنني عني الأقل سأنهض النظام، إن لم
أرقص على قبر الملك.

حياة أمل جديدة - فقد علم بأني أؤيد مبدأ النظام الملكي،
لأنني أعلم كم هو ضروري لوحدة بلدي لم يعد الحسن الثاني.

لي ذهبي، لا أب ولا جلال، إنه شخصية عامة مفسولة ع
الجسد، تركت حلقها بدأ هشاً، مهتذاً من كل تجاربات الع
الغربي المازوم وعنفه لست مشبعة بالفكر الإسلامي الذي م
أن يتحني المرء أمام الموت، مجتمعاً عس النقد، وإنما عس
الاعتراف للقول الذي ختم طيلة أربعين عاماً على الغرب بأنه
لم يفعل سوى الشقاء للبلاد. فقط، لسو أن محمد السادس
يستطيع أن يظهر بأنه أقل دموية من والده، ويضع استبداد
والده وعسفه في عداد كوابيس الماضي، لربما يتمكن الظاهر
الذي ورثه أن يكون أفضل ما يكون...

— أفهم، قال الصحافي الذي أدرك في الحال بأنه سيكون
عليه أن يغذي نزعة التلصصية في مكان آخر.

En3am

www.rqwily.com

لم أرَ قط أثراً لتلك المقابلة في الصحافة...

لمرتين، سائح أب وأهل وسائل الإعلام، فحققت عني بما فيه
الكمالية لتختل في تعليقات أجهلها، فموت جلادي يتوفر على
كل شيء لاسترجاع وصولي إلى باريس: فقد جرت هذه
المراحل الكثيرة في حياتي دون تفخر القرح، وحتى دون عزاء.
جاء العزاء لاحقاً، تدريجياً، حينما بدأت الكتابة. لأن السورق
امتص كلماتي وذكراني، مريلة العباء عن كاهلي أخيراً.
ليست الأحداث ما تخفف عني، وإنما الكتابة.

الآن، وبينما يستعده العالم الكتيب لإقامة المسامح للعسن
الثاني، الذي لم يحط والذي قط يحق إقامته، آمن الكثير من
النظام الجديد. كلمة واحدة كلمة واحدة قد تكفي. ولكن

لا يتوجب على ملك أن يعترف، تلك أمورٌ مقبذة لعامة
الناس، لأولئك الذين يُرمون في السجن. إن منكاً، منه مثل
قاتل، لا يعترف بعدالة غير عدائه...

أما الشعب، فليس ميلاً إلى النسيان، وهذا ما يمنحني،
منذ سنوات طويلة، القوة في المزيد من الأمل: منذ إطلاقني من
السجن، عام 1991، كان رجال الشرطة يحجزوني باحترام عند
كل إشارة مرور، وهم يرفعون يدهم إلى مقدمة حودائهم أي
مفارقة أن ترى الرجال الذين كانوا في الأمام جزءاً من
حراستا اللصيقة، يقتربون مني وسط الشارع ليؤكّدوا لي
إعجابهم، وتعاطفهم المطلق مع والدي...

في كل أنحاء المدينة، توقف قوات النظام السيارات لتتح
لي المرور. لا شك أن بلدي هو الوحيد الذي يجتاز فيه المرء،
الخارج لتت من السجن، التقاطعات كشخصية فائقة الأهمية
VIP، دون تقيد بالإشارات الصوتية، تحت دقات صفارة رجال
الشرطة طعماً، هؤلاء الرجال يراعون نظام المحرر، الذي
يحكم المغرب، ويحدد عن قرب السلطة الإلهية للملث وحده.
لا يقتابون النظام، لكنهم يحثون باحترام ذكرى والدي، هذا
الوالد الذي أعدم من قبل العاهل الذي يخدمونه.

والمفارقة هي أن الانتقام الوحيد، التعويض الوحيد الذي
سيحمله إلي موت الحسن الثاني سيأتي من الحقل الذي لم أكن
أتوقعه. الصحافة. إن أسوأ ما يمكن أن يحصل لرجل دولة ليس
هو الميمة وإنما النسيان. والحال أن المغاربة يحيدون أكثر من
غيرهم الجوع إلى نوع قريب من النسيان: بالكاد مرت عشرة

أسابيع على موت الرجل العظيم، ولم تكن الصحافة تتكلم إلا مادراً. وربما لأنه دخل التاريخ، كان سبق وقد هجر حبر قبل انتهاء الحداد. ولم تعد تَهْمُ الصحف أين اختفى وجهه الصحيفة اليومية الكبرى للبلاد - التي كانت، أثناء حياة الملك، صوت الحكومة - تحرّات أحياناً على أن تنشر على صدر صفحتها الأولى إعادة النظر في القضية التي تحمل اسمي لا اعتراف، ولا اعتذار من القصر. ولكن الصحافة، المتحرّرة من الخوف الآن، لم تتردّد في أن تطلق، للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، باللقب الملعون لعائلي. وللمرة الأولى، شاهدتُ صوراً أيّ تنتشر كبيرة على الصفحة الأولى، في حين أنّ صورة الملك، في زاوية متواضعة تكاد تكون باهتة، صغيرة جداً بحيث يجب الاقتراب منها حتى يتم التعرف عليها.

En3aM
www.rewity.com

الولادة الجديدة

منذ بضعة أيام، وُجِدَتْ ترمامارت، لأنه لم يكن للترمامارت، الواقعة في جنوب-شرق البلاد بين ميدلت والراشدية، وسط الصحراء، وجودٌ رسمي. حتى أنّ برلماناً مغربياً، لا يعلم الواقعة، كان قد ردّ على سؤال لإذاعة غربية: «لم يكن هذا السجن المزعوم موجوداً قط سوى في خيال أعداء ديمقراطيتنا.» وبضربة عصا سحرية: العفو الملكي، افتتحت أبواب ذلك السرداب القظيع في عام 1999، ونجساً ثمانية وعشرون معتقلاً من النسيان، أي من الموت. كانت أعمال هذا اللا مكان قد بدأت عام 1971، مستودعاً للدخائر الجيش، وقد حوّل إلى حصن ضمت زنازانه الستون السجناء السياسيين. كانت الزنانات على مقاس مائل، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف، مع نَرف حجرة تغرّط وموضع قدم على كل من جانبيها. وصحن وغرفة وإبريق ماء، كان يُستخدم، في آن واحد، للشرب والاختسال وتنظيف الألبسة. البعض قصى هناك أكثر من سبعة آلاف ليلة دون أن يأحدوا قطّ دوشاً ساخناً. وحلّ آخرون، مثل عائلي، السجن في داخلهم

هكذا، بعد سنين كثيرة من حداد لا ينتهي لعائلات أولئك الذين لم يعودوا إليها أبداً، قبل محمد السادس بما لا يُقِل به، وأنا محمّة له على ذلك. نعم لقد أرسل إلى هناك سجناء سياسيون بالملئات، منهم عسكريو انقلاب تموز 1971 في الصحيرات ومتمردو آب 1972 (أنصار والدي). نجا منهم

ثمانية وعشرون فقط ماذا جرى للأحرار؟ تلاشوا، دهمهم،
منشوراً. هيا اعرفوا.

لحقْتُ بالطابور الطويل للسيارات الرباعية الدفع التي
سُحِبَ لها أحبارٌ بالذهب إلى أطراف المعسكر، مخوفة من
الدموع عيني. هالك على مقربة بصعة فئات من الأمتار من
المكان حيث داب أبائهم وأزواجهم وأخوتهم في الرمال
استسلم أصدقائي للمصي في حزمهم الأول الذي لم يكن
مصوغاً بالفضب. كم كان عددهم؟ العشرات، المئات، فليس
أسر الضحايا والجمعيات الإنسانية والصحافة لم يعد يُميز سوى
كان تصاممي، سلسلة من الألم. انتهى كل شيء، أحراً يبقى
الشروع في الخداد. وضعت المعركة من أجل الاعتراف بوجود
تزاممات أوزارها.

تزاممات موجودة، وعاد لجل ابن بركة صحة عائلته إلى
البلاد، وعاد إبراهيم صرفاني من المنفى. ووصع طياران ناحيان
كتاباً حول معسكر الموت، نُشر في المغرب. ورفعت الحقيقة،
شيئا فشيئا، غطاء تابوت مقل بأربعين عاماً من الطفيل يقي
حائبٌ وحيد مغطى بياس. ذلك الذي يخيم على عائلتي. لأنه،
لسبب أجهله، لم يجر الحديث عن رفع قانون الصمت بما يخص
«قضية أولقيو». ولا يزال كتابي -السجينة- ممنوع في المغرب
لا يزال يُنكر على عائلتي، بمقتضى التعسف الملكي، الحق في أن
تكون ضحية. وإلى متى؟ طيلة حياتي، ربما. يبدو أنني سأدفع
إلى الأبد ثمن جريمة لم أقرهاها. ولكن ما هم، فناري الأجل هو
هذه الحياة الجديدة التي لم يُعد من الممكن انتراعها مني، وإن
كانت اليمّة جدّاً.

ولكننا لا نألف بمقدونا علماً علوانياً. لقد اتشلفني رحل
حار من الجحيم؛ وعلمتني امرأتان العيش من جديد. امرأتان
ساعمتان ومختلعتان في آن، أدنين لهما بذرة الصفاء التي تكرر
ل يوماً يوم.

الأولى، هيلين نامير، وهي ليست سجنينة للمرة الأولى
لقط. ففي عام 1945، في سن التاسعة عشرة، كانت هذه المرأة
لاستثنائية تذهب إلى معسكرات الاعتقال المحررة لتزورها، لكي
تعالج وتسمع وتخلق الحياة من جديد عند أولئك الذين كانوا
يعتبرون أنفسهم موتى. منذ ذلك الحين، كانت على كل
جهات الشقاء، في كل مكان احتاحت إليها الأرواح
والأحساد الممزقة؛ ومع ذلك بقيت ذكية النفس، شفيفة الروح
كيومها الأول. دون ذرة من المرارة أو الحمية.

إنها هي من علمتني أن أتحمل الحقد والتمرّد اللذين كنتُ
أخفيهما بداخلي. هي التي ساعدتني على إطلاق صرختي
الأولى، صرخة أولية لولاها لكنت قد بقيت بلا شك عائرة
القوى بقية أيام حياتي. وبينما كان الغضب مستمراً، وبينما
كنتُ أحاول كظم الحقد المخيف داخلي بحفاة أن أعدو أسوأ
من جلادي، دفعتني هيلين إلى أن أعتبر عن نفسي بصوت عال.
حينها انتضحت الرزية أمام عيني: المشاعر الملتحمة، المكتملة
تستحيل حمضاً حارقاً وتنتشر شيئا فشيئا الأس الهشّة التي لا
تزال تستدني.

- إله أمر يبعث على الجنون، ليس لديها حقاً على أحد،
كان يُقال عتي، بإعجابٍ كاملٍ، طيلة سنوات.

وكنْتُ أمدُّ أحدى الأيسر، متشجعةً بمذائح أولئك السيدات
كانوا يضعون في مصاف الأم تريزا. ما كانوا يجهلون. واحده
هو أن الضحية التي امتنع عن الإفصاح عنها كانت تهك ح.
ما في داخلي، مستورة بأقوال كنت أريدها سلمية والخال لي
أعرف الآن، لما تعلمته من هيلين بامر، أنه لا يمكن للسلام -
يولد إلا حينما يُصفي المرء حسانيته الخاصة. وأنا واقعة في
شرك صوري كسجية، غير قادرة على إبداء أي شعور عفيف
كنت ألب دوري كضحية بدقة متناهية.

- اخرجني من ذلك، تخَلّصي من هذا الجلد الذي هو
ليس جلدك.

كانت هيلين على حق. الحق، ما أن يلفظ إلى الخارج -
تحت ويتلاشى، لا يتبقى منه في الحال سوى الإحساس بالنقص
على نحو أفصل، والحرية في الحب أو الكراهية، ليس بالمبدأ
وإنما بالاختيار.

لقد تخلى والدائي عني، كان سيلمني كل هذا الوقت
لأقول هذا. في الأربعين من عمري، أستطيع وأجرؤ على تأكيد
ذلك، لقد قطعت - بمساعدة هيلين - الجبل السري.

صاحبة الفضل الثانية علي تدعى اوبرا وينفراي، وهذا
الاسم لوحده يفتح، في الولايات المتحدة، كَلَّ الأبواب (
العروض الجماهيرية الضخمة تكاد تكون مفتاحاً سحرياً في
العالم آخر). الثقب في عالمها المزركش، ذلك العرس غير
العادي الذي تواتح فيه مثل القُرْشَة المنتشرة فيه. ولكن اوبرا

على القيص من أترابها: إنها إن صحَّ القول ١٠٪ من الإنسانية
التي تسبح معها الخطأت الكبيرة، كي لا نخضع عماد لنفاة
الربح إنها تقدم منراً للطبقة الوسطى. لصحاب الرعب
والظلم طبعاً، سبقها آخرون إلى فعل ذلك، وليس دنمسا
لدواع غيرية لقد شاهدت برامج لا تُعد ولا تُحصى كان
الشقاء يُشيع فيها، على نحو مريب، هم المشاهدين.

ولكن اوبرا ليست من أولئك اللذين يستغرقون في
العاملة. بعد الحق في التمرد، أتت بعد هيلين بامر لتعلمي الحق
في السعادة لأنها عرفت أفصل من أي آخر أن تكشف « تكتل
دور الضحية » في شخصي، ووزعت القدر الذي كان
يعني من الطموح إلى السعادة.

- هذا القدر غير موجود، أنت من خلقته.

أيتعلّق هذا بالمرحلة الأخيرة من ولادتي الجديدة؟ بقي أن
أكون سعيدة، وهذا ما يصعب عليّ كثيراً الانقاس به. في حياة
مقابلتي، قالت اوبرا جلة، ترون كل يوم في ذهني:

- قولي لي بآلك قادرة على أن تكوني سعيدة.

وفي ظلّ الانفعال المساعد، وتحت سحر مقذعة البرنامج،
ومدفوعة بالضغط الإعلامي، أحييتُ نعم تحت موحاة التصديق
والتهليل. دون تفكير بذلك، ودون تصديقي لذلك. أو ربما
مصدقة ذلك في لحظتها .. اليوم، لا أعرف إن كان بإمكانني أن
أكون سعيدة، فالمستقبل سينتج بذلك بلا شك، إلا إذا مرت

مجانِب السعادة دون أن أراها. أكاد أكون كذلك الآن -
الجميل الذي مثل دور دراكو لا لعشرين عاماً متتالية ودر
فريسة دوره، كان يام كل مساء في نعشه، وانتهى الامر بدو
في مشقه الأسود ذات البطانة البفسحية. التصق دو
كصحية مجلدي بشدة بحيث أخشى ألا يمكنني التخلص منه
أبداً. هل سأدوس في جلدي كسجينة؟ المراتان اللتان حضاني علم
الولادة من جديد أكدتا لي بأن لا. لقد محنتي هيلين الأسعد
لكي أعص، بالصبط، ودفعني أوبرا إلى أن أطرح على نفسي
السؤال الأهم. لا أعرف شيئاً عن قدرتي على بلوغ السعادة.
ولكن بالنسبة لهما سأبذل أقصى جهدي...

يوماً. أشاهد برنامج أوبرا، مع ذلك الشعور الغريب
بأنها تتوجه إلي وإلى وحدي. كتاب الطقوس هذا الذي يشع
أحياناً سحرية إريك، يمدني بالطاقة التي احتاجها للبحث عن
تلك السعادة التي غابت عني كثيراً. أحسُّ بأنني أعيد شحن
بطارياتي وأنشع بالطاقة الإيجابية لصديقي قلماً نتحدث.
ولكن برنامجها أشبه بموعد معها... يلزم الكثير في سبيل إيجاد
السعادة. فضلاً عن ذلك، يبحث الملايين من الناس الذين لم
يعرفوا لا السج ولا الرعب عن السعادة وفئانمل ألا يكون
هناك عددٌ من السامح المحبودة منها، دون صمان بالتحاح.

بكتابة قصة السجينة، أعرف أنني أتخلص من الشقاء.
أصبح طبيعية. إن صح القول. سواء كان هذا أسوأ أم أفضل،
سوف لن أكتفي بذلك.

التعويض

المال لا يعوّض ولا يُصلح ما فات. ومع ذلك، ومساعدة
الدولارات والعريكات والدرهم يضمد العالم حراح السدين
حظّهم. أهو خطأ قصائي؟ عشرون عاماً من السج لكوبي
أمة أي؟ إن شجكاً سيعوّض كل شيء في حينه. يحلّ الناس
الأحرار المال كثيراً للدرجة أنهم ينتهون إلى التصوّر، بكلّ حس
بته. إن بوسعه طمس كل شيء غالباً ما تساءلت كيف كان
يُظنّ ذلك في سبيل تحويل إجحاف إلى نقود. كم من المال
لقاء مة في المستشفى أو لقاء شهر من السجن أو لقاء ساق
ناقصة أو لقاء قريب ذهس بخافلة؟ كل شيء يُحسب، أكثر أو
أقلّ ثمناً، حسب البلدان، حسب المحامين. إنها لعبة لوي
الأدراع، الشاكي ضد القضاء، الأول ساعياً إلى ابتزاز أقصى ما
يمكن من المال من الثاني، والثاني بأذلاً أقصى ما لديه ليتم حتى
الستيم. الأكثر سحرية هو أن أفضل المعوّضين ليسوا
بالضرورة الأكثر تضرراً وإنما أولئك الذين لسديهم الخامي
الأفضل والحال أن الخامي، مثل اللين الراتب، أفضل حينما
يكون أعلى أجراً. والأكثر فقراً، الذين سوف يُساقون من
الخامي دي الآخر العالي، سيكونون الأقلّ بئلاً للعاية مساعة
التعويض.

في عام 1999، وبينما كنت قد يئستُ لزمن طويل من أن
أرى يوماً يجري فيه الإقرار بمسؤولية الدولة المغربية عن الخنة

القاسية لعائلتي، شككت لجنة هدف - أن يكون ذلك مناسخ
غير من الا يكون أبداً - تعويض ضحايا الطغيان. أو على نحو
أدق، لتقديم تعويض مالي إلى الذين دفعوا ثمناً باهظاً لقاء
الأخطاء» القضائية الكثيرة جداً لأمر المؤمنين.

وهكذا، للمرة الأولى، ظهر اسمي على قائمة للضحايا
وإذا استطعت المطالبة بتعويض، فلأن هناك حظيئة، إذ سيكون
هذا الاعتدال الوحيد الذي ستود المغرب أن تهمس به، بطرف
الشهاد، حواء سرقة عشرين عاماً متي. هذا قليل، ولكنه هائل
وإن وجب الانتظار إلى عام 2005، ليعلن بأن الإجحاف قد
رُفِعَ»، فإنني، أخيراً، صحة معترف بها، مافرة، ووسية.

من جهة أخرى، هذا الاعتراف هو ما دفعني إلى القبول
بالصدقة. وهو اعتراف يكاد يكون نداماً، فإذا كان قد رفع
آخر حائل بيني وبين الحرية، فقد أعفى كذلك جلادتي. بشمن
زهيد، من مسؤوليتهم القبول بالمال الذي غرض علي. هو إلى
حد ما إعلان بأنا متعادلان. العول وأنا. والموقف الذي سلمني
الشيك لم يشك في ذلك: مذهباً إلي. دون كلمة، دون شعور،
بلدعة ارداء. ثمة في نظره شيء ما ربما أمكن ترجمته بالنصلي:
امسكي، حدي مالك واعربي. وأنا واقفة، ويسدي ممدودة،
شعرت وكاني أتسول، وكأنه علي أن أشكر على الصدقة
انعكست الأدوار، فأصحت مذبذبة لجلادي. اشترى أمي. ولن
يعود لي قط الحق في التشكي.

لو أن أصدقائي لم يفتحوا لي عيني، لكنت سأرمي الشيك
في وجه الموظف المكار، لأثبت للجميع أنه ليس بالمال، دون

طلب كلمة عفو. يُشترى الألم. ولكي لم أس مبالغ مر
يتخون رفض التعويض؟ مسألة غير مطروحة لجلادي ليسوا
على شهامة، وسوف لن يجدي عملي الجبريء أي صدى.
سوف توفر الحكومة مال التعويض، لا أكثر ولا أقل.

- ألا تريدن شيكهم؟ رُدّد ذلك على مسامعي،
سيتهجون بذلك!

مع ذلك، لا تتعلق المسألة بثروة. فقد قرّرت لجنة مغربية
مائة مائة. أجهل تركبتها، المبلغ اعتباطياً بعد مافشة ارجالية
وعلى نحو غريب، لم يكن تقدير الضرر واحداً لكل أفراد
العائلة فأمتي وأختي وأخوتي سوف لن يقصوا نفس المبلغ
الذي سأقبضه. وذلك لاعتبارات العمر والجنس والمزاج.
سخرت من ذلك: سيفيدني هذا المال في أن أقترض خمسة
عشر عاماً، كامراً حرة، لأحقق أخيراً حلمي. شراء بيت لي
حقاً. في مكان يختص. شرقية، جحر فربما سيقدم لي
الاختيار، بطريقة ما، ملاذي الأول.

لا شيء سوف يعوّض عشرين عاماً من السجن، ولا
عشر سنين، ولا حتى ستة أشهر. ولا هذا الشيك «النافع»،
والبيت الذي سيقدمه لي فضلاً عن أن ميوناً سوف لن يكون
أفضل من هذا. لا قيمة للمبلغ في نسخة الأوكسجين في الشوة
التي ستأتي لاحقاً لأنه إذا كان لا يزال الألم، فإن جلادتي قد
اعترفوا أخيراً أمام العالم بعذاب عائتي لقد بُرّا اسمي. وهذا لا
يقدر بنس.

البور الملون تلويحاً خفيفاً لسيارات المرسيدس، لكشف البريق
للناس في أيون راكبيها.

المال لا يعرض الحساسة، حق وإن ساعد في تضخيم
الجراح شيء واحد في العالم يملك قدرة الشفاء: الحب، ولو
منصعاً، وأيضاً المرتقب بقدر ما يمكن لذلك أن يظهر. حب
«بريك، طبعاً، الذي تلتقيته بالحق مند ولادني الجديدة، والذي
جدد دمي. ولكن حب الآخرين كذلك، حب عائلتي
وأصدقائي وكل الذين نجحوا، نخسروهم ودفعهم ودعمهم، في
طرد الأشباح.

En3aM
www.rgwlty.com

عائلة موجودة، قوية دائماً، حاضرة دائماً، وحق إذا كنا
موزعين اليوم في أركان الدنيا الأربعة، فإن العلاقة الدائمة التي
نسحت باغن تفيداً كملاط يشدنا إلى بعضنا. نحن نشبه بعض
الشيء أعصاب الشجرة الواحدة، منتمية إلى الأبد حول جذع
هو هويتنا، مع أنه يحمل بالآلام. لو أننا كنا قد اترفنا إسان
السنين السوداء، لما كان أحد من بيننا قد نجح.

منذ إطلاقنا عام 1991، صارت والدني، بصري لا حدود
له (السجن مدرسة جيدة للصبر) لتؤمن لنا حقاً في العيش قدر
المستطاع مرفوعي الرأس. محبنا القوة على مواصلة الصمود.
ماذا جرى لمواطني نظائرت المستندات القانونية هباء مشهور،
حينما أمر أمير المؤمنين بتجريف منزلنا، معتقداً بأنه يبحث بذلك
حتى ذكرانا. إن والدني تدير صراعها من أجلنا أكثر مما يكون
من أجل نفسها. دائماً، نحن السبب الوحيد لوجود هذه المرأة
التي توقفت حياتها في سن السادسة والثلاثين. دائماً، حملنا بلا

يكفي توقيع على قطعة من ورق لأصبح امرأة نرس
وإذا كان ثرائني نسبي غاماً، في نظر ذلك الرجل الطيب...
الاستمال الذي اقرب متي لدى الخروج من المحكمة، فاني...
إكثراً إنه ليس متسول وإنما طبّاح، على ما شرح لي...
لم تصد الحياة، بحيث سيصبح مشوهاً بعد بضعة أيام، حب
غفيرة سريعة الانتشار. ماذا عساي أن أرى في يؤسه؟ لا سر
أكثر من كلّ الناس الذين يزورون دون أن يلحظوه ولكن
أحدث فرصة الإصغاء إليه، لأنه أظهر الضيق، ولمرة واحدة...
سنتين، كاد قلبي أن يكون مرتاحاً.

يحتاج الرجل إلى المال، بالتأكيد. ماذا ستعيش أسرته
بغياحه، حينما تُبتر ساقه. عشرون يوماً، هذه ليست نهاية
العالم... وعده وحية بمساعدة، ولكن في اللحظة الأخيرة، طبل
بابه موصداً، وقد مرت بضعة أيام والطبخ يدق الباب يائساً
دون أن يلقى رداً.

وبعرضه لساقه المصابة بالغفيرة على.

— لقد جئت في الوقت المناسب، يا صديقي، أنا لربة.

أعطيته خمسمائة دولار. وهو المبلغ الذي لم أكن لأستطيع
تقديمه لأي كان لو لم يكن شيك جلادي في قاع حقيقي.
عشرون عاماً من السجن لأكون قادرة ذات يوم أن أتيح لمعور
العيش لعشرين يوماً... كلاًنا لن نعود سعداء بذلك: هو سيفقد
ساقه إلى الأبد، وأنا من المستبعد أن استعيد شبابي ذات يوم.
ولكن ذلك سوف يجتبه التسول والتدلل أمام المارة وسر أعوار

فجأة، من غفلتهم... لولاها، لكنت بلا شرك لا أزال طيفاً
بصف حرية. بلا أسرة وبلا عمل، أعيش في الكرم الزهيد
جلادي.

أحقي أم لصي في الثالثة عشرة، ميسيل، ابن أختي
الأول... وتدير بمحاسة داراً للإنتاج السمائي سادراً ما
تحدثت ماريا عن نفسها - لا تحب التبحر

لن تكون صورة العائلة كاملة دون ابني الصغيرة.
سكنية، التي استعادت سريعاً سمواتها آخر بتقديرها
لسكالوريا في 96، ومطابقتها بدراسات في مابون قلما كانت
توافقها. التصوير والرسم والبحث، ستنم في كل شيء عدا
ما يغذي البشر الأحرار، العمل في مكتب هواء في البداية.
نهت لبعض الوقت في الأعمال الصغيرة: سيلة لعيش قبل
أن تجد نفسها. الآن هي منصرفة إلى العمل. مهمة حقيقية أحب
نصوصها وصوتها وحضورها، ولست الورقة في هذا ما دام
القد متحمساً لها، لدرجة أنه كتب بأن هر شيء من يفاف
في هذه المرأة الشابة.

أخيراً، عبد اللطيف، وهو أكثر من ابني بيتنا من مشقة
ولادتنا من جديد: ربما لأن حياة بدأت في سن الثالثة في
قاع سجن هي عبء حتى نحي لا نذكره لسن الثالثة في
السجن بشغف لا حدود له بالسماء المرقمة، وتعدل طويلاً
بالأمل في أن يصبح طياراً. لقد طار، أن بعض التدريبات،

مساعدة من أحد، نحن الذين دخلنا إلى الحليم في عمر مثلاً
للغاية، والذين سعت لأن تسحبهم طفولة. الآن، تعيش تلك
سنتي في نظر العالم أرملة أوفقر بين باريس ومراكش عدا
69 عاماً، عمر التنفس الجهد، أخيراً. أعرف أنها أخذت فرصة
الحياة؛ لا أحد استحق ذلك بقدر ما استحقته هي.

تزوجت مريم، وتعيش في باريس كأمراة حرة، ولكنها لا
تزال تحمل آثار السجن. وبسبب هذه الصحة العلية، أصبحت
نوال، ابنتها، ابني أيضاً... ولكن في كمال حقيقي، لم تسلم
مريم: بعد الحصول على إجازة في علم النفس التربوي (اسم
بربري للإشارة إلى الأحصائيين في مجال الطفولة في وضع
عسير) أعرف أنها تعد مجموعة صور مزينة بقصائدها. بالنسبة
لي، تبقى تحفها هي نوال...

يلعب رؤوف 47 عاماً... وهو أب لطفلة صغيرة في الثاين.
عشرة من عمرها، ويصعب علي تصديق ذلك. لو لم يكن
اللقب رباناً، للقبته بتعفف العائلة. إنه عقل أكثر من مفكر بال
الشهادت، ولا زال يحضر للدكتوراه، ونشر في عام 2003.
كناياً متميزاً الصوف، يعود فيه إلى جذور محنتنا أنا معجبة
بأخي، وهذه القوة المتميزة التي أتاحت له ألا يروي عليه أيد،
من المعرفة، هناك حيث نُشَف كل شيء آخر.

إذا كنت حرة اليوم، فهذا أيضاً وحاجة بفضل ماريا، التي
لا تحمل عبثاً اسم قديسة. بفضل فراها في عام 1996، وبفضل
الصحة التي أحادت بثارتها لدى وصولها إلى فرنسا، رُفعت
الأغلال أخيراً. لقد هزت البشر الأحرار، السدين، خرجوا،

ولكن شُحَّ المال ، منعه حينها من تحقيق حلمه. أسأل الله أن يجد الهدوء والاتزان وأخيراً الراحة، لأنني أعرف جميع الملل الذي ينوء به، النقل الذي قضيتُ سنين كثيرة كمن الخلفه به.

كيف يمكن نسيان الفصن الذي انضمَّ بميله إزادته إلى ذلك الجذع الذي لفظه الجميع كما لو أنه كان ميتاً حلبة، التي تركتها بحزن ولكنها ظَلَّت على الدوام في قلوبنا، وعادوا، ابنة عم أمي التي لحقت بنا إلى أعماق الجحيم، وعاشت يوماً وسط العائلة، وناداهم الأطفال جَدِّي. اعتقد أنها وصلت السعادة... ربما ليس تهاون البشر الأحرار، وإنما السلام الذي هو لنا بمثابة كثر حقيقي.

حبيباً أيريك هو نسيج حياتي. وحب عائلتي، هو الملاط الذي أعاني على أن أبقى كاملة. أما الأصدقاء، فقد دخلوا تسديحاً في حياتي، وقد علموني دون إظهار ذلك أن أتألف مع العالم. لقد بات بعيداً زمن الأكلة الكبار حيث كنتُ أسأل، مشلولة، كيف، بل ولماذا، المشاركة في الأحاديث. السيد، أصدقائي هم متفسي، الذين لولاهم لكان العالم لا يزال أنا قاحلة، حيث كنتُ لأذكور على نفسي تحت ظل أيريك. لم يعد الإنسان الحر مجهولاً: إنه يُدعى نانالي، موريس، ناديا، مارتن، سوزي، وليد، توي، سروج، أكسيل، كوزيما، بيت، ميريس، كلوديا، بياتريس، إليزابيت، لوران، فيليب، فوجيني، ويلي، دانيال، بريجيت ودانيال، فريد، باي، أوسكار، كارول، ريماء، كريستيان، فانيسا، ايفان، ماتيو... طبعاً دون أن أنسى أصداء السجينة بين فرنسا والمغرب ولبنان وأستراليا وبلدان أخرى

لم أعد الدكتور ليفنكستون في بلاد الأقزام. لم أعد كائن مرنجي. لم أعد تلك التي كان العالم بالنسبة لها يختصر في عائلة صغيرة محبة في قاع حفرة. تعلمتُ أن أحب وأن أحب، وأن أنفتح على الآخر. بقليل من الخبرة، لم يعد الإنسان الحر، الذي كان يُعزى أشد الفزع، بذلك الرعب. بل على العكس، إنه جوهري أحياناً لتوازي. وأنا لتوازنه، لأنني في النهاية قادرة على مبادلة من يمنحني الحب.

181. الحب في الأربعين.
207. الحلم الأمريكي.
221. موت ملك.
229. الولادة من جديد.
235. التعويض.
245. الفهرس.



20 عاماً في سجن...

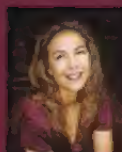
لكن رغم ركود ورتابة السجن،
كتبت مليكة أوفقيز كتاباً مثيراً للغاية،
(السجينة) الكتاب الذي هز كل من
قرأه، وحمل إليها تضامناً غير عادي.

كتبت في (السجينة) حياة السجن،
والفرار منه، وتكتب في (الغريبة)
الرغبة في استعادة الحياة، بكل ما
تحمله من هجنة، بعد انقطاع دام 20
عاماً.

En3aM

www.rgwity.com

ehda2 ela montada rewity
wa ela al 3azeeza hind88
8era2a momte3a lel jamee3 :)



ملیكة أوفقییر

الضریبة

عشرون عاماً من السجن ۱۱. عشرون عاماً ۱۱

لقد خرج كتاب السجينة. ولاقى من النجاح وحرارة التواصل ما جعله يتصدر أبرز صحف وواجهات مكبات العالم. وجعل من ملیكة أوفقییر نجمة في أكبر وأهم محطات التلفزة وفي برامجها الأولى.

لقد كان "السجينة" شهادة مؤثرة عن الألم والظلم، وأيضاً عن البقاء، عن القمع وجشع السلطة، وكذلك عن العبر والرغبة في النسيان من السجن والسجان، وعن الحرية ومحاولة الصفع.

ها هي ملیكة أوفقییر، الحرة، تواجه مرحلة الخروج مما تركه السجن في الذهن والروح، مما تركته سنوات الغياب عن عيش مجتمع الناس الأحرار.

ومرّة أخرى، بمرآة وكشف، يرغبة في عيش الحياة، تكتب عن سجن ما بعد السجينة. عن الناس الذين أحببتهم، عن الذين ساعدوها في هجرة العودة للحياة كامرأة حرة.

Endem
www.gwilly.com



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: ۹۱۱۱۷۱۲۵۷ - ۸۱۱۲۷۲۸۷۱

توزيع المركز الثقافي العربي

بيروت: من ب، ۲۰۲۰
هاتف: ۷۵۵۵۷ | فاكس: ۳۴۳۷۰۱ | ۹۵۱
cck_bey@yaho.com